تأثير الشمال الأفريقي على الحياة الفكرية

في السودان الغربي

فيما بين القرنين الثامن والعاشر الهجريين
الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين

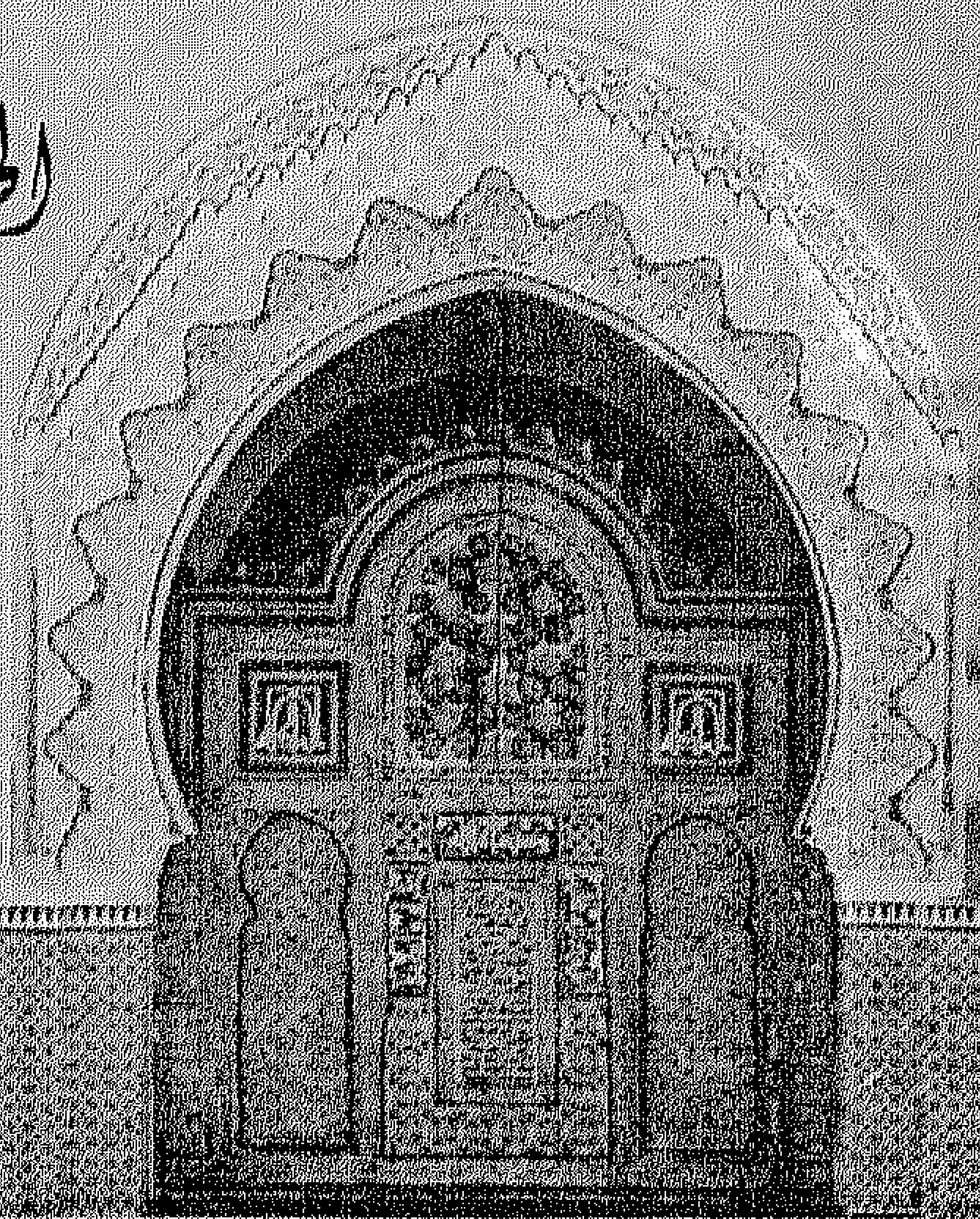


إعداد

مسعود عمر محمد علي

إشراف الأستاذ الدكتور

الهادي المبروك الدالي





منشورات
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
الجماهيرية العظمى - طرابلس

تأثير الشمال الافريقي على الحياة الفكرية

في السودان الغربي

فيما بين القرنين الثامن والعاشر الهجريين

الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين

الطبعة الأولى

1371 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. 2003 مسيحي



منشورات

جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

الجماهيرية العظمى - طرابلس

برنامج ما بعد كانو

تأثير الشمال الافريقي على الحياة الفكرية

في السودان الغربي

فيما بين القرنين الثامن والعاشر الهجريين

الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين

إعداد

مسعود عمر محمد علي

إشراف الأستاذ الدكتور

الهادي المبروك الدالي



منشورات

جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

الجماهيرية العظمى - طرابلس

برنامج ما بعد كانو

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ
وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ
ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

سورة الحجرات/ 13

صدق الله العظيم

الإهداء

إلى كل المناضلين الشرفاء

في القارَّة السمراء

الفهرس

المقدمة

شهدت مناطق السودان بصفة عامة، والسودان الغربي بشكل خاص، منذُ امتداد المراحل الأولى للتحرير الإسلامي لمناطق الشمال الأفريقي، تأثيراً مباشراً في العديد من جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية وغيرها، لدى أهالي السودان، حيث شكل عامل الإسلام الركيزة الأساسية في ظهور ووضوح هذه التأثيرات.

فمنذُ أن وطئت أقدام المسلمين شمال القارة الأفريقية زاد الاتصال بين العرب المسلمين وأهالي السودان، وأخذت تعاليم الإسلام في الانتشار، وهذا يفسر لنا عمق الاتصال المتبادل بين المنطقتين الشمال الأفريقي من جهة وما وراء الصحراء من جهة أخرى، ولكن المتتبع لهذا التواصل يجد أنه شهد تطوراً ملحوظاً مع بداية القرن الثامن الهجري حتى القرن التاسع الهجري/ الرابع عشر إلى السادس عشر الميلادي.

فالممالك الإسلامية التي ازدهرت في أقاليم السودان الغربي في تلك الفترة تظهر لنا الدرجة المتقدمة التي وصلت إليها هذه المجتمعات السودانية، بالأخذ بما قدم لهم من تأثيرات من شمال القارة الأفريقية، حيث كانت التأثيرات الثقافية في مقدمتها، وبذلك شكلت أهمية تستحق الدراسة والبحث، لأنها غيرت من هذه الأقوام وصبغتهم بالطابع العربي الإسلامي المميز، إضافة إلى ذلك فإن أغلب الذين كتبوا عن تاريخ مناطق ما وراء الصحراء، وفي هذه الفترة التاريخية المتقدمة هم من العرب المسلمين ثم من الوطنيين السودانيين، وكانت اللغة العربية هي لغة التدوين والكتابة.

ولهذا فقد وقع اختياري لهذا الموضوع الذي حمل عنوان (**تأثير الشمال الأفريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي فيما بين القرنين الثامن والعاشر الهجريين/الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين**).

تقوم هذه الدراسة على أربعة فصول ومقدمة وخاتمة، انتهجت منهجاً تحليلياً ووصفياً لما تضمنته المصادر التي تناول مؤلفوها العلاقات القائمة بين المنطقتين ومن ثم استخلاص ما يخدم الموضوع في النواحي الفكرية.

فتضمن الفصل الأول مفهوم بلاد السودان وأهم الممالك القائمة فيه، مبيناً فيه مفهوم بلاد السودان، مع لمحة جغرافية عن بلاد السودان وتركيبته السكانية، إضافة إلى إبراز أهم الممالك القائمة فيه في تلك الفترة التاريخية.

وأوضح الفصل الثاني عوامل انتشار الإسلام في السودان الغربي، مبيناً العوامل الذاتية والخارجية، وسعى إلى إبراز أهميتها في التأثيرات الفكرية.

أما الفصل الثالث فقد حمل عنوان الأثر المتبادل للحياة الفكرية بين المراكز الحضارية في الشمال الأفريقي والسودان الغربي، واعتنى هذا الفصل بدراسة لأهم طرق القوافل عبر الصحراء، لأهميتها في هذا التواصل، ومن ثم العلاقات الثقافية والعلمية بين مصر وبلاد السودان الغربي، موضحاً فيه أهمية المراكز الحضارية الصحراوية، وذلك لأهميتها كحلقة وصل بين الشمال الأفريقي، ومراكز انتشار الثقافة العربية الإسلامية بالسودان الغربي، موضحاً الدور المهم في تطور الحياة الفكرية.

اهتم الفصل الرابع بدراسة لأهم مظاهر تأثير الشمال الأفريقي في الحياة الفكرية على السودان الغربي، كمحصلة لما تمت دراسته في الفصل الثالث، حيث شملت انتشار اللغة العربية ومراحل التعليم وبروز العلماء، ورحلات الحج المتوالية إلى الأراضي المقدسة.

إن هذه الدراسة اعترضتها صعوبات جمة، خاصة وإنها ترجع إلى فترة تاريخية متقدمة تعود إلى الفترة الأخيرة من العصور الوسطى ذات الطابع الإسلامي كما إن هذه الفترة التاريخية ترتب عنها ضياع العديد من المؤلفات التي تولي الموضوع أهمية، سواء كان ذلك بسبب البعد الزمني، أو عوامل أخرى كالدمار الذي حدث بفعل الاستعمار الأوروبي للقارة الأفريقية، إضافة إلى ذلك تشتت المادة العلمية في

العديد من المكتبات العربية والأفريقية، ولكن أمكن إلى حد ما التغلب على هذه الصعوبات بفضل الزيارة الميدانية للمنطقة والاعتماد على المصادر العربية والسودانية المخطوطة والمطبوعة المتبقية، مع جمع ما يفيد من المراجع خدمة للموضوع، والتي اجتهد مؤلفوها في إبراز الكثير من الجوانب، وهي ذات أهمية لسد ما تبقى من نقص لم تسعفنا به المصادر الأساسية.

واعتمدت في هذه الدراسة على العديد من المصادر العربية من مخطوطات ووثائق، ومصادر مطبوعة ومحققة، فمن المخطوطات مخطوط (الجواهر الحسان في أخبار السودان) لأحمد بابير الأرواني، وهو أحد مؤرخي السودان، والتي أفادتنا كثيراً في معرفة تاريخ أقاليم السودان الغربي وقيام الممالك الإسلامية فيه ومنها مخطوط (أخبار البلاد الحوسية) لعثمان بن فودي حيث أطلعنا من خلالها على تاريخ المنطقة والحركة الثقافية فيها، كذلك مخطوطة مقرين البغطوري النفوسي المعروفة (بسيرة أهل نفوسة) والتي يوجد فيها الكثير من المعلومات عن دور الفقهاء والعلماء المغاربة، وخاصة من جبل نفوسة في نشر الإسلام في بلاد السودان الغربي والأوسط، ومخطوطة (السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية) لأحمد بابير الأرواني، ومخطوط (إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر العلماء المؤمنين من أهل التكرور والصحراء وشنقيط) لأحمد أبو الأعراف، حيث تتناول ترجمة لعلماء السودان، وغيرها من المخطوطات.

ورغم تنوع الفترات الزمنية لهذه المخطوطات التاريخية، إلا أنها أمدتنا بالكثير من المعلومات عن الحياة الثقافية والفكرية في السودان الغربي إضافة إلى تأثيرات الشمال الأفريقي الفكرية والثقافية.

ومن المصادر المطبوعة كتاب (مسالك الإبصار في ممالك الأمصار) لابن فضل الله العمري، والذي يحوي معلومات مهمة عن جوانب الحياة المختلفة للمنطقة كما يحدثنا عن رحلة منسا موسى للحج، والتي تعد نتاجاً للتأثيرات الفكرية من الشمال الأفريقي في السودان الغربي.

وكذلك كتاب (رحلة ابن بطوطة) لابن بطوطة (ت 779 هـ/ 1377 م) والمعروفة باسم (تحفة النظار في غرائب وعجائب الأسفار)، وتعد رحلته إلى بلاد السودان الغربي سنة 1352م من أهم الرحلات، وسجلاً حافلاً بالملاحظات، أمدتنا بالكثير من المعلومات عن تأثيرات الشمال الأفريقي في أقاليم السودان الغربي وكذلك كتاب (وصف أفريقيا) لحسن الوزان (توفي 957 هـ/ 1550 م) الذي زار منطقة السودان في القرن السادس عشر الميلادي، حيث كانت لمشاهداته أهمية كبرى أعطت صورة واضحة عن حواضر السودان الغربي وجوانب الحياة فيها.

ومن المصادر السودانية كتاب (تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس) لمحمود كعت (ت 1002 هـ/ 1593 م) من مؤرخي السودان المعاصرين لدولة سنغاي الإسلامية، حيث كان من بين العلماء الذين حجوا مع أسكيا محمد، وفي كتابه هذا معلومات مهمة عن الحركة العلمية، وعن بناء المساجد والمدارس وجهود العلماء في نشر الإسلام واللغة العربية في السودان عبر الوعظ والإرشاد والتعليم، ومنها كتاب (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) لأحمد بابا التنبكتي، من مؤرخي السودان (ت 1036 هـ/ 1607 م) والذي يعد موسوعة مهمة لتراجم العلماء المسلمين العرب والسودانيين، وقد أفادنا كثيراً في معرفة العلماء البارزين وأهم أعمالهم وأماكن دراستهم وتنقلاتهم من أجل العلم، كذلك كتاب (تاريخ السودان) لعبد الرحمن السعدي، فيعد من الكتب التي تمثل ثروة علمية في تاريخ المنطقة، ومؤلفه من أسرة سودانية وطنية، تعلّم المعارف العربية وطاف بكثير من البلاد الإسلامية ثم عاد وسجل فيه تاريخ الدول الإسلامية في غرب أفريقيا نقل كثيراً عن كتاب نيل الابتهاج لأحمد بابا.

أما المراجع فمنها الرسائل العلمية غير المنشورة، والكتب المطبوعة والمعربة مع ما احتوته الدوريات، فمن الرسائل العلمية غير المنشورة (الحواضر الإسلامية في غرب أفريقيا في القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين) وهي رسالة دكتوراه أمدتنا بالكثير من المعلومات المتعلقة بالحواضر الإسلامية في السودان الغربي.

ومن المراجع العربية المطبوعة كتاب (التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا فيما وراء الصحراء) للدكتور الهادي المبروك الدالي، أمدنا فيه بالكثير من المعلومات ذات العلاقة بالدراسة، وترجع أهمية هذا الكتاب في اعتماد مؤلفه على الكثير من المخطوطات والوثائق ذات العلاقة بالدراسة، إضافة إلى الزيارات الميدانية المتعددة التي قام بها المؤلف إلى المنطقة، وبذلك فإن معلوماته أكثر دقة، ومنها كتاب (الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم - 600 - 1000 هـ - 1200 - 1600 م) لفضل كلود الدكو، والذي أفادنا في التعريف بمناطق السودان والكيفية التي وصل الإسلام من خلالها إلى المناطق السودانية، مع إبراز دور العلماء والأئمة والدعاة في نشر الثقافة العربية في تلك الممالك السودانية ومن المراجع المعربة كتاب (الدعوة إلى الإسلام) لتوماس أرنولد والذي أطلعنا عن دور العرب المسلمين في نشر الثقافة الإسلامية في الممالك السودانية ويوضح هذا المؤلف أهمية المراكز الثقافية الإسلامية في مناطق ما وراء الصحراء.

كذلك كتاب (تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير) لبوفيل، والذي يعطي معلومات مهمة عن تاريخ المنطقة.

وشكلت الدوريات أهمية في هذه الدراسة ومنها مجلة البحوث التاريخية التي يصدرها مركز جهاد الليبيين، وفيها الكثير من البحوث القيمة عن بلاد السودان الغربي وعلاقتها بالشمال الأفريقي، والدور الرائد الذي لعبه علماء ودعاة الشمال الأفريقي في نشر الإسلام والثقافة العربية فيما وراء الصحراء، ومنها مجلة الدعوة الإسلامية التي تصدرها كلية الدعوة الإسلامية، وتحوي عدداً من المواضيع المهتمة بنشر الثقافة الإسلامية في السودان الغربي، ومجلة حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، والتي تصدر عن منظمة المؤتمر الإسلامي، وفيها موضوعات مهمة تتناول الملامح الحضارية والعلمية للسودان الغربي والعلاقات العربية الأفريقية فيما وراء الصحراء.

هذه بعض أهم المصادر والمراجع التي أعطت أهمية في هذه الدراسة وأمكن الإشارة إليها، ولم يكن الباقي منها غير ذات أهمية، فهي أيضاً شكلت مادة أساسية ومهمة للبحث.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لأستاذي الفاضل الدكتور الهادي المبروك الدالي الذي أشرف على هذه الدراسة حتى إظهارها إلى حيز الوجود، والذي أمدني بالكثير من الملاحظات كانت بحق ذات أهمية طوال كتابة هذا البحث.

كما أتقدم بشكري إلى العاملين بجمعية الدعوة الإسلامية، وكلية الدعوة الإسلامية لتمكيني من زيارة بعض الدول ذات العلاقة بموضوع البحث فيما وراء الصحراء في كل من النيجر ومالي وكانو.

وخالص شكري إلى العاملين بمكتبة الجهاد الليبي، وكلية الدعوة الإسلامية ومكتبة السرايا، ومكتبة كلية الآداب والعلوم بيفرن، على تعاونهم خدمة للعلم، وشكري أيضاً إلى القائمين على مركز البحوث والدراسات العليا بجامعة السابع من إبريل للاهتمام المتواصل والجاد في طريق الدراسات العليا.

والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

الفصل الأول

مفهوم بلاد السودان الغربي
وأهم ممالكه

أولاً: مفهوم السودان الغربي.

ثانياً: لمحة جغرافية عن أقاليم السودان الغربي.

ثالثاً: التركيبة السكانية.

رابعاً: ممالك السودان الغربي

أولاً: مفهوم السودان الغربي:

أطلق الجغرافيون والمؤرخون والرحالة العرب في العصور الوسطى على المناطق الواقعة فيما وراء الصحراء الكبرى وشمال خط الاستواء، والممتدة من البحر الأحمر شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً اسم (بلاد السودان)، ورغم أن المدلول اللفظي لكلمة السودان قد تعني الشعوب السوداء البشرة، فإنه من المرجح دلالتها عندهم على مناطق حزام السافانا، وهي المناطق التي كانت أقوى أجزاء القارة الأفريقية علاقة بالشمال الأفريقي تأثيراً وتأثراً حتى أضحى معظم سكانها من المسلمين، وقد كان الجغرافيون والمؤرخون العرب أكثر إلماماً بهذه المنطقة بحكم تداخلها مع الشمال الأفريقي من ناحية الجنوب[1].

وقد وصف الاصطخري الذي عاش خلال القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي ـ بلاد السودان بقوله: «... أنها بلاد عريضة وليس في الأقاليم التي للسودان من الحبشة والنوبة والبجه وغيرها، إقليم أوسع منها وتمتد على قرب البحر المحيط* مما يلي الجنوب ومما يلي الشمال على مفازة تنتهي إلى مفازة مصر من وراء الواحات»

---

(1) الهادي المبروك الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، الدار المصرية اللبنانية، 1999م ص 17، أمين توفيق الطيبي، أثر الإسلام الحضاري في غانا ومالي في العصر الوسيط، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الأفريقية على جانبي الصحراء، تقديم عبد الحميد الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس 1999م، ص 116، عثمان سيد أحمد، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، مجلة دراسات أفريقيا، المركز الإسلامي، الخرطوم، العدد الأول، أبريل 1965م، ص 30.

* أما لفظ البحر المحيط الوارد في النص فمقصود به المحيط الأطلسي.

ويصف سكانها بأنهم «ليسوا بنوبة ولا بزنج ولا بحبشة ولا من البجة إلا أنهم جنس على حده أشد سواداً من الجميع وأصفى»[1] .

كما وصفها القزويني بقوله «هي بلاد كبيرة وأرض واسعة ينتهي شمالها إلى أرض البربر** وجنوبها إلى البراري وشرقها إلى الحبشة وغربها البحر المحيط»[2] .

والمتتبع لكتابات المؤرخين العرب في العصور الوسطى يلمس أنهم لم يضعوا تقسيما معيناً للمنطقة، ولكن عندما سقط كل ما يعرف باسم السودان تحت الاستعمار الغربي تم تقسيمه إلى أقسام متعددة فظهر السودان الغربي والسودان الأوسط والسودان الشرقي، وهو في هذا التقسيم يعكس نظرة الاستعمار ورغبته في تقسيم المناطق ووضع الحدود المصطنعة حتى يسهل له السيطرة على البلاد وامتلاك مقدراتها، بهذا فإن مصطلح بلاد السودان أصبح يشمل الآتي:

1ـ السودان الشرقي:

ويمتد من البحر الأحمر شرقاً حتى حدود إقليم دار فور غرباً ويضم الحوض الأعلى والأوسط لنهر النيل[3] .

---

(1) أبو العباس الفارسي الاصطخري، المسالك والممالك، القاهرة، مطبعة الحسيني 1961، ص34.

** أطلق الإغريق على سكان الشمال الأفريقي لفظ (البربر) وهو لفظ يطلق بصفة عامة على الشعوب الناطقة بغير اللغة الإغريقية، تماماً مثل ما أطلق العرب على الفرس وغيرهم لفظ (عجم). للمزيد انظر عبد الرحمن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر، بيروت 1965م، ص48.

(2) زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، د.ت، ص24.

(3) شيخ الأمين عوض الله، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطتين الإسلاميتين: مالي وسنغاي، جدة، دار المجمع العلمي، 1979م، ص 41.

وكان هذا التقسيم إضافة إلى ساحل شرق أفريقيا قد غلب عليه عند العرب ما قبل القرن الرابع الهجري - التاسع الميلادي - والسادس الهجري - الثاني عشر الميلادي - اسم بلاد الزنج، إلا أن كلمة السودان كانت تشمله أيضاً[1].

2.السودان الأوسط:

ويشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد، بين خطي عرض 22 شمالاً 10 جنوباً وبين خطي طول 10 شرقاً 15 غرباً[2].

3.السودان الغربي:

ويشمل المناطق الواقعة بين حوض نهري السنغال* والحوض الأوسط لنهر النيجر والمجرى الأعلى لنهر فولتا[3]. والمنطقة الأخيرة هي منطقة هذه الدراسة وقد عرفت أيضاً باسم الحوض والساحل[4].

كما تعد الآن جغرافياً جزءاً من غرب أفريقيا، وتجدر الإشارة إلى أن بعض الكتاب والجغرافيين والمؤرخين العرب في القرون الوسطى كانوا يخلطون بين مصطلحي بلاد السودان الغربي وبلاد التكرور، يقول صاحب كتاب أنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور «وأعلم أن هذا الاسم الذي هو تكرور علم على الإقليم الغربي

---

(1) عبد القادر زيادية، مملكة سنغاي في عهد الأسكيين، 1493 - 1592، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع د. ت، ص 15.

(2) أطلس العالم، جماعة من الأساتذة، بيروت، مكتبة لبنان، د. ت، ص 37.

* نهر السنغال ونهر النيجر، كان المؤرخون والجغرافيون العرب القدامى يسمون كليهما بنهر النيل، أو البحر.

(3) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص 41.

(4) أمين توفيق الطيبي، الحضارة العربية الإسلامية وأثرها الإيجابي في السودان الغربي في القرون الوسطى، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، 1980م، ص 259.

من الجنوب السوداني، على ما فهمنا من تعبيرهم في التواريخ والنقول، وهذا الاسم شائع في الحرمين ومصر والحبشة»[1].

ومنهم من يستخدم لفظ التكرور ويعني به بلاد السودان الغربي بعامة[2].

رغم أن منطقة التكرور هي إحدى مناطق السودان الغربي وكانت قد انفصلت عن مملكة غانا الوثنية حوالي القرن الخامس الهجري ـ الحادي عشر الميلادي، أما ابن فضل الله العمري فيقول: «وصاحب هذه المملكة هو المعروف عند أهل مصر بملك التكرور ولو سمع هذا أنف منه لأن التكرور إنما هو إقليم من أقاليم مملكته وأحب إليه أن يقال صاحب مالي لأنه الإقليم الأكبر وهو به أشهر...»[3].

والجدير بالذكر أن بعض الكتّاب اليونان والرومان أطلقوا على منطقة السودان الغربي والأوسط مصطلح نجريتا (NIGRITIA) نسبة لنهر النيجر الذي أطلق عليه هذه التسمية لأول مرة المؤرخ الجغرافي الروماني (بليني) (PLINY) حوالي 115م ومعناها (نيل الأجناس السوداء)[4].

ثانياً: لمحة جغرافية عن منطقة السودان الغربي:

إن موقع السودان الغربي، يتميز بمميزات إيجابية جعلت منه منطقة جذب للهجرات من مختلف الجهات المحيطة به، ومن هذه المميزات موقعه في منطقة غزيرة

---

(1) محمد بلو بن عثمان بن فودي، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، طن غي طا بيرو صكتو 1964م، ص 23.

(2) أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1963م، ج5، ص 283.

(3) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، فرانكفورت، معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية 1988م، ج4، ص 34.

(4) ابراهيم علي طرخان، الإسلام واللغة العربية في السودان الغربي والأوسط، القاهرة، الهيئة العامة للتأليف والنشر 1969م، ص 52 ـ 53.

الأمطار نسبياً، وتجري بها بعض الأنهار مثـل نـهر السنغال ونـهر النيجر ونـهر غامبيا ونهر فولتا[1].

إضافة إلى تنوع المناخ وخصوبة التربة وتوفر الـثروة الحيوانيـة والـثروة السـمكية والثروة المعدنية وخاصة الذهب والنحاس وغيرها[2].

ونتيجة لهذه المميزات عاش في هذه الإقليم منذ زمن بعيد خليط مـن الأجنـاس المختلفة ونشأت به جملة من المدن والحواضر، وربطت هـذه المنطقـة بشبكة مـن طـرق القوافل مع مناطق الشمال الأفريقي، وكان الذهب من أبرز الـثروات التـي تمتعت بـها بلاد السودان الغربي والتي كـانت سـبب شـهرتها الأسـطورية منـذ القـدم وقـد سـماها الفزاري أرض الذهب[3].

وكان الذهب يستخرج من مناجم (ونقارة) في الجنوب وقد كـانت هـذه المنطقـة (السـودان الغربـي) كمـا يؤكـد (مونـي) Mauny منـذ القـرن الثـاني الـهجري الثـامن الميـلادي وحتـى اكتشـاف العـالم الجديـد (الأمريكيتـين) 1492م هـي المصـدر الرئيسـي لتموين العـالم بـالذهب، وكـان لـهذا الذهـب اليـد الطولـي فـي بنـاء قـوة غانـا وقيـام إمبراطورية مالي[4].

ومن الثروات المعدنية التي كـانت متوفـرة فـي السـودان الغربـي والتـي تـأتي فـي المرتبة الثانية بعد الذهب هي النحاس والذي كان يستخرج مـن (تكـدا) وقـد أورد ابـن بطوطة معلومات عن هذا المعدن قائلاً: «ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفـرون عليه

---

(1) فتحي محمد أبو عيانة، جغرافية أفريقيا، دراسة إقليمية مع التطبيق علـى دول جنـوب الصحراء، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1983م، ص 223.

(2) الهادي الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ص 267.

(3) بازل دافدسن، أفريقيا تحت أضواء جديدة، ت، جمال أحمد، بيروت، دار الثقافة العربيـة، 1961م، ص 137.

(4) بازل دافدسـن، المرجـع السـابق، ص 136، وكذلـك الـهادي الدالـي التـاريخ السياسـي والاقتصادي، ص 281.

في الأرض ويأتون به إلى البلد فيسكبونه في دورهم... فإذا سكبوه نحاساً أحمر، صنعوا منه قضباناً طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ»[1].

وكان النحاس يستخدم في الصناعات الحربية وأدوات الزينة وصناعة الأواني وغيرها[2]، وكذلك الحديد الذي يدخل في صناعة الأسلحة والمعدات الزراعية وغيرها كما اشتهرت بلاد السودان الغربي بالثروات الزراعية وتنوع المحاصيل، وذلك نتيجة لخصوبة الأرض وهطول الأمطار وجريان الأنهار[3].

كما يوجد في المنطقة العديد من أنواع الحيوانات، مثل البقر والفيلة والزرافة والأسود والغزلان والماعز الوحشي، وغيرها[4].

كما توفرت بها كميات كبيرة من الأسماك التي شكلت جزءاً مهماً من مكونات الغذاء في تلك المنطقة[5].

ثالثاً: التركيبة السكانية:

تتكون التركيبة السكانية للسودان الغربي من عدة قبائل أو أجناس ترجع في أصولها الأولى، أما إلى أصول زنجية أو أصول حامية أو أصول سامية، وقد وصلت إلى هذه المنطقة عن طريق هجرات متعددة نتيجة للظروف الطبيعية والمناخية فاستقرت بهذه المناطق واندمجت بالمصاهرة والحماية القبلية في بعض الأحيان[6].

---

(1) أبو عبد الله بن إبراهيم بن بطوطة اللواتي، رحلة ابن بطوطة، بيروت، دار صادرز، د.ت، ص 667.

(2) الهادي الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ص 284.

(3) ابراهيم طرخان، إمبراطورية غانا الإسلامية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973م، ص 136، الهادي الدالي، المرجع السابق، ص 267.

(4) الهادي الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ص 276.

(5) المرجع السابق، ص 280.

(6) س، ج، سجلمان، السلالات البشرية في أفريقيا، ت، يوسف خليل، القاهرة، 1959م، ص 86 ـ 139.

وبمرور الزمن تغيرت الملامح الرئيسية لهذه الأجناس حتى إننا في الوقت الحالي لا نستطيع أن نميز بعضها عن بعض أو أن نرجعها إلى أصولها الأولى، ولا يمكننا الحصول على مجموعات ما زالت محتفظة بخصائصها أو مميزاتها ونقائها الجنسي[1].

وأهم هذه القبائل القاطنة في منطقة السودان الغربي هي:

1 ـ القبائل العربية
2 ـ القبائل التارقية (التوارق)
3 ـ قبائل السوننك
4 ـ قبائل الفلأنة
5 ـ قبائل البمبارة
6 ـ قبائل التكرور
7 ـ قبائل الولوف
8 ـ قبائل الموشي
9 ـ قبائل السنغاي

1ـ القبائل العربية:

إن الصحراء لم تشكل أمام القبائل العربية أي مشكلة في عبورها نظراً لأن طبيعة بلادهم صحراوية وهم متعودون على اجتيازها، ولهذا فإنهم وصلوا إلى السودان الغربي عن طريق هجرات قادمة من الشمال الأفريقي بعد اجتيازهم للصحراء الكبرى، حيث دخلوا مدن الزنوج وتعاملوا مع أهلها بالتجارة والمصاهرة[2]. وبانتشار الإسلام في مناطق السودان الغربي زاد عدد القبائل العربية نتيجة لاختلاط القبائل العربية مع السكان الأصليين، واستقرارهم بهذه المناطق أكسبهم صفات جديدة، ويحدثنا البكري عن أقوام منهم تسمى (بالهنيهين) فيقول: «ببلاد غانا قوم يسمون بالهنيهين من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية أنفذوه في صدر الإسلام، ... هم على دين أهل غانا إلا أنهم لا ينكحون في السودان ولا ينكحونهم فهم بيض الألوان حسان الوجوه»[3].

(1) محمد عوض محمد، الشعوب والسلالات الأفريقية، القاهرة، 1966م، ص 233.
(2) محمد عبد القادر أحمد، المسلمون في غانا، القاهرة، 1986م، ص 20.
(3) أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، بغداد، مكتبة المثنى، د ـ ت، ص 179.

كما أن مجموعات من العرب الحسانية غزوا جنوب مراكش وتقدموا نحو الجنوب حتى استقروا على ضفاف نهر السنغال[1] .

وتؤكد المصادر المكتوبة والروايات الشفوية على إن الأسر الأولى التي كونت ممالك وإمبراطوريات السودان الغربي ترجع أساساً إلى أصول عربية[2] .

وأن العديد من القبائل السودانية تفتخر بنسبها العربي، والقبائل العربية موزعة اليوم بين السنغال ومالي والنيجر ناهيك عن المجموعة التي انصهرت في بقية السكان في أنحاء السودان الغربي ومن أهم هذه القبائل «تبرازه - بركنة - أولاء دليم - الرقيبات - المشطوف - جرجنكة - الكونتة - البرابيش - الأنصار - أولاد سليمان - أهل أروان - أولاد أعيش - الفولأنيين، أهل تاورديني - السكاكنة - أولاد غلان - أفوغاس الحساونة - كل السوق - أولاد يعقوب وغيرهم»[3] .

2.قبائل الطوارق:

اختلف المؤرخون في تسمية الطوارق بهذا الاسم فمنهم من يقول: إنهم سموا بالطوارق نسبة إلى طارق بن زياد، ومنهم من يرى أن التسمية جاءت لطرقهم الصحراء وتوغلهم فيها[4] .

وهناك من يرى أن التسمية (الطوارق) أطلقتها عليهم الشعوب المجاورة لهم نظراً لكثرة ارتيادهم للصحراء[5] .

---

(1) عبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، القاهرة، مطبعة يوسف، د-ت، ص 99.

(2) فيج، جي، دي، تاريخ غرب أفريقيا، ت، السيد يوسف ناصر، القاهرة، دار المعارف، 1982م، ص 33.

(3) ابراهيم طرخان، إمبراطورية غانا الإسلامية، ص 19 .

(4) محمد سعيد القشاط، الطوارق عرب الصحراء الكبرى، مركز دراسات وأبحاث الصحراء، 1989م، ص 27.

(5) الهادي الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ص 216.

ولقد اختلف المؤرخون في نسب الطوارق والرجوع بأصولهم فمنهم من يرى أنهم ينتسبون إلى صنهاجة، والصنهاجيون يرجعون نسبتهم إلى حمير، وقبائل صنهاجة كثيرة، ولكن أشهرها (لمتونة وجدالة ومسوفة) وهم موزعون في الصحراء لا يستقر بهم مقام، وهم على دين الإسلام، وليس بينهم وبين العرب المغاربة نسب إلا الرحم وأنهم خرجوا من اليمن وارتحلوا إلى الصحراء وسكنوا في المغرب مدة ثم رحلوا إلى بلاد السودان[1]، والطوارق أقسام عديدة وينتشرون في مساحات واسعة من الصحراء الكبرى من توات وفزان شمالاً إلى تنبكت وزندر جنوباً، وقد أدى اختلاط الطوارق بالسكان الأصليين إلى تغير ملامحهم فاكتسبوا الصفات الزنجية[2].

ويسكن الطوارق اليوم في الصحراء الكبرى ما بين حدود جمهورية مالي الشمالية مع موريتانيا مروراً بشمال مالي وشمال النيجر ونيجيريا وبوركينا فاسو وشمال تشاد وجنوب غرب ليبيا وجنوب شرق الجزائر[3]، ولقد أدى الطوارق دوراً كبيراً في نشر الإسلام فيما وراء الصحراء، حيث عرفت قبائل الطوارق لدى ممالك وقبائل السودان الغربي بالقوة والشجاعة وعزة النفس.

كما أدى الطوارق دوراً مهماً في تجارة القوافل عبر الصحراء، فقد كانت أغلب القوافل التجارية المتجهة من غدامس إلى تنبكت، وباقي مناطق السودان الغربي يقودها الطوارق[4].

---

(1) أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط، رقم 106، مركز الوثائق، نيامي، النيجر، ورقة 20 ـ 21. عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، باريس، 1980م، ص 25.

(2) فضل كلود الدكو، الثقافة الإسلامية في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم، طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1998ف، ص 80.

(3) الهادي الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ص 217 ـ 218.

(4) جمس رتشارد سن، ترحال في الصحراء، من 1845 ـ 1846م، ت، الهادي أبو لقمة بنغازي، منشورات جامعة قار يونس، 1993م، ص 140.

ولقد شهد الطوارق صراعات مع بعض حكام السودان الغربي حيث حاولوا الانفصال عن مملكة مالي الإسلامية[1]. وعندما جاء جيش السعديين إلى السودان الغربي قاومه الطوارق، وعندما خرج السعديون قام الطوارق بالاستيلاء على تنبكت وكونوا دولة الطوارق[2].

3.قبائل السوننك:

هم أحد فروع الماندي ❖. الذين يتميزون بقوة جسمانية وعادات وتقاليد اجتماعية فريدة[3]. وقد أدى اختلاطهم وامتزاجهم بالقبائل العربية والفولانية إلى تغيير في ألوانها، مما أكسبهم صفات جسمانية جديدة، حتى إن قبائل الولوف تطلق عليهم اسم (السراكولي) ومعناه بلغة الولوف (الرجال الحمر أو الناس الحمر) وتضم مجموعة السوننك فروعاً مختلفة اشتهرت بأسماء متنوعة تبعاً للأماكن التي أقامت بها أو تبعاً لأسماء العشائر التي برزت من بينها أو بحسب تسمية جيرانهم لهم[4]، ونتيجة للامتزاج المبكر بين السوننك والهجرات الوافدة من الشمال الأفريقي اعتنق السوننك الإسلام ولعبوا دوراً كبيراً في الدعوة له وصارت العقيدة الإسلامية ذات أثر عميق في حياتهم الاجتماعية، وإن بعض العشائر السوننكية وهبت نفسها للدعوة إلى الإسلام، حتى أن كلمة سوننك استخدمها الماندنكا الوثنيون مرادفة لكلمة داعي[5]، مما يدل على الدور الكبير الذي لعبوه في نشر الإسلام.

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 27.

(2) أحمد بابير، مخطوط الجواهر الحسان، ورقة 21.

❖ الماندي، هم الشعوب الناطقة بلغة الماندي، وهم من سلالات الزنوج الشماليين، ومنهم الماندي، والبمبارة، الديولا، والسوننك.

(3) إبراهيم طرخان، إمبراطورية غانا الإسلامية، ص 18.

(4) المرجع السابق، ص 19.

(5) المرجع السابق، ص 48.

4.قبائل الفلان:

يختلف المؤرخـون فـي أصـل الشـعب الفلانـي، فيرى بعضـهـم أنـهم انحـدروا أساساً من الحاميين الشماليين الذين قدموا إلى أفريقيا عن طريـق هجرات متكـررة مـن الشمال الأفريقي ولا سيما من القبائل الليبية القديمة[1] .

ويرى البعض الآخر أنـهم مـن الجنس السامي وصلـوا إلـى أفريقيـا عـن طريـق هجرات مـن بلاد اليمـن والجزيـرة العربينة عـن طريـق بـاب المندب حتـى وصلـوا إلـى السودان الغربي[2] .

بينما يؤكد (فيج جي دي) فـي كتابـه تـاريخ غـرب أفريقيـا عجـز المؤرخـين عـن الوصـول إلـى حـل لمشكلة أصـل الشـعب الفلانـي، لعـدم وجـود سـجلات ووثـائق تأريخيـة تخصـهم قبـل حلـول القـرن الرابـع عشـر الميـلادي بينمـا كيانـهم الثقـافي والاجتماعي واللغوي كان قد تأسس قبـل هـذا التـاريخ[3] ، ولكـن الفلانيـين أنفسـهم يرون أنهم من الجنس العربي ومن نسل القائد العربي الشـهير عقبة بـن نـافع[4] ، وفـي هذا يقول شاعرهم:

(وعقبــةُ جــدٌّ للفلانيِّــين مــن عَــرَبْ ... ومـن تـور كـانت أمـهم بـج منـع عـو)[5]

وعقبـة أبـو كـل الفلانيِّـين مـن عَـرَبْ ... ومـن تـور كـانت أمــهم هــي تجمــعُ)[6]

---

(1) سجلمان، السلالات البشرية في أفريقيا، مرجع سابق، ص 136 ـ 139.

(2) بول مارتي، كنته الشرقيون، ت، محمد محمود ولد دادي، دمشق، مطبعة زيـد بـن ثـابت، ص 14.

(3) فيج جي دي، تاريخ غرب أفريقيا، ص 81.

(4) نسب هذا الـرأي إلـى آل فـودي ومنـهم الشـيخ عثمـان بـن فـودي وابنـه محمـد بلـو نقـلاً عـن أجدادهم وعلمائهم الثقات.

(5) عثمان بن فودي، تزيين الورقات، نقـل عـن آدم عبـد اللـه الألـوري، الإسـلام فـي نيجيريـا، ط3، 1978م، ص 18.

(6) محمد بلو، أنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، ص 223.

وعلى أي حال فإن الفلانيين قدموا إلى السودان الغربي واختلطوا مع بقية السكان من الزنوج والعرب مما أكسبهم صفات وملامح جديدة خاصة بهم، وقد انتشر الفلانيون في كافة أنحاء السودان الغربي حيث سكنت مجموعة منهم في بلاد فوتاتور، واستقرت مجموعة ثانية في الفوتاجالون، ونزحت مجموعة ثالثة ناحية الشرق وقطنت شمال نيجيريا[1]، ويعد الفلانيين من الرعاة الرحل الذين يقومون بتربية الماشية ولهم قطعان كبيرة من الأبقار والأغنام وهم ينتقلون من مكان إلى آخر طلباً للماء والكلأ ولكنه مع مرور الزمن استقرت مجموعات أخرى اتجهت إلى التجارة والصناعة[2].

وقد انتشر الإسلام بين الفلانيين منذ زمن مبكر جداً وكان لهم الفضل الكبير في نشره بين مختلف قبائل السودان الغربي وهم اليوم يتكلمون اللغة الفلانية التي تكتب بالحرف العربي وبها العديد من الكلمات العربية[3]، والفلانيون موزعون اليوم في معظم دول السودان الغربي بل في أنحاء أفريقيا الغربية كافة[4].

5ـ قبائل البمبارة:

أطلق الأوربيون اسم البمبارة على شعب من شعوب الماندي المنتشرين في المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي وحتى منحنى نهر النيجر، وهذه التسمية مرادفة للكلمة العربية (كافر) ومعناه الذي رفض حكم الرب وقد كانوا يطلقون على أنفسهم

(1) عبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، ص 102.

(2) عطية مخزون الفيتوري، دراسات في تاريخ شرق أفريقيا وجنوب الصحراء، منشورات جامعة قاريونس، 1998م، ص 28.

(3) السر سيد أحمد العراقي، انتشار اللغة العربية في بلاد غرب أفريقيا، مجلة دراسات أفريقيا، العدد 1، 1985م، ص 109.

(4) الهادي الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ص 336.

اسم (بمنه) أو (بمنكه) وهذه الكلمة نسبة إلى (بمه) ومعناه التمساح الذي أخذته هذه الشعوب طوطماً لها(1).

ونتيجة للاختلاط بغيرهم من الشعوب والقبائل خصوصاً قبائل الفلان تغيرت ملامحهم الجسمانية وهم دائماً أقوياء البنية(2).

وتسكن قبائل البمبارة في قرى صغيرة وعادة ما تؤلف القرية وحدة واحدة يحكمها شخص له السلطة الدينية والسياسية وما زالت هذه القبائل محتفظة بنظام السلطة الأبوية حتى أنَّ الأب هو السيد وجميع الأبناء بمثابة عبيد له(3).

وتعيش هذه القبائل حالياً في أغلب دول السودان الغربي، غير أن الأكثرية قاطنة في جمهورية مالي الحديثة على عشائر وأسر كبيرة.

6ـ قبائل التكرور:

من القبائل المهمة التي عاشت بالمنطقة قبائل التكرور التي عاشت في وادي السنغال في المناطق الواقعة بين السنغال وغامبيا(4).

وهم منحدرون أساساً من اختلاط القبائل الماندينغ وقبائل الفلان مع السكان الأصليين لمنطقة الفوتا السنغالية(5).

وقد أطلق بعض المؤرخين العرب مصطلح التكرور على جميع الزنوج في السودان الغربي، باعتبار أن كلمة تكروري مرادفة في نظرهم لكلمة السودان ولكن

---

(1) لاحظ الباحث هذه التسميات والألقاب أثناء زيارته إلى مالي وبركينا فاسو والنيجر، ومقابلاته مع بعض شيوخ القبائل في جمهورية مالي في صيف 1999ف.

(2) دائرة المعارف الإسلامية، مادة البمبارة، المجلد 4، ص 180.

(3) محمود سلامة زناتي، الإسلام والتقاليد الإسلامية في أفريقيا، بيروت، دار النهضة للطباعة والنشر، 1969م، ص 102.

(4) بوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ت الهادي أبو لقمة، محمد عزيز، منشورات جامعة قاريونس، 1988م، ص 105.

(5) دائرة المعارف الإسلامية، ج5، مادة التكرور، ص 422.

هذا التعميم لا يتفق مع الواقع كما أن أهل السودان لا يقبلون به[1]، وفي هذا الصدد يقول ابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار: «صاحب مملكة مالي هو المعروف عند أهل مصر بملك التكرور ولو سمع هذا أنف منه لأن التكرور إنما هو إقليم من مملكته والأحب إليه أن يقال صاحب مالي»[2].

واعتنق التكرور الإسلام قبل عهد المرابطين في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، وقد أورد البكري قصة إسلامهم بقوله: «مدينة التكرور أهلها سودان وكانوا على ما ساير السودان عليه من المجوسية... وعبادة الدكاكير... وحتى وليهم أورجاني* بن رابيس فأسلم وأقام عندهم شعائر الإسلام وجمعهم عليها... وأهل تكرور اليوم مسلمون»[3]. وبهذا فإن التكارة كانوا أول من اعتنق الإسلام من أهل السودان الغربي وعملوا بنشاط على نشره بين القبائل المجاورة لهم، وأصبحت التسمية (تكرور) مرادفة للسودان الغربي عند المؤرخين العرب بعد القرن الرابع عشر[4]. ويعيش معظم قبائل التكرور اليوم في جمهورية السنغال ويزاولون أكثر المهن الحرفية، ولو أنهم يعتمدون على الزراعة كثيراً.

---

(1) صلاح الدين المنجد، مملكة مالي عند الجغرافيين، بيروت، دار الكتاب الجديد، 1963م، ص 44.

(2) العمري، المصدر السابق، ص 43.

* يعتقد أن إسلام أورجاني كان بتأثير الفقهاء الأباضيين القادمين من جبل نفوسة بليبيا الحالية، الذين كانوا ضمن الجالية التجارية المقيمة هناك، انظر صباح ابراهيم الشيخلي، النشاطات التجارية عبر طريق الصحراوي حتى نهاية القرن الخامس الهجري، تجارة القوافل ودورها الحضاري في نهاية القرن، بغداد، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، 1984م، ص 43.

(3) البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، ص 172.

(4) أمين الطيبي، الحضارة العربية وأثرها الإيجابي في السودان الغربي، ص 264.

7.قبائل الولوف:

تنحدر قبائل الولوف من الأهالي الأصليين لسكان الفوتا السنغالية[1] وترجح أغلب الروايات التأريخية أن هؤلاء الأهالي من بقايا إنسان البوشمن القديم الذي كان يقطن هذه الأماكن في العصر الحجري الأول[2]، وتقطن قبائل الولوف المنطقة الساحلية المتدة من (سانت لويس) إلى غامبيا مروراً بدكار، ويعيشون جماعات في أكواخ متراصة ويمتهنون الزراعة والري، ويعتبر الدخن غذاءهم الرئيسي[3]. ولقد دخلت قبائل الولوف الإسلام مبكراً على يد القبائل العربية والفلانية وجيرانهم التكرور، وكان لهم دورٌ بارزٌ في نشر الإسلام ضمن أراضيهم، وتتكلم هذه القبائل لغة الولوف، وتكتب بالحرف العربي وهم يشكلون أغلبية سكان جمهورية السنغال الحديثة وتوجد مجموعات منهم في جمهورية غامبيا[4].

8.قبائل الموشي:

يسكن الموشي المنطقة الممتدة بين نهر النيجر في الشرق إلى نهر فولتا في الغرب، وهو خليط من تزاوج المهاجرين المحاربين من قبائل الداغومبا القادمة من الجنوب مع سكان المنطقة من فلاحي نيوسية وكييس وغوردسن[5].

وتعد قبائل الموشي من المجتمعات الزراعية، حيث يزرعون الذرة الرفيعة والدخن ولا يقومون بتربية الحيوانات إلا قليلاً مع اعتمادهم على الخيول والحمير كما

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية، ج5، مادة الولوف، ص 428.

(2) رولاندا وليغر، وجون فيج، موجز تاريخ أفريقيا، ترجمة دولت أحمد صادق، مراجعة محمد السيد غلاب، مطابع كوستا لوسي وشركاه، 1965م، ص 15.

(3) عبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في أفريقيا، ص 102.

(4) عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988م، ص 45.

(5) عمر سعيد، محاضرات في التاريخ القومي المالي، لطلبة المدارس العربية، باماكو، 1989م، ص 25.

أنهم يزاولون مهنة الصيد وقطع الأخشاب، وتتألف قبائل الموشى من المزارعين الذين ينقسمون إلى طبقتين:-

1 - طبقة ناكوشية: وهي الطبقة الأرستقراطية، ومنها الأسرة المالكة والأمراء والنبلاء والقادة.

2 - طبقة الشعب: وهي بدورها مقسومة إلى الأحرار والسوقة الرقيق الذين هم عادة في خدمة الطبقة الأولى[1].

وتتميز قبائل الموشى بأنها وثنية تقدس الأسلاف وعبادة الشمس والقمر[2].

ويذكر عبد الرحمن السعدي بأن قبائل الموشى أقامت مملكة وثنية قوية في منحنى نهر النيجر وجاورت الممالك الإسلامية في المنطقة (مالي - سنغاي) واستمرت على وثنيتها حتى جاهدها اسكيا محمد ملك سنغاي في بداية القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي[3]، ولم ينتشر فيها الإسلام إلا مؤخراً في نهاية القرن السادس عشر الميلادي عن طريق التجار، وبنسب قليلة وهم يشكلون الغالبية العظمى لسكان جمهورية (بوركينا فاسو) اليوم.

9.قبائل السنغاي:

السنغاي كانت تسكن النيجر حول حدود الغابات الاستوائية ثم أخذت تنتقل إلى الشمال مع نهر النيجر في القرن الأول الهجري - السابع الميلادي - وكانت قد امتدت مساكنها على طول حوض النيجر، وامتهنت صيد الأسماك وزراعة الدخن[4] وقد عرف الزراع منهم بسادة الأرض وصيادي الأسماك بسادة المياه[5].

(1) عبدالله حشيمة، في أفريقيا السوداء، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، د-ت، ص 26.

(2) فيج جي دي، تاريخ غرب أفريقيا، ص 64.

(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 74.

(4) عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي، ص 25.

(5) الشيخ الأمين عوض الله، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطتين مالي وسنغاي، ص 56.

ويعتقد أن أول دولة للسنغاي قد تأسست حوالي القرن الأول الهجري السابع الميلادي، وكانت عاصمتها مدينة (كوكيا) على نهر النيجر الأدنى، وهي لا تبعد عن جاو الحالية سوى مائة وخمسين كيلومتراً[1].

وقد انتشر الإسلام في بلاد السنغاي، فيما يبدو نتيجة الامتزاج السكاني مع هجرات القبائل الصنهاجية الوافدة من الشمال الأفريقي، ومما يدل على ذلك أن ملكهم (زاكسي) كان قد أسلم حوالي 400 هـ ـ 1009م[2]. أي قبل حركة المرابطين الجهادية الشهيرة، كما هاجر إلى المنطقة بطون عديدة من قبائل صنهاجة بفروعها المختلفة، وتعيش قبائل السنغاي في جمهوريات، مالي، النيجر ونيجيريا، وهي تتحدث لغة السنغاي والتي تكتب بالحرف العربي، خصوصاً بعد أن وضعت لها أبجدية عربية في عام 1988م[3].

رابعاً: ممالك السودان الغربي:

شهدت بلاد السودان الغربي العديد من الممالك، ومن أهم هذه الممالك:

1ـ مملكة غانا الوثنية:

لقد تعاقبت على منطقة السودان الغربي إمبراطوريات وممالك أدت دوراً مهماً في ازدهارها، كانت غانا الوثنية أولى حلقات التاريخ القومي لغرب أفريقيا فهي أول إمبراطورية قامت بالسودان الغربي، ولعلها أول تجربة وأقدم ما عرف من تجارب الحكم الوطني الناجح بتلك البلاد، وقد دل على ازدهارها بقاؤها إلى القرن السابع الهجري ـ الثالث عشر الميلادي ـ وعلى قدرة الأفارقة في تدبير شؤونهم، بأنفسهم

---

(1) عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي، ص 251.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 3.

(3) تم وضع الأبجدية العربية لهذه اللغة في الندوة العلمية التي نظمتها اليونيسكو بالتعاون مع الإيسيسكو، خلال الفترة من 18 ـ 22 سبتمبر (الفاتح) 1988م، بمقر المركز الثقافي الإسلامي في باماكو.

وهذا ما حدا ببعض الكتّاب الغربيين المنصفين إلى أن يقروا بأن حضارة هذه البلاد في العصور الوسطى لم تكن دون حضارة البيض، بل فاقت حضارة بعض البلاد الأوروبية[1]، وتاريخ دولة غانا المبكر يكتنفه الغموض، فهناك من يرى أن تكوين هذه المملكة يعود إلى فترة سبقت ظهور الإسلام، لكن قوتها وازدهارها ظهرت في العصر الإسلامي[2]، ورأي آخر يرى أنها وجدت منذ القرن الخامس الميلادي وتبوأت مكانةً ذات شأن منذ حوالي القرن التاسع حتى النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي[3]، بينما هناك من يرجح قيامها في القرن الرابع الميلادي[4]. ومن المرجح أن تاريخ تكوينها قد حدث قبل الإسلام بفترة طويلة[5].

وقد بلغت ذروة مجدها وعظمتها في الفترة ما بين القرن الثالث إلى منتصف القرن الخامس الهجري - التاسع - الحادي عشر الميلادي وعندما اتسعت رقعتها امتدت من نهر النيجر إلى ساحل المحيط الأطلسي غرباً وشمالاً عند حافة الصحراء الكبرى[6].

ولقد أفاضت بعض المصادر والمراجع التاريخية في وصف توسعها وثرائها، حيث سيطرت على مناجم الملح في الشمال ومناجم الذهب في الجنوب، ولذا سمي ملوكها بملوك الذهب[7].

وقد أورد الإدريسي عن أرض غانا بأنها تتصل من جهة الغرب ببلاد مفزارة، ومن الشرق ببلاد ونقارة، ومن الشمال بالصحراء المتصلة التي بين أرض السودان

---

(1) الهادي الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ص 21.

(2) أحمد سويلم العمري، الأفريقيون العرب، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1967، ص27.

(3) أحمد سعيد الفيتوري، الجاليات العربية المبكرة في بلاد السودان، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، العدد الثاني، 1981م، ص 296.

(4) نعيم قداح، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، القاهرة، 1960م، ص 28.

(5) عطية مخزوم الفيتوري، دراسات في تاريخ شرق أفريقيا وجنوب الصحراء، ص 233.

(6) الهادي الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ص 21.

(7) أبو القاسم النصيبي ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1979م، ص98.

وأرض العرب المغاربة ومن الجنوب بأرض الكفر من اليميم*[1] كما أورد القلقشندي «أن بلاد غانا تقع غرب بلاد صوصو وتجاور البحر المحيط الغربي وقاعدته مدينة غانا»[2] وذكرها البكري بقوله: «وغانا سمة لملوكهم واسم البلد أوكار»[3]. أما ياقوت الحموي فقال: «وغانا كلمة أعجمية لا أعرف لها مشاركاً من العربية وهي مدينة كبيرة في جنوب بلاد المغرب متصلة ببلاد السودان»[4]. وخلال فترة ازدهارها ظهرت المؤثرات العربية الإسلامية واضحة فيها حتى نجد البكري يصف عاصمتها (كومبي صالح)** بقوله: «... ومدينة غانا مدينتان سهليتان إحداهما التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها اثني عشر مسجداً... ومدينة الملك على بعد ستة أميال من هذه وتسمى الغابة»[5].

ولقد صارت هذه المؤثرات في تصاعد إذ نجد الإدريسي الذي سجل لها وصفاً بعد أكثر من مائة عام من وصف البكري لها، يقول: «... وغانا مدينتان على ضفتي البحر الحلو، أكبر بلاد السودان قطراً وأكثرها خلقاً وأوسعها متجراً... وأهلها مسلمون»[6].

ووصفها السعدي بقوله: «أن غانا إمارة عظيمة على أرض بأغن قيل أن سلطتهم كانت قبل البعثة فتملك حينئذ (22 ملك) اثنان وعشرون ملكاً وبعد البعثة

---

(1) أبو عبد الله الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت، ص 14.

* اليميم: يقصد بهم أكلة لحوم البشر.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 284.

(3) البكري، المصدر السابق، ص 71.

(4) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، بيروت، دار صادر، 1979م، ص 770.

** كومبي، معناها مدينة، وصالح اسم ومعنى الكلمة مجتمعة، مدينة صالح.

(5) البكري، المصدر السابق، ص 171.

(6) الإدريسي، المصدر السابق، ص 23.

اثنان وعشرون ملكاً وعدد ملوكهم أربعة وأربعون ملكاً وهم بيضٌ في الأصل ولكن ما نعلم من ينتمي إليه في الأصل»[1] .

ومن المرجح أن الإسلام قد دخل إلى غانة قبل حركة المرابطين، إذ يقول القلشندي عن إسلام أهل غانة: «وكان أهلها قد أسلموا أول الفتح»[2] .

وأن نمو الحي الإسلامي لعاصمة غانة، وغيره من المظاهر العربية الإسلامية من شعائر دينية ومساجد وغيرها لا يعقل أن تكون قد ظهرت فجأة وخلال وقت قصير، ومن هذا نرى أن ظهور الإسلام وانتشاره تدريجياً في غانة كان قبل حركة المرابطين التي دفعت عجلة هذا الانتشار دفعة قوية.

ولقد كان للمسلمين مكانٌ بارزٌ في بلاط الإمبراطورية فمنهم أغلب الوزراء والكتاب وأصحاب بيت المال وتراجمة الملك[3] . ولقد ظلت دولة غانة قوية حتى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي حيث بدأ الضعف والتفكك يسري في كيانها نتيجة الظروف الطبيعية التي حلت بمناطق شمال حوض السنغال، مما حمل الناس على الهجرة والتفرق، كما أن الاضطرابات بدأت تظهر في الإمبراطورية واختل الأمن والنظام في داخلها[4] .

إن جهاد المرابطين في جنوب الصحراء أدى إلى استيلائهم على كومبي صالح عاصمة مملكة غانة الوثنية عام 1076م، وقد أسلم أهلها المعروفون بالسوننكي وانتشر تجار ديولا في المناطق المجاورة من حوض نهر النيجر وبفضل جهودهم المتكررة انتشر الإسلام بين الوثنيين من سكان تلك المناطق، ولقد ساعدت ظروف مملكة غانة التي كانت سيئة للغاية أثناء الزحف المرابطي على سقوطها بسرعة خاصة وأن الأمن كان

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 9.
(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 284.
(3) البكري، المصدر السابق، ص 175.
(4) عطية مخزوم، دراسات في تاريخ شرق أفريقيا وجنوب الصحراء، ص 247.

مضطرباً والولاء نحو السوننك كان ضعيفاً من قبل الممالك الخاضعة لهم، كذلك وقوف المسلمين وهم قلة إلى جانب إخوانهم المسلمين القادمين من الشمال كما ساعدت قبيلة الفولاني التي كانت في منافسة تجارية مع السوننكي بانضمامها إلى قبيلة (لمتونة) ضد السوننكي على سقوط غانة[1].

ولم تستمر سيادة المرابطين المباشرة على غانا طويلاً وذلك بسبب انشغال المرابطين بشؤون المغرب والأندلس، إلا أن العلاقات بين بعض حكام السودان وبين المرابطين في مراكش كانت مستمرة، ويورد لنا الطيبي بعض مؤشرات هذه العلاقات نقلاً عن بعض المصادر منها أن مشاركة أربعة آلاف من السودانيين في موقعة الزلاقة بالأندلس عام (1086م) توحي بأن تحالفاً كان قد قام بين المرابطين وبين إخوانهم الأفارقة المسلمين، كما أن الوحدة التي أقامها المرابطون في المغرب الإسلامي من الأندلس إلى بلاد السودان الغربي تتضح من اكتشاف عدد من شواهد قبور إسلامية يرجع تاريخها إلى العقد الأول من القرن الثاني عشر[2].

إنّ حركة المرابطين الجهادية في السودان الغربي والتي لم تستمر طويلاً بسبب انشغال المرابطين في الشمال فإنه لم يتم القضاء على دولة غانا الوثنية التي ظهرت من جديد، ولكن غانا الجديدة لم تكن كالأولى بل اختلفت عنها من ناحيتي الدين والنفوذ.

فمن الناحية الدينية أدى استيلاء المرابطين عليها إلى انتشار الإسلام فيها بدلاً من الوثنية وخاصة بين الطبقة الحاكمة وأصبح الإسلام هو الدين الرسمي للدولة[3].

أما من ناحية النفوذ فإن الدخول ثم الخروج السريع للمرابطين قد سبب في انحلال الدولة واستقلال الإمارات التي كان يتكون منها جسم الإمبراطورية، وكثرت

---

(1) أمين توفيق الطيبي، دور المرابطين في نشر الإسلام في السودان الغربي، مجلة الثقافة العربية، العدد الثاني، 1987م، ص 24.

(2) المرجع السابق، ص 25.

(3) ابراهيم طرخان، إمبراطورية غانا الإسلامية، ص 53.

الفتن والثورات الداخلية الأمر الذي ساعد قبائل الصوصو على توجيه الضربة القاضية لغانة الجديدة حيث نجح قائدهم (سوما نجورو) من الاستيلاء على كومبي صالح وإسقاط الإمبراطورية عام 1203م[1].

2ـ المرابطون:

أشرنا من خلال تحدثنا عن مملكة غانا إلى أنَّ أول حلقات سقوط إمبراطورية غانا كانت على يد المرابطين، هذه الدولة الفتية التي سيطرت على الصحراء وحكمت من الأندلس شمالاً وحتى أرض الذهب في بلاد السودان جنوباً[2].

وخلال فترة تاريخية ساد فيها الضعف والانقسام داخل العالم الإسلامي[3].

وقد تشكلت عدة عوامل دينية وسياسية واقتصادية في تأسيس هذه الدولة وظهورها، وتحدثنا كتب التاريخ عن بداية هذا التأسيس وذلك عندما استلم يحيي بن إبراهيم الجدالي رياسة حلف الملثمين* بزعامة لمتونة[4].

وفي عام 427 هـ ـ 1055م استخلف يحيى بن إبراهيم الجدالي على صنهاجة ابنه إبراهيم وسافر يحيى إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج، وعند عودته من الحج مر بمدينة القيروان فلقى الشيخ أبا عمران الفاسي وحضر معه درساً من دروسه الدينية فتأثر به وبعلمه، وتناقش معه في عدة أمور وأخبره عن وطنه ورغبته في

---

(1) الهادي الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ص 47.

(2) أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، 1972م، ص 136.

(3) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، الرباط، دار الرشاد، ج2، 1984م، ص 153.

❖ الملثمين: هم أفراد قبائل صنهاجة التي كانت تسكن الصحراء جنوب المغرب في المنطقة المعروفة اليوم بدولة موريتانيا، وصنهاجة هذه كانت تتكون من عدة قبائل أشهرها قبيلة لمتونة وجدالة ومسوفة، وهذه القبائل هي التي كانت تكون دولة المرابطين.

(4) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب الملقب بلسان الدين، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام، تحقيق حسن حسني وعبد الوهاب خالد، ج3، د.ت، ص 226.

تعليمه وتعليم رعيته أمور الدين الإسلامي على حقيقته ولذلك طلب يحيى من الشيخ الفاسي أن يبعث معه معلماً إلى بلاده يعلمهم تعاليم الإسلام الصحيحة، فبعث إلى تلميذه (وجاج بن زلو المطي)[1]، وعندما وصل يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى بلاد السوس وقابل وجاج، وأخبره عما جرى بينه وبين الشيخ الفاسي، فما كان من وجاج إلا أن استجاب لطلب شيخه، وخصص له تلميذه عبد الله بن يأسين الجزولي لما كان يتمتع به من حسن خلق وورع وحجة في الإقناع بالمذهب المالكي[2].

وواصل يحيى بن إبراهيم ومعه الفقيه المالكي عبد الله بن يأسين رحلته إلى قبيلة جدالة ثم باشر بعد وصوله مهمته التي جاء من أجلها تاركاً أهلها وأبناء جلدته من أجل نشر دين الله، واجتمع حوله بعض شيوخ الفقراء يعلمهم أمور دينهم ويرشدهم إلى قواعد الإسلام ويحذرهم من العادات القبيحة التي لا تمت للإسلام بصلة مثل الزنا الذي كان منتشراً بينهم، وقد وجد معارضة كبيرة من طرف قبيلة جدالة الأمر الذي جعله يقرر الرحيل عنهم إلى بلاد السودان حيث سمع أن بها مسلمين غير أن يحيى رفض مغادرته لهم، واقترح عليه أن يذهبا معاً إلى جزيرة بالقرب من مضارب خيام جدالة، وبعد انضمام أعداد كثيرة بدأ ابن يأسين ويحيى الجدالي يعدهم للعمل العظيم ويشرح لهم تعاليم الإسلام ويرسخ في نفوسهم العقيدة الإسلامية[3]. وعندما أحس منهم القوة والرغبة الصادقة في الجهاد أمرهم بغزو جدالة فغزوها ودانت لهم واستقام أمرها ثم وجه اتباعه إلى قبيلة لمتونة وبذلك ارتفعت كلمة لا إله إلا الله عالية خفاقة واستطاع أن ينتزع من صدورهم البدع والشرك ويجسد فيهم قواعد الإسلام السمحة.

---

(1) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب، ص 123.

(2) المصدر السابق، ص 123.

(3) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 125.

❖ أوداغست لا وجود لها اليوم مكانها حسب بعض الإشارات التاريخية، تقام فيه اليوم مدينة تجداست (Tegdast) شرقي منطقة تكانت (Tagnt) بجمهورية موريتانيا الحالية.

وبعد ذلك واصل عبد الله بن ياسين ورفاقه سيرهم إلى مدينة (سجلماسة) وكانت في تلك الفترة تحت حكم (مغراوة) وأعلن الجهاد عليها وتمّ له النصر ثم زحف على مدينة (أودغست*) المدينة الثانية في إمبراطورية غانة عام 446 هـ/ 1054م وانتصر عليها وفي عام 448 هـ/ 1056م أصبح رباط (أودغست) مركزاً من مراكز الجهاز ونقطة الانطلاق نحو القبائل التي تحاول شق عصا الطاعة على المسلمين غير أن المنية باغتت يحيى بن إبراهيم بعد جهاد طويل مع عبد الله بن ياسين الذي أشار بتعيين أبي بكر بن إبراهيم، وواصل هذا الأخير من بعده حركة الجهاد إلى أن توفي عبد الله بن ياسين عام 451 هـ/ 1059م(1).

وواصل أبو بكر بن إبراهيم مسيرته في إعلاء كلمة الله، فتحرك صوب الجنوب وجمع الفلانيّين وقبيلة لمتونة ودخل بهم في معركة ضد غانا الوثنية، حيث استطاع تقريب نهايتها والسيطرة على حاضرتها (كومبي صالح) وصارت غانا تحت سيطرة المرابطين عام 469 هـ/ 1076م(2).

ولم تستمر هذه الانتصارات طويلاً في السودان الغربي، فوفاة أبي بكر عام 480 هـ/ 1087م واختلاف أتباعه من بعده، وإنشغال المرابطين بأمور المغرب الأقصى، فرض عليهم التخلي عن الجهاد المقدس فيما وراء الصحراء.

غير أن أهم شيء تركه المرابطون بعد رحيلهم هو تأكيد العقيدة الإسلامية في تلك البلاد، كما نشطت الحركة الاقتصادية والثقافية بين بلاد السودان الغربي وبقية العالم الإسلامي وخاصة الشمال الأفريقي(3). وبذلك دخل السودان الغربي في مرحلة تاريخية جديدة وهي قيام الدول الإسلامية السودانية إبتداءً من مملكة مالي الإسلامية.

---

(1) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 22 ـ 125. أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6؛ القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط5، 1990م، ص 107 ـ 109. الهادي الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ص 44.

(2) أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 109.

(3) إبراهيم طرخان، مملكة مالي الإسلامية، القاهرة، المكتبة العربية، 1975م، ص 50.

3.مملكة مالي الإسلامية:

تعد دولة مالي الإسلامية من أهم الممالك الإسلامية التي قامت في السودان الغربي، وقد شكلت دولة مالي الإسلامية مع مملكتي غانا والسنغاي السمات والخصائص المحددة والواضحة لمنطقة السودان الغربي لفترة طويلة من الزمن، ومن خلال تعاقب هذه الممالك الثلاث تطورت الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في هذا الإقليم تطوراً ملحوظاً خاصة بعد انتشار الإسلام فيها، ومن خلال دراستنا للمصادر التي اهتمت بتاريخ هذه المنطقة في هذه الفترة المبكرة يتضح لنا أن التوسع المالي قد بدأ في مرحلته الأولى على حساب مملكة غانة، ومعلوماتنا عن تاريخ هذه المرحلة قليلة وقد انحصرت فيما دونه لنا الرحّالة والمؤرخون العرب المعاصرون لها أمثال البكري والإدريسي والعمري الذين يعود لهم الفضل في هذه المعلومات، ويعد البكري أوّل المؤرخين العرب الذين ذكروا مالي في القرن الحادي عشر الميلادي حيث أشار إليها بأنها بلد اسمه (ملل) ويطلق على ملكها لقب (المسلماني)[1]. ولقد أطلق الكثير من المؤرخين العرب على مالي اسم بلاد التكرور، غير أن العمري قد ميز جلياً بين التكرور وبين مالي، وأشار أن التكرور هو أحد الأقاليم التابعة للمملكة مالي «ويغلب على سلطان مالي، عند أهل مصر سلطان التكرور ولو سمع هذا أنف منه لأن التكرور إقليم من أقاليم مملكته والأحب إليه أن يقال صاحب مالي»[2].

وقد اختلف المؤرخون والجغرافيون العرب في ضبطها، فالبكري يسميها (ملل)[3]، وابن بطوطة يسميها (مالي)[4] والعمري يطلق عليها (مالي)[5] ومحمود

---

(1) البكري، المصدر السابق، ص 178.

(2) العمري، المصدر السابق، ص 34.

(3) البكري، المصدر السابق، ص 172.

(4) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 682.

(5) العمري، المصدر السابق، ص 34.

كعت (مل)[1] وحسن الوزان (مالي)[2] والسعدي (ملي)[3] وصاحب الجواهر الحسان (ملي)[4].

ومن خلال هذا نرى أن الاسم الصحيح هو مالي وذلك كما ورد لدى ابن بطوطة وذلك لأنه زارها في فترة ازدهارها ووصفها وصفاً يدل على إلمامه الكبير بأحوالها المختلفة إضافة إلى صحة ضبطه لمدنها وقراها وأسماء ملوكها وعلمائها، ويحدد لنا القلقشندي موقع مملكة مالي ويذكر «أنها تقع في جنوب المغرب متصلة بالبحر المحيط الذي يحدها من الغرب كما تحدها من الشرق بلاد برنو ومن الشمال بلاد البربر ومن الجنوب الهمج»[5].

أما حسن الوزان فقد حدد لنا مساحة مالي فقال: «إنها تمتد على طول أحد فروع النيجر مسافة نحو ثلاثمائة ميل ويحدها جنوباً جبال وعرة وغرباً غابات مسحورة التي تمتد إلى المحيط وشرقاً إلى إقليم كانوا»[6].

أما صاحب الجواهر الحسان فيقول: «أما مالي فإقليم كبير واسع جداً في المغرب الأقصى إلى جهة البحر المحيط»[7].

وعلى كل حال فإننا نستطيع أن نستخلص مما سبق ذكره بأن رقعة مالي كانت تمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى بلاد كانم والبرنو والحوسة شرقاً ومن غابات السافانا جنوباً إلى الصحراء شمالاً. وكانت مملكة مالي تشمل خمس أقاليم هي:

---

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، نشره هوداس 1964م ص 38.

(2) الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ت محمد حجي، محمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 2، 1983م، ج2، ص 164.

(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 9.

(4) أحمد بابير، مخطوط الجواهر الحسان، ورقة 7.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 288.

(6) الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 164.

(7) أحمد بابير، مخطوط الجواهر الحسان، ورقة 7.

1 ـ إقليم مـالي : وهـو واقـع بـين إقليـم صوصـو مـن غربـها وإقليـم كوكـو مـن شـرقها وعاصمتها مدينة نياني .

2 ـ إقليم صوصو: ويوجد في غرب إقليم مالي .

3 ـ بلاد غانا : وهي في غرب صوصو وعاصمتها مدينة غانا .

4 ـ بلاد كوكو: وهي شرق إقليم مالي وعاصمتها مدينة تكرور .

5 ـ بلاد تكرور: وهي في شرق إقليم كوكو وإلى الغرب من مملكة البرنو[1] لقد شـكل كـل إقليم من الأقاليم الخمسة مملكة شبه مستقلة تتجمع حول سلطان مالي[2] .

ويعتقد أن مؤسسي دولة مالي هم قبائل الماندنجو ، فبعد تفكك إمبراطورية غانـا الوثنية عام 479 هـ/ 1076م بفضل جهاد المرابطين وانسحابهم من المنطقـة الأمـر الـذي أوجد فراغاً سياسياً جعل عدداً من الأقاليم التابعة لغانا تنفصل عنها وتكـون دويـلات مستقلة ، وتمخض عن هذا الصراع من أجـل السلطة أن آل الأمـر إلـى قبـائل المـاندنجو المسلمة والقاطنة في مقاطعة (كإنجاب) والتي يرجع إليها الفضل في تكوين مملكة مالي الإسلامية بقيادة (سندياتا كيتـا)[3] والـذي اشـتهر عنـد الكتـاب العـرب باسـم (مـاري جاطه) ومعنى كلمة (ماري) الأمير وكلمة (جاطه) تعني الأسد[4] .

وكان ماري جاطه من الذين تحولـوا إلـى الإسـلام ، وقـد اسـتطاع مـاري جاطـه الانتصار على قبائل الصوصو وذلك في موقعة (كرينا) عام 1235م[5] .

---

(1) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج5 ، ص 292، عطية مخزوم ، دراسـات فـي تـاريخ شـرق أفريقيا وجنوب الصحراء ، ص 263.

(2) نعيم قداح ، أفريقيا في ظل الإسلام ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، د ـ ت ، ص 33 .

(3) عبد الرحمن بن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ، مؤسسة جمال الدين للطباعـة والنشـر ، 1979 ، ج6 ، ص 200 ، القلقشـندي ، صبـح الأعشـى ، ج5 ، ص 293 ، الـهادي الدالـي ، التـاريخ السياسـي والاقتصـادي لأفريقيـا فيمـا وراء الصحـراء ، ص 48 ، ابراهيـم طرخان ، دولة مالي الإسلامية ، ص 41 .

(4) ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، ص 202 ، القلشندي ، صبح الأعشى ، ج5 ، ص 293 .

(5) ابراهيم طرخان ، دولة مالي الإسلامية ، ص 41 .

ثم استولى على كومبي صالح عام 1240م ولم يكتف بذلك بل توغل في بلاد الصوصو التي أخذت تسقط الواحدة تلو الأخرى أمام ضربات (سندياته كيتا) [1].

وبذلك استطاعت قبائل الماندي أن تقضي على إمبراطورية الصوصو، وأقاموا على أنقاض إمبراطورية غانا إمبراطورية جديدة أطلقوا عليها اسم مملكة مالي [2].

وقد استطاع سندياته خلال مدة حكمه أن يوسع أملاك الدولة حيث تمكن من ضم إقليم (ونقارا) من أرض الذهب مما جعل مملكته تمثل أكثر قوة حربية واقتصادية تتحكم في تجارة المنطقة [3].

ولما كان المؤسس الأول للدولة مسلماً فلهذا يمكن القول بأن مملكة مالي ولدت مسلمة على أنقاض إمبراطورية غانا الوثنية [4]، واتخذت الإسلام نظاماً للدين والمعاملة لتجد بفضله قوة روحية تثبت وجودها وتعطيها المكانة العليا بين جيرانها، وقد عمل حكام مالي على التفاني في خدمة الإسلام ونشره، ومن أشهر ملوك مالي على الإطلاق هو (منسا* موسى) 712، 738هـ 1312، 1337م الذي تمثل فترة حكمه العصر الذهبي لمملكة مالي، وقد بلغت مالي في عهده أقصى اتساعها وأوج ازدهارها، حيث سيطرت على مناجم الملح في (تكده) شمالاً، ومناجم الذهب في (ونقارة) في الجنوب [5].

وقد بلغت المؤثرات العربية الإسلامية ذروتها في جميع المجالات بالمنطقة في عهد (منسا موسى) وخاصة بعد رحلته الشهيرة إلى الأراضي المقدسة والتي قام

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 293، ابراهيم طرخان، مملكة مالي الإسلامية، ص42.

(2) ابن خلدون، العبر، ج6، ص 200.

(3) محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، دار الرشيد للنشر، 1982م، ص47.

(4) أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 244.

* منسا: معناها الحاكم أو السلطان، وهو لقب ملوك دولة مالي الإسلامية.

(5) محمد الأمين، علاقات دولتي مالي وسنغاي بمصر، مجلة الدراسات الأفريقية، العدد 4 الخرطوم 1975م، ص 275، أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 246.

بأدائها عام 1323، 1324م وقد نالت هذه الرحلة المشهورة مكاناً بارزاً في المصادر التاريخية المعاصرة لها وذلك لما تميزت به من ضخامة الموكب الذي رافق السلطان والأبهة والترف اللذين أحاطا هذه الرحلة حيث أصطحب السلطان (منسا موسى) في تلك الرحلة العديد من أتباعه الأفارقة وكميات كبيرة من الذهب الذي صرفه بسخاء أثناء إقامته في مصر والحجاز الأمر الذي نجم عنه انخفاض سعر الذهب في أسواق مصر[1].

ويقول المؤرخ الإنجليزي (ترمنجهام) إن رحلة الحج التي قام بها (منسا موسى) كانت شديدة الأهمية في تاريخ مالي، ويسببها ارتقت مالي رقياً عظيماً، وطبقت شهرتها الآفاق من الأندلس إلى خراسان وأصبح (منسا موسى) من أشهر أسماء ملوك عصره واتخذت مالي مكانها الواسع في خرائط هذا العصر[2].

وقد لاحظ (منسا موسى) ومرافقوه خلال تنقلهم عبر الشمال الأفريقي وإقامتهم في مصر والحجاز مدى التطور الحضاري الذي كانت تعيش فيه البلاد العربية الإسلامية، ولهذا شرع بالاستفادة من هذه الإنجازات الحضارية في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية، ولهذا نجده عند عودته وقد رافقه العديد من العلماء والفقهاء والتجار والصناع، وكان من أبرز هؤلاء الشاعر والمهندس (أبو إسحاق الساحلي) الذي قام ببناء بعض المساجد والقصور لسلطان مالي حيث أدخل لأول مرة البناء بالطوب الملون[3].

وقد نشطت في عهده العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الشمال الأفريقي ومملكة مالي الإسلامية، وقد زارها ابن بطوطة في عهد منسا موسى سليمان وبعد

---

(1) أحمد بابير، مخطوط، الجواهر الحسان، ورقة 5-6، القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 295، السعدي، تاريخ السودان، ص 7، ابن خلدون، العبر، ج6، ص 200.

(2) أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 251.

(3) أحمد بابير، مخطوط، الجواهر الحسان، ورقة 5، السعدي، تاريخ السودان، ص 7-8، عطية مخزوم، دراسات في تاريخ شرق أفريقيا وجنوب الصحراء، ص 278.

وفاة السلطان (منسا موسى) بدأت مملكة مالي في الضعف والانكماش نتيجة ضعف خلفائه وانقسامهم على أنفسهم وكثرة الفتن الداخلية بينهم، مما أدى إلى استقلال الكثير من الأقاليم[1]، وتوالت عليها الغارات من كل جانب ففي الجنوب قامت قبائل الموشي بالإغارة عليها ومن الشمال سيطر الطوارق على الأقاليم الشمالية وكانت النهاية على يد قبائل السنغاي التي استولت على أملاك مالي وحلت محلها في تكوين إمبراطورية جديدة هي مملكة سنغاي[2].

4-مملكة سنغاي:

تعد مملكة سنغاي آخر ممالك السودان الغربي التي ازدهرت في المناطق الواقعة ما بين حوض نهر السنغال ونهر النيجر. وقد كانت دولة سنغاي تشابه مملكتي غانة ومالي من حيث استجابتها للإسلام وللمؤثرات الثقافية العربية الإسلامية الوافدة من الشمال الأفريقي.

لقد بدأت دولة سنغاي في البروز منذ القرون الميلادية الأولى حيث عاصرت إمبراطورية غانة الوثنية ومالي الإسلامية وقد خضعت قبائل السنغاي لسلطان مالي بعد استيلاء منسا موسى سلطان مالي على عاصمتها (جاو) سنة 1323م أثناء عودته من الحج[3] «ودخل أهل سنغاي في طاعته بعد رجوعه من الحجّ وقد بنى فيها مسجداً»[4].

ويذكر السعدي أن ملكهم (زاكسي) قد أسلم في سنة أربعمائة للهجرة، والذي يطلق عليه في لغتهم (مسلم دم)[5] أي أسلم طوعاً بلا إكراه.

---

(1) أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 247.

(2) المرجع السابق، ص 248.

(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 7.

(4) أحمد بابير، الجواهر الحسان، مخطوط، ورقة 6.

(5) السعدي، تاريخ السودان، ص 3، أحمد بابير، مخطوط الجواهر الحسان، ورقة 2.

ويعدُّ سني علي 1464 ـ 1492م المؤسس الحقيقي لدولة سنغاي، وفي عهده بدأت المملكة تدخل طور التوسع على حساب القبائل المجاورة، يقول السعدي: «ومكث في السلطنة سبعاً وعشرين أو ثمانياً وعشرين سنة فاشتغل بالغزوات وفتح البلاد»[1].

ولقد عمل سني علي بجد لتوطيد دعائم دولته، حيث خاض الحروب من أجل توسيع مملكته حيث شن الحروب على الطوارق، فأستولى على تنبكت في عام 1468م، وامتد سلطانه فشمل الأراضي التي تحيط بمنحني النيجر، وبسط نفوذه على سهول غربي أفريقيا فشملها جميعاً، ثم استولى على مدينة (جني) 1470م وهي التي لم تخضع قط لدولة مالي[2].

وفي أقل من ثلاثين عاماً استطاع سني علي تحويل سنغاي من دولة صغيرة إلى إمبراطورية كبيرة كان هو أول إمبراطور لها، ورغم ذلك فإنه لم يتخذ عاصمة ثابتة لدولته، فهو أقام دولته بحد السيف وأراد أن يحتفظ بها ضد من يعاديه بهذا السيف أيضاً دون النظر إلى رأي الجماعة أو إشراك العلماء في شؤون هذه الدولة[3] وفي سنة 1492م توفي سني علي أثناء عودته من إحدى غزواته حيث داهمه سيل جارف في الطريق فأهلكه[4] وتولى العرش بعده أحد كبار قادته وهو محمد بن أبي بكر الطوري الملقب (باسكيا)، ويذكر السعدي أنه لما بلغ خبر انتصار محمد الطوري وتوليه العرش إلى بنات سني علي قلن (اسكيا) ومعناها في كلامهم (لا يكون إيَّاه) ولما سمع

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 64، محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 45، الهادي الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ص 99، محمود عبد الفتاح إبراهيم، أفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا، القاهرة، مكتبة ألا نجلو، 1961م، ص 112.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 65، محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 49، أحمد بابير، مخطوط، الجواهر الحسان، ورقة 11.

(3) محمد محمد أمين، علاقات دولتي مالي وسنغاي بمصر، ص 277، الهادي الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ص 99.

(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 71.

الطوري ذلك فأمر ألا يلقب إلا به فقالوا أسكيا محمد[1] وبذلك بدا عهد جديد لأسرة جديدة قدر لها أن تقود هـذه الدولـة وأن تعيـد للبلاد وجهـها الإسلامي، وأن يلقب سلاطينها بلقب (أسكيا)، يقول عثمان بن فودي «هـو الـذي أخـذ الدولـة مـن سنغي وخرب مآثر الجاهلية... وبسط العدل فـي هـذه البـلاد ودانـت لـه بـالطوع والكراهيـة، ويسمونه ملك التكرور العادل»[2]. حكم الأسكيون سنغاي حوالـي قـرن مـن الزمـان (1493 ـ 1591م) حتى الغزو المغربي لسنغاي. ازدهـرت سـنغاي فـي عـهد الأسـكيون ازدهاراً كبيراً ويرجع الفضل في ذلك إلى الأسكيا محمد الكبـير الـذي حكـم سـنغاي نحو 35 عاماً، حيث بلغت في عهده أقصى قوتها واتساعها والتي لم تزد عليها بعده، وأصبحـت أكبر امبراطوريـة فـي غـرب أفريقيـا علـى الإطـلاق سـواء فـي المسـاحة أو السكان أو التنظيم[3]. لقد أمدت فتوحات أسكيا محمد دولة سنغاي بثروة هائلة، إذا امتدت دولة سنغاي من صحراء النيجر وبحيرة أتشاد شرقاً إلى حـوض السـنغال غربـاً ومن سيجو على النيجر جنوباً إلى الصحراء شمالاً، وكانت مدينة جـاو عاصمـة هـذه الإمبراطورية الواسعة[4] حيث يحدثنا عثمان بن فـودي بذلـك بقولـه: «ودولـة سـنغي وهي دولة أسكيا ملك العوالي كلها ما خـلا أرض برنـو وملـك أقطـار أمـراء الوسـايط وبعض السوافل، وامتنعت دولته من الجانب الغربي والشمال. . . وقاعدة مملكته غاو ويسميها التجار غوغو»[5]، وقد شهدت سنغاي في عهد الأسكيا محمد نهضة علميـة وثقافية كبيرة وذلك بسـبب العلاقـات الطيبـة التـي كـانت بـين سـنغاي والبـلاد العربيـة الإسلامية في مصـر والمغـرب العربـي وقـد قـام الأسـكيا محمـد برحلـة إلـى الأراضـي المقدسة للحج عام 1497م حيث حـرص علـى أن يـأخذ معـه عـدداً كبـيراً مـن العلمـاء

(1) المصدر السابق، ص 72.

(2) عثمان بن فودي، أخبار البلاد الحوسية، مخطوط، رقم 77، مركز الوثائق، نيامي، ورقة3.

(3) عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي، ص 40.

(4) عطية مخزوم، دراسات في تاريخ شرق أفريقيا وجنوب الصحراء، ص 307.

(5) عثمان بن فودي، مخطوط، أخبار البلاد الحوسية، ورقة 3ـ4.

والأعيان ليظهر بمظهر الملك الصالح، وقد أنفق الأسكيا محمد الأموال بسخاء حتى قيل: إنَّه أنفق خلال هذه الرحلة ثلاثمائة ألف قطعة من الذهب[1].

ولقد كان أسكيا محمد محباً للعلم والعلماء حيث كثر في عهده التأليف واقتناء الكتب وبناء دور العلم والمساجد والمدارس، وقد وفد على البلاد الكثير من العلماء والفقهاء والطلبة حتى أن تنبكت وجني كانت من أكبر الجامعات في ذلك الوقت[2]، ومع بداية القرن العاشر الهجري ـ السادس عشر الميلادي وقعت أحداث بين السعديين حكام مراكش وسلاطين سنغاي جعلت السعديين ينظرون إلى حكام سنغاي بعين الريبة، والعمل على الاستيلاء على مناجم الملح الواقعة في تغازة بشمال مملكة سنغاي والتي كانت تحت سيطرة سنغاي[3]، وانتهى الأمر بإرسال المنصور الذهبي سلطان السعديين في مراكش حملته المشهورة إلى سنغاي عام 1591م التي لم تصمد أمام الأسلحة النارية الجديدة[4]، وسقطت سنغاي تحت نفوذ السعديين منذ ذلك التاريخ.

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 73، محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 19، أحمد بابير، مخطوط الجواهر الحسان، ورقة 24.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 74، محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 20.

(3) بوفيل، المرجع السابق، ص 273.

(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 75، محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 22، بوفيل، المرجع السابق، ص 273.

الفصل الثاني

عوامل انتشار الإسلام في السودان الغربي

أولاً - عوامل ذاتية

ثانياً - عوامل خارجية

تعددت وسائل انتشار الإسلام في أفريقيا والتي وصلها منذُ وقت مبكر ويمكن القول إن أفريقيا هي أول مكان خارج الحجاز يصل إليها الإسلام، وذلك حينما لجأ إليها مجموعة من أصحاب رسول الله ﷺ قبل الهجرة إلى المدينة المنورة حيث كانت الحبشة هي المكان الذي استقر فيه المهاجرون المسلمون الأوائل ومنذُ ذلك التاريخ بدأ المد الإسلامي، في القارة الأفريقية شرقاً وغرباً عبر وسائل متعددة ويمكن أن نلاحظ بعض الأمور على هذا الانتشار السريع للإسلام في القارة الأفريقية، إن أول ما يلاحظ هو كثرة الوسائل التي انتشر بها الإسلام في أفريقيا وتعددها، وثاني ما يلاحظ أن انتشار الإسلام كان سلمياً في غالبه ولم يقترن بالحرب إلا في مناطق محددة هي الشمال الأفريقي، أما المنطقة الواقعة فيما وراء الصحراء فقد كان الانتشار عبر الوسائل السلمية ولم يلجأ المسلمون إلى القوة لنشر الإسلام في هذه المناطق ولعل هذا أكبر رد على أولئك الذين يقرنون المد الإسلامي في أي منطقة من مناطق العالم بالسيف، من المستشرقين وتلامذتهم، فقد تحولت المناطق الغربية لأفريقيا، وكذلك الشرقية إلى الإسلام، الذي امتد كذلك نحو الجنوب والوسط من هاتين المنطقتين دون أن يدخل إلى هذه المناطق جندي مسلم واحد، وبذلك يعد الطابع السلمي هو المميز لهذا الانتشار الإسلامي.

أما الملاحظة الثالثة فهي سرعة انتشار الإسلام في هذه المناطق وسهولة تقبل الأفارقة لهذا الدين الجديد بحيث لم يمضِ وقت طويل حتى تحولت قبائل ودول إلى الإسلام، وقامت ممالك وإمارات إسلامية تعاقبت في حكم القارة الأفريقية، وليس هذا فحسب بل إنَّنا نجد الأفارقة يتحولون إلى دعاة نشطين للدين الإسلامي ويتسلمون هذا الدور من العرب المسلمين مما أعطى لهذه العملية سمة محلية فكان

أدعى للقبول من أبناء جنسهم، حيث يسهل الاتصال والمخاطبة والاختلاط، ففي السودان الغربي اعتنقت قبيلة السوننك الزنجية الإسلام ونشط أفرادها في نشره بين القبائل الأخرى وتفانوا في ذلك حتى اشتهر هذا الأمر فيهم وأصبح لفظ سوننك مرادفاً للفظ (داعية)[1]. يطلق على كل من قام بالدعوة ولو لم يكن من السوننك أنفسهم ولا شك أن سرعة الانتشار هذه تعود إلى ملاءمة الدين الإسلامي للطبيعة البشرية وبساطته ويسره وسمو مبادئه وتشريعاته بحيث تتقبله النفوس البشرية لأنه دين فطرة لا تعقيد فيه ولا وسائط ويكفي لكي يكون الإنسان مسلماً أن ينطق بالشهادتين، وقد وجد فيه الأفارقة حلولاً للكثير من مشاكلهم فتقبلته أنفسهم في وقت سريع من غير إكراه أو إلزام.

إن المميزات التي طبع بها انتشار الإسلام في القارة الأفريقية كانت نتيجة عوامل أسهمت في انتشاره، بهذه السرعة المذهلة ومنها:

أولاً: عوامل ذاتية:

العوامل الذاتية هي تلك التي ترتبط بالإسلام ديناً وعقيدة ومنهجاً وسلوكاً وهي بطبيعتها تمثل الجانب الأساسي والمهم الذي تتمحور حوله بقية العوامل الأخرى فإذا كان دخول الإسلام إلى الشمال الأفريقي عن طريق الفتح فإن دخول الإسلام وانتشاره في السودان الغربي قد تم بوسائل أخرى غير الفتح، كان من أهمها بساطة العقيدة الإسلامية وسماحة هذا الدين وملاءمته للفطرة الإنسانية مما جذب إليه قلوب الناس وحببهم في الدخول إليه، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾[2].

والإسلام لم يكتف بإعطاء الناس حرية العقيدة فحسب بل كفل لهم حرية التعبير عن آرائهم، لذلك أمر الله رسوله بالتزام جادة العقل والمنطق في محاجة الخصوم

(1) ابراهيم طرخان، إمبراطورية غانا الإسلامية، مرجع سابق، ص 48.
(2) البقرة الآية (256).

وأن يكون أسلوبهم في الدعوة الإسلامية قرع الحجة بالحجة بلطف وحكمة قال تعالى معلماً المسلمين: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[1].

كما أقر الإسلام مبدأ العدالة بين الأفراد في الحقوق والواجبات بصرف النظر عن مراكزهم الاجتماعية أياً كان شكلها فالناس في الإسلام سواسية قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[2].

ويقول أيضاً: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾[3].

ويعتبر الإسلام الفرد مسؤولاً عن عمله ولا يبني أي مسؤولية على عوامل أخرى خارجة عن قدرته كاللون مثلاً، ولم يرجح الإسلام لوناً على لون.

وإن اختلاف الألسنة والألوان فيها مظهر قدرة الله تعالى وحكمته، ولا يرضى الإسلام بتحول مواهب الأفراد أو مواقعهم الاجتماعية إلى مراكز قوة يجتمعون فيها على أساس اللون أو أي مظهر آخر فيضطهدون بقية فئات المجتمع وينقلون هذا السلوك إلى الأجيال التالية فروقاً وأحقاداً[4].

قال رسول الله ﷺ: «... يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عن الله أتقاكم ليس لعربي فضل على أعجمي ولا لأحمر فضلٌ على أسود إلا بالتقوى»[5].

كما أن الإخاء الذي أشار إليه القرآن الكريم وأكده الرسول ﷺ في مواضيع عدة يفرض على المسلم التزامات متعددة فهو مبدأ يفرض احترام آدمية الإنسان وتكريمه

---

(1) العنكبوت، الآية (46).

(2) الحجرات، الآية (113).

(3) الحجرات، الآية (111).

(4) عبد العزيز كامل، الرسول والتفرقة العنصرية، مجلة المؤرخ العربي، العدد 16، بغداد، 1981م، ص 116.

(5) الإمام أحمد، المسند، المجلد 5، بيروت، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ص 411.

وأن تكون العلاقة بين البشر قائمة على الاحترام المتبادل الذي يقوم على التعاون ومراعاة المصالح المشتركة، ويوجب الاعتراف بحق جميع الناس في الحياة الحرة الكريمة[1].

كما أن الإسلام يحتوي على ميزات تجذب إليه الأتباع، منها أن الداخل فيه لا يحتاج إلى جهد أو عناء فإنه بعد نطقه بالشهادتين يصير عضواً في المجتمع الإسلامي الكبير الذي يمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى بلاد الصين شرقاً وينعم بجميع الامتيازات التي تنطبق على أتباع هذا الدين. ، يقول هوبير ديشان: «... وقد يسر انتشار الإسلام هو أنه دين فطرة بطبيعته، سهل التناول لا لبس ولا تعقيد في مبادئه سهل التكيف والتطبيق... في مختلف الظروف ووسائل الانتساب إليه أيسر وأيسر... ولا يطلب من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح في عداد المسلمين...»[2].

ومما يؤكد على أن الإسلام انتشر بين سكان السودان الغربي عن رغبة واقتناع لا عن رهبة ولا عن إكراه من ذويه، أنه ظل ينتشر بينهم حتى في ظل سيادة دول الاستعمار المناهضة للإسلام، يقول الأستاذ (وسترمان): «إن الزنجي الذي كان يعيش في الأدغال محتقراً يصبح بالإسلام ذا مقام» ثم يقول: «إن الأفريقيين الذين تلقوا في المدة الأخيرة تعليماً مسيحياً قد انقلبوا دعاة للإسلام ربما أن الأفريقيين لا يأملون أبداً أن ينالوا بالنصرانية مقاماً اجتماعياً مساوياً لمقام إخوانهم في العقيدة من النصارى الأوربيين فلقد نشأ فيهم استعداد لأن يروا في الإسلام الدين الوحيد للأفريقي الحديث»[3].

---

(1) محمد فتح الله الزيادي، انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه، دمشق، دار قتيبة، 1990م، ص 91.

(2) هوبير ديشان، الديانات في أفريقيا السوداء، ترجمة أحمد صادق، القاهرة، دار الكتاب المصري، 1965م، ص 128.

(3) مصطفى الخالد، عمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، نقلاً عن عبد السلام أبو سعد، أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام في أفريقيا، مجلة كلية التربية، العدد 16 ـ 18 ـ 1982م، ص 119.

كما أن الإسلام يدعو إلى الحرية والعدالة الاجتماعية والاعتزاز بالوطن وينفر من الاستعباد والتفرقة العنصرية، وهذه المبادئ محببة لكل الناس، وتتحرك لها عواطفهم، وتشتاق إليها أنفسهم ويبذلون في سبيل تحقيقها دماءهم، كما أن الإسلام يحمل عوامل الرقي والحضارة ويرفع الأفريقي إلى المستوى الذي ترنو إليه نفسه ويتطلع إليه طموحه، ويقول توماس أرنولد: «إن مجرد الدخول في الإسلام يدل ضمناً على الرقي في الحضارة وأنه خطوة جد متميزة في تقدم القبيلة الزنجية مادياً ومعنوياً، وقد يتّضحُ ما تقدمه حضارة أفريقيا الإسلامية إلى الزنجي الذي دخل الإسلام وضوحاً يبعث على الإعجاب. . أن أقبح الرذائل، وهي أكل لحوم البشر وتقديم الإنسان قرباناً ووأد الأطفال أحياء تلك الرذائل قد اختفت فجأة وإلى الأبد... والذين كانوا يعيشون عراة بدؤوا يرتدون الملابس، بل يتألقون في ملابسهم والذين كانوا لا يغتسلون، بدؤوا يغتسلون بل يكثرون من الإغتسال لأن الشريعة المقدسة تأمرهم بالطهارة»[1].

وخلاصة القول أنّ الإسلام اشتمل على العديد من السمات والخصائص الذاتية التي تتعلق به كدين وهي المرتكز الأول في حركة انتشاره والمحور الأساسي في إقناع الآخرين، وإقتناعهم به كدين سماوي قائم لكافة الأديان.

ثانياً: العوامل الخارجية:

1ـ التجار:

كانت لبلاد السودان الغربي صلة بالشمال الأفريقي ومصر منذ فترة ما قبل الإسلام حيث كان تجار تلك المناطق يترددون عليها ويجدون فيها متجراً حسناً وقد عمل التجار منذ توطد الإسلام في الشمال الأفريقي على نشر الإسلام والثقافة العربية في السودان الغربي، وقد تعاظم هذا الدور خلال الفترة التي شهدت قيام

---

(1) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1971، ص 317.

سلطة مركزية قوية توفر الأمن وذلك في أيام ازدهار مملكتي مالي وسنغاي الإسلاميتين اللتين بسطتا نفوذهما على معظم الطرق التجارية الوافدة من الشمال الأفريقي والمتجهة صوب المناطق الجنوبية، في ركاب التجار الذين تعاظم دورهم التبشيري من خلال ازدياد نفوذهم السياسي في الأوساط الحاكمة واتصالهم بمختلف طبقات الشعب، وقد أصبح الإسلام كما يقال بمثابة تصريح ضروري لمن يريد الاتجار بنجاح مع الممالك الإسلامية في غرب أفريقية(1).

وقد كانت بداية دخول الإسلام إلى مدينة غانا وما يليها من بلاد السودان على يد التجار المسلمين وخاصة من جبل نفوسة بليبيا حيث يذكر أن الشيخ علي بن يخلف النفوسي* التميجاري كان قد سافر إلى دواخل غانا تاجراً سنة 575م وأقام بها(2). وأصبحت له مكانة لدى سلطانها الذي أسلم على يديه، وهذا ما يؤكد على أن الإسلام انتشر في غانا قبل وصول المرابطين إليها حيث يذكر البكري في القرن الخامس الهجري أنه كان في مدينة الملك مسجد يصلي فيه المسلمون الوافدون على المدينة وأنه يوجد اثنا عشر مسجداً في الحي الإسلامي في مدينة غانا(3).

وكان التجار المسلمون عبر المراحل المتعددة يمثلون حلقة الوصل بين أفريقيا والدول الإسلامية المجاورة، وقد كانت حركة التجار نشطة وذات بدايات مبكرة،

---

(1) سوقي الجمل، دور العرب الحضاري في أفريقيا، القاهرة، دار الثقافة العربية، 1987م، ص 162.

* يرجع أصله إلى جبل نفوسة بليبيا الحالية، ذهب إلى السودان الغربي للتجارة ونشر الإسلام، وقد عرف بين السكان بطيبة خلقه وحسن معاملته وأمانته وعلمه، وعندما سمع بتقواه وصلاحه سلطان مالي، (وهي مقاطعة ضمن نطاق دولة غانا الوثنية في تلك الفترة) فأحضره إليه. وأختبره وأسلم على يديه هو ورعيته، ومن ثم استخلفه لنفسه وأصبح يشاوره في كل أموره حتى بلغ عند سلطان مالي منزلة لم يبلغها حتى وزراؤه، الهادي الدالي، مملكة مالي الإسلامية وعلاقاتها مع المغرب وليبيا، بيروت، دار صنين للطباعة والنشر، 1996م، ص 174.

(2) عبد الله الباروني، سلم العامة والمبتدئين في معرفة أئمة الدين، مصر، د.ت، ص 21.

(3) البكري، المصدر السابق، ص 175.

ويذكر (السلاوي) أن تجار المغرب كانوا يجتمعون في سجلماسة حاضرة بني مدرار، ثم يسيرون في قوافلهم إلى غانا وكانوا يقطعون المسافة في ثلاثة أشهر ذهاباً وشهر ونصف إياباً وكان يبيعون ما معهم من الأمتعة بالتبر[1].

ويقول ابن حوقل في هذا الصدد: عرف العرب التجارة مَعَ أفريقيا منذ أمد بعيد ولما ظهر الإسلام وأصبح التاجر مسلماً زاد النشاط التجاري بين شمال الصحراء وجنوبها كما زاد النشاط الذي كان يقوم به العرب فقد عني المسلمون بالطرق والأمن وحددوا المكاييل والموازين والمقاييس وأشاع التاجر المسلم حوله جواً من الثقة فوجد ترحاباً أينما حل وأصبح بيته منارة للفكر الإسلامي بما يحمله من مدنية وحضارة واختار مساعديه بالجنوب من خيرة الناس فهيأ ذلك للإسلام فرصة الانتشار مع التجارة[2].

وكان التاجر المسلم بسلوكه وخبرته بالناس ونظافته وخلقه الإسلامي، ما جعله محل ثقة الأفارقة ووفر له ذلك القبول الحسن لديهم، وما أن يدخل هذا التاجر قرية وثنية فسرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوئه وانتظام أوقات صلاته وعبادته التي يبدو فيها وهو خاشع يناجي ربه، ومنظره في سجوده وسكينته يضفي عليه من المهابة والجلال ما يحرك فطرة الأفريقي الوثني فضلاً عما يتحلى به من سمو عقلي وسلوك حضاري يفرض الاحترام والثقة به على الوثنيين ويجذبهم إلى الاقتداء به وتقليده[3]، وقد تدفقت جموع التجار المسلمين من المراكز الشمالية كطرابلس وفزان وغدامس والقيروان وتلمسان وسجلماسة وغيرها من المراكز عبر مجموعة من طرق القوافل التي تخترق الصحراء من الشمال إلى الجنوب مثل طريق تونس والقيروان إلى تنبكت

---

(1) أبو العباس أحمد الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى، الدار البيضاء، 1954، ص 99.

(2) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 99.

(3) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص 391، حسن عيسى عبد الظاهر، الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفولاني في مطلع القرن (الثاني الهجري)، الرياض 1981م، ص 97.

في السودان الغربي وقد قامت على هذا الطريق عدد من المراكز التجارية في الصحراء في عدد من الواحات أهمها ولأته وتوات وغيرها[(1)] .

نتيجة لهذا الارتباط التجاري فقد استقر عدد من التجار العرب المسلمين في المدن الأفريقية وكونوا لهم أحياء خاصة بهم أقاموا فيها المساجد والمدارس مما كان لهم عظيم الأثر في نشر الإسلام ففي مدينة غانا كان يقيم عدد من البيضان* المسلمين في حي خاص بهم أقاموا فيه اثني عشر مسجداً[(2)] .

وفي مالي عاصمة دولة مالي رأى ابن بطوطة عدداً من هؤلاء التجار وقد استقروا فيها وبنوا محلة تعرف بمحلة البيضان[(3)] .

ولعبت القوافل التجارية التي كانت تخرج صحبة قوافل الحج دوراً مهماً في هذا الصدد، والجدير ذكره أن دور التجار العرب لم يقتصر على التجارة والمناشط الاقتصادية فحسب، بل قاموا بنشر اللغة العربية وبناء المساجد لتعليم القرآن الكريم وهكذا أضحى التجار العرب المسلمون يقومون بمهمة الدعاة المسلمين إلى جانب نشاطهم التجاري فحملوا معهم العقيدة الإسلامية والحضارة العربية وكان من نتائج احتكاكهم واختلاطهم بأهالي تلك البلاد، أن حدث التزاوج والمصاهرة وانتشار الإسلام تدريجياً وسلمياً في تلك المناطق[(4)] .

---

(1) أحمد الياس حسن، الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى في مستهل القرن السادس عشر كما عرفها الجغرافيون العرب، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة القاهرة، 1977م، ص 91-98.

* كان يطلق على العرب المسلمين المقيمين في السودان اسم البيضان.

(2) البكري، المصدر السابق، ص 174.

(3) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 681.

(4) يوسف فضل حسن، الجذور التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1984م، ص 39.

ومن الأدلة على حدوث التصاهر ما بين التجار العرب المسلمين وحكام وأهالي السودان الغربي ما أورده الحسن الوزان من أن... «الملك زوج اثنتين من بناته من أخوين تاجرين لغناهما»[1] .

إضافة إلى دور التجار فإن طرق القوافل والمراكز التجارية كانت شرياناً أساسياً للحياة الاقتصادية في بلاد السودان الغربي، وقد ظلت في الوقت نفسه إشعاعاً للمؤثرات الثقافية، حيث أصبحت المحطات المنتشرة على طول طرق القوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى أماكن لتواصل الأفكار تأثراً وتأثيراً[2] .

وهكذا يمكن القول إن التجار العرب المسلمين كانوا يرتادون بلاد السودان الغربي بغرض التجارة وقد لعبوا دوراً رئيسياً في نشر الإسلام والثقافة العربية وإن كان ذلك يتم بصورة غير مباشرة في الكثير من الأحيان.

2.الدعاة:

لقد واكبت الدعوة الإسلامية حركة الفتوح بل نستطيع القول إن رجال الحملات العسكرية كان جلهم من الدعاة فهم إما من الصحابة رضوان الله عليهم أو من التابعين أو من الزهاد أو من العلماء، ولهذا فقد كان لهم دور في تعليم الناس ودعوتهم بما حملوه من علم وفقه من بلاد المشرق والحقيقة أن المصادر التاريخية قليلة بالمعلومات عن حركة الدعوة والدعاة في تلك الفترة وربما يعود هذا الأمر إلى كون الدعوة جزءاً من حياة المسلم، فكل المسلمين دعاة لهذا الدين فهو تكليف عام وواجب ديني لا يمكن إفراده بخبر أو حادثة معينة، ومن ناحية أخرى فإن الدعوة في الغالب تكون بقناعة شخصية واندفاع من الإنسان نفسه من دون تكليف من الدولة أو تنظيم من قبلها، ومن هنا يصعب تتبع تاريخ الدعاة ومعرفة أسمائهم والأماكن التي

(1) الوزان، المصدر السابق، ج5، ص 166 .

(2) جميلة أحمد التكتيك، مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير (1493 - 1528م)، منشورات مركز جهاد الليبيين، طرابلس 1998م، ص 152 .

ذهبوا إليها إلا أن النتائج تشير إلى قيام حركة للدعوة الإسلامية منذُ أن دخل الإسلام إلى أفريقيا وهكذا فإننا وإن لم نظفر بأخبار عن الدعوة والدعاة فإننا ظفرنا بنتائج تتحدث عنهما في كل مكان من أفريقيا.

وعلى كل حال فإنه ليس هناك اختلاف كبير بين التاجر والداعي والفرق الفاصل بينهما هو أن التاجر يهتم بالتجارة والدعوة معاً أما الداعي فكان اهتمامه الأول هو الدعوة إلى الدين الحنيف، وكانت غالبية التجار لا تجيد الفقه والفكر الإسلامي، وليس منهم من يستطيع التفرغ لذلك لذا نجد الكثيرين من هؤلاء يستخدمون الفقهاء والعلماء لتعليم وتثقيف الناس بأمور دينهم ودنياهم وقد كان للفقهاء والعلماء دور هام في تدفق المؤثرات العربية الإسلامية وازدهار الحضارة العربية الإسلامية بالسودان الغربي، حيث كان هؤلاء يدعون الناس إلى الإسلام ويحفظونهم القرآن الكريم ويفقهونهم في أمور دينهم، وحظي هؤلاء الفقهاء المعلمون بتقدير عال من الأهالي والحكام، وأصبحت قرى السودان الغربي تضم دوراً لاستقبال هؤلاء الفقهاء والدعاة الذين صاروا يعاملون بأعظم مظاهر التقدير والاحترام[1].

ونظراً للتشجيع الكبير الذي حظي به هؤلاء الدعاة من قبل المسلمين السودانيين، تعاون هؤلاء المعلمون مع المحسنين في تأسيس المدارس والخلاوي التي صارت قبله لأبناء المسلمين والوثنيين على حد سواء ودون تمييز الأمر الذي أدى إلى انتشار الإسلام والثقافة العربية على نطاق واسع[2]، وأصبحت هذه المدارس والخلاوي تتكاثر وتزدهر حتى أن بعضها برز كمركز إشعاع حضاري ليستقطب أبناء السودان الغربي عموماً والمناطق المجاورة بصفة خاصة، وكثيراً ما كانوا يختارون الطلاب المميّزين والأفذاذ لإرسالهم إلى المعاهد الإسلامية الشهيرة في الشرق العربي

---

(1) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص 392.

(2) عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي، ص 102.

والشمال الأفريقي، لكي يتتلمذوا على أيدي علماء الأزهر ومكة والقيروان والزيتونة وطرابلس وفاس وغيرها من المراكز الإسلامية ويعودوا قادة للفكر في هذه البقاع[1].

وقد أشاد المؤرخون باهتمام ملوك السودان الغربي بالعلماء والفقهاء فأشاروا إلى ذلك في كتبهم «... وكان ملوك مالي ورعاياهم متمسكين بالإسلام... استقدموا الفقهاء والعلماء من البلاد الإسلامية وتفقهوا في الدين...»[2]، وقد أسلم كثير من حكام السودان الغربي على أيدي الدعاة المسلمين ومنهم ملك التكرور الذي أعتنق الإسلام مبكراً وكان اسمه وارجابي بن رابيس (ت 432هـ)[3]، وامتد نشاط الدعاة إلى مملكة مالي فأسلم ملكها على يد أحد الدعاة المسلمين الذي قدم إليهم يقرىء القرآن ويعلم السنة، وكانت بلادهم قد أجدبت فقال لهم الداعية المسلم: «أيها الملك لو آمنت بالله تعالى وأقررت بالوحدانية وبمحمد عليه الصلاة والسلام وأقررت برسالته واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحل بك... فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته وأقرأه من كتاب الله ما تيسر له وعلمه من الفرائض والسنن ما لا يسع جهله ثم صلى به وسأل الله الفرج فأغناهم الله»[4].

وفي هذا الصدد يشير صاحب مخطوط كتاب سيرة أهل نفوسة إلى أنَّ أبا يحيى أبي القاسم الفرسطائي عندما سافر إلى بلاد السودان وجد ملكهم ناحل الجسم ضعيفاً فسأله لِمَ صار حالك هكذا فقال: «عندنا هاهنا شيء إذا نزل ببعضنا أزاله وذهب به» ويعني به الموت قال أبو يحيى: فأخبرته عن الله عز وجل وصفة الجنة... فما زلت أحاوره وأذكر له الله حتى أسلم وحسن إسلامه[5].

(1) عطية مخزوم، دراسات في تاريخ شرق أفريقيا وجنوب الصحراء، ص 105.
(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 297.
(3) البكري، المصدر السابق، ص 172.
(4) المصدر السابق، ص 178.
(5) مقرين محمد البغطوري النفوسي، سيرة أهل نفوس، مخطوط، ورقة 52.

ومن الدعاة الذين اشتهروا في السودان الغربي الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي * العالم الداعية أصله من تلمسان وعاش في السودان الغربي فأتخذه السلطان الأسكيا الحاج محمد سلطان سنغاي 898 هـ-935 هـ مستشاراً خاصاً له[1] .

وكانت له جهود كبيرة في الدعوة إلى الإسلام فقد سافر إلى الجنوب الغربي فأخذ يدعو في بلاد التكرور ثم انتقل إلى بلاد الهوسا فأسلم على يديه أعداد كبيرة من أهلها منهم ملك كاشينا إحدى الولايات الحوساوية واستقر في كانوا يدعو إلى الإسلام فكان له عظيم الأثر على الدعوة الإسلامية في السودان الغربي[2] .

وقد كان للفقهاء والعلماء المسلمين مكانة رفيعة بين أهالي السودان الغربي المسلمين والوثنيين معاً فكانوا يجلونهم ويعاملونهم بالترحاب في كل مكان بل كان الوثنيون يلتمسون خيراً على أيديهم ويوكلون إليهم تعليم أبنائهم[3] .

وقد أشار الرحالة ابن بطوطة إلى المنزلة السامية التي كان يتمتع بها الدعاة من الفقهاء والعلماء في بلاط مالي وقال: إنه كانت لهم مكانة رفيعة وحظوة وأنهم كانوا خاصته وأهل مشورته بل إن ملوك مالي كانوا لا يلبسون الطيلسان إلا في أيام العيدين أما العلماء والفقهاء فكانوا يلبسونه دون سائر الأهالي طيلة أيام السنة[4] .

وأشار كل من محمود كعت[5] وعبد الرحمن السعدي[6] إلى أن ملوك سنغاي وحتى المواطنين كانوا يجلون الفقهاء والعلماء ويأتمرون بأمرهم وأن

---

* ترجمته في الفصل الرابع .

(1) محمد عبد الكريم المغيلي ، أجوبة على أسئلة أسكيا محمد ، مخطوط ، مركز أحمد بابا التنبكتي ، رقم 6 ، ورقة 12 .

(2) بوفيل ، تجارة الذهب وسكان الغرب الكبير ، ص 241-242 .

(3) توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص 392-393 .

(4) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص 686 .

(5) كعت ، تاريخ الفتاش ، ص 11-12-59 .

(6) السعدي ، تاريخ السودان ، ص 18 .

مكانتهم لدى السلاطين فاقت كل وصف حتى أن بعض العلماء كانوا ينهون السلاطين عن المنكر ويعنفونهم إذا ارتكبوه، ومن أمثلة ما تمت الإشارة إليه ما قاله السعدي عن مكانة الفقيه أحمد بن أحمد بن عمر «... وآخر الحرمة عند الملوك وكافة الناس نفعنا بجاهه لا يرد له شفاعة يغلظ على الملوك... وينقادون له أعظم الانقياد ويزورونه في داره...»[1].

وهكذا تكونت مع مرور الوقت فرق عديدة من الدعاة المتفرغين للدعوة يعملون لتحقيق الغاية المنشودة وهي نشر الإسلام.

3ـ الهجرات العربية:

لقد أدت هجرة القبائل العربية إلى دواخل أفريقيا دوراً كبيراً وهاماً في نشر الإسلام، وخاصة في مناطق السودان الغربي حيث كانت قبائل صنهاجة الثلاثة مسوفة، لمتونة، جدالة في طليعة القبائل العربية التي هاجرت إلى السودان الغربي منذ وقت مبكر، وأسهمت في تمهيد الأرضية لتدفق المؤثرات العربية الإسلامية إلى ربوع المنطقة، لا سيما منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي ولم تقف الصحراء الكبرى عائقاً دون تواصل الروابط والصلات المتعددة بين شمال أفريقيا وجنوبها بل كانت طرقها ومنافذها والمراكز التجارية التي أقيمت على جانبيها من العوامل الهامة التي ساعدت على تدفق المؤثرات العربية إلى تلك المناطق وصارت رقعة الإسلام في امتداد متواصل لا سيما عقب سقوط مملكة غانا الوثنية عام 1076م ونتج عن هذا المد القادم من الشمال قيام ممالك أفريقية إسلامية بلغت تقدماً حضارياً ملحوظاً بفعل اعتناقها الإسلام[2].

---

(1) المصدر السابق، ص 42.

(2) جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، القاهرة 1974، ص 156.

وكانت هذه الهجرات المختلفة نتيجة لأسباب سياسية أو اقتصادية أو دينية وإذا كان تاريخ كثير من هذه الهجرات غير معروف فقد عرف تاريخ بعضها الآخر فقد ذكر البكري «... أن ببلاد غانا قوماً يسمون الهينهين من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية أنفذوه إلى غانا في صدر الإسلام ويسمى أيضاً قوم منهم يعرفون بالغامان»[1]، كما هاجر إلى ولاته بطون من قبيلة مسوفة الصنهاجية وباتوا يكونون غالبية سكانها في الوقت الذي هاجرت بطون أخرى من ذات القبيلة وأسست تنبكت حوالي القرن الخامس الهجري الحادي عشر للميلاد[2]، وهاجر بعض العرب المسلمين إلى قرية زاغري* وسكنوا بها[3]. كما هاجر آخرون إلى مملكة مالي وسكنوا بها[4].

وكان لهم حي خاص بهم يقول ابن بطوطة: «... ووصلت إلى مدينة مالي حاضرة ملك السودان فنزلت عند مقبرتها ووصلت إلى محلة البيضان...»[5].

وقد كان بتنبكت جالية من غدامس احتلت أهمية كبيرة حيث كان لأفراد الجالية حي خاص بهم وهو من أرقى الأحياء في المدينة[6]، وذلك نتيجة للثراء الكبير الذي كان يتمتع به تجار غدامس بالنسبة لسكان السودان الغربي ولم تقتصر علاقات

---

(1) البكري، المصدر السابق، ص 179.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 26.

* زاغري/ أحد قرى السودان الغربي وقد تحدث عنها ابن بطوطة بقوله: »وبعد مسيرة عشرة أيام من أيوالاتن وصلنا قرية زاغري وهي قرية كبيرة يسكنها تجار السودان، ويسكن معهم جماعة من البيضان« راجع: ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 680.

(3) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 680.

(4) المصدر السابق، ص 680.

(5) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 681.

(6) السعدي، تاريخ السودان، ص 142.

* تقع آثار مدينة تادمكة (السوق)، كما كانت تسمى على بعد 25 كم تقريباً من مدينة كيدال الحديثة التي تقع ضمن الحدود السياسية لجمهورية مالي الحالية، وتشكل إحدى الولايات لشمال مالي وهي تنبكت وجاو وكيدال.

ومعاملات الغدامسيين على تنبكت فقط بل تجاوزوها إلى غيرها فتعاملوا مع تادمكة «السوق»* وجاو وجني وغيرها من الأماكن الأخرى[1].

كما هاجر الكثير من العرب إلى كوكو (جاو) واستقروا فيها إذ أشار ابن بطوطة إلى أحدهم الذي استضافه قائلاً: «... ثم سرت إلى مدينة كوكو... وأضافني بها محمد بن عمر من أهل مكناسة»[2].

كما هاجر الكثيرون منهم إلى جني وسكنوا بها وكانوا يتحاكمون عند القضاة بالشرع[3]، ورغم أن ملاحظات ابن بطوطة تؤكد أن هؤلاء المهاجرين كانوا يسكنون أحياء خاصة بهم وفيها مساجد يصلون فيها[4]، وأنَّه ذكر من ناحية أخرى أنهم كثيراً ما يخالطون أهالي السودان الغربي ويتصاهرون معهم[5] وبالتالي ينشرون بينهم الإسلام واللغة العربية، ومن الهجرات العربية التي أدت دوراً مهماً في تاريخ هذه المنطقة من خلال دفعها للمؤثرات العربية الإسلامية هي قبائل بني هلال وسليم الشهيرة في التاريخ العربي الإسلامي والتي انطلقت صوب الشمال الأفريقي حوالي القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. واستقرت في المنطقة المصاقبة للسودان الغربي وهي جنوب المغرب الأقصى وحوالي القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي انطلقت صوب بلاد السودان الغربي ووصلت طلائعها حدود السنغال وتنبكت[6]، وبفعل ظروف الاضطهاد التي تعرض لها المسلمون بالأندلس من جراء

---

(1) الأرواني، الترجمان في تاريخ الصحراء والسودان وبلد تنبكت وشنقيط وأروان ونبذة من تاريخ الزمان في جميع البلدان، مخطوط، رقم 760، مركز أحمد بابا، تنبكت، مالي، ورقة 4.

(2) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 695.

(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 18.

(4) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 696.

(5) المصدر السابق، ص 681.

(6) بول مارتي (البرابيش) بنو حسان، تعريب محمد محمود ولد دادي، دمشق: مطبقة زيد بن ثابت، 1985م، ص 2.

ضغط الممالك المسيحية عليهم وخاصة بعد سقوط آخر معاقلهم (غرناطة) 1492م في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي اندفع كثير منهم صوب السودان الغربي واستقروا فيه[1].

كما شهدت المناطق سيلاً من هجرات البدو المنطلقين من الشمال الأفريقي والباحثين عن المرعى والماء لحيواناتهم التي هي أساس ثروتهم.

وهكذا كانت كل هذه الهجرات وغيرها مورداً لا ينضب معينه من الدماء التي تسري في شرايين حركة انتشار الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا في ما وراء الصحراء حيث ساهمت مساهمة فعالة مع غيرها من العوامل في إرساء دعائم هذه الحركة ونجاحها في فترة وجيزة من عمر الزمن.

4ـ الطرق الصوفية:

لقد أدت الطرق الصوفية دوراً مهماً في نشر الإسلام ونقل المؤثرات الثقافية العربية الإسلامية إلى السودان الغربي ورغم فقر المعلومات عن تاريخ الطرق الصوفية بالسودان الغربي، فإن بعض المؤرخين ومن بينهم السعدي قد أشار إلى وجود بعض الأشخاص المشهورين بالتقوى والورع ممن عاشوا بالمنطقة حتى وصف تنبكت بأنها كانت «... مألوف الأولياء والزاهدين..»[2].

كما قال عن مدينة جني «... وقد ساق الله تعالى إلى هذه المدينة المباركة سكاناً من العلماء الصالحين من غير أهلها من قبائل شتى وبلاد شتى»[3].

وقال أيضاً: «... وكفى في ذلك ما رواه الشيوخ الثقاة عن الشيخ العالم الصالح الولي ذي الكرامات، والعجائب الفقيه القاضي محمد الكابري رحمه الله

---

(1) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1964، ص 127.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 71.

(3) المصدر السابق، ص 16.

تعالى أنه قال أدركت من صالحي سكندي من لا يقدم عليهم في الصلاح إلا أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم أجمعين منهم الفقيه الحاج جد القاضي عبد الرحمن ابن أبي بكر بن الحاج تولى القضاء بتنبكت في أواخر دولة أهل ملي وهو أول من أمر الناس بقراءة نصف حزب من القرآن للتعاليم في جامع سنكري بعد صلاة العصر ويعد صلاة العشاء جاء هو وأخوه السيد الفقيه إبراهيم من ببر فسكن في نبل وقبره معروف هناك»[1] .

ومن هؤلاء الصوفية محمد ساقوا وقد كان فقيهاً عالماً عابداً صالحاً ولياً مكاشفاً ذا كرامات شاهدها الناس وذلك على حسب رواية السعدي[2] ، ومنهم الفقيه العابد القطب ولِّي الله السيد يحيى التادلسي[3] ، ومنهم الشيخ الزاهد العارف بالله الولي الإمام أبو لقاسم التواتي الذي سكن بجوار المسجد وكان يعلم الأطفال[4] .

ومما يميز رجال الطرق الصوفية أنهم يميلون إلى الإقامة في القرى والنجوع بينما يميل التجار إلى الاستقرار بالمدن وإذ كان التجار يسعون إلى الربح المادي فرجال الطرق الصوفية لا يكترثون بالمال ولا يسعون إلا لما يسد رمقهم ويكفيهم ذل السؤال من هنا وصف المريدون بالفقراء. وإذا كان نشاط المهاجر أو التاجر يتطلب أن يكون بالنهار فإن نشاط رجال الطرق الصوفية يكون بالليل[5] .

وقد ساعد على انتشار الطرق الصوفية تكيفها مع بيئة المجتمعات الأفريقية وعاداتها وتقاليدها ، وكانت الطقوس واستعمال الدفوف والطبول في حلقات الذكر قد وجد قبولاً لدى الأفارقة لأنها تخلط بين العبادة والحركات الراقصة[6] .

---

(1) المصدر السابق ، ص 27 .

(2) المصدر السابق ، ص 16 .

(3) المصدر السابق ، ص 23 .

(4) المصدر السابق ، ص 52 .

(5) أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي ، ج6 ، ص 210 .

(6) ابراهيم موسى جوب ، الفولانيون ودورهم في نشر الإسلام بغرب أفريقيا ، رسالة ماجستير ، جامعة الفاتح طرابلس 1983م ، ص 49 .

والجدير بالذكر أنه كان لكل شيخ أتباع ومريدون يطيعونه طاعة عمياء ويمتثلون لأوامره ويقدرونه حق تقدير ويدعمونه مادياً حتى أصبح شيوخ الصوفية لهم القدرة الكافية لتوسيع دائرة نفوذهم ولتأسيس المدارس والمساجد واستقطاب مزيد من العناصر الموالية لهم وقد لعب رجال الطرق الصوفية دوراً بارزاً في توجيه الأهالي وإرشادهم إلى أمور دينهم[1]، وعملت الطرق الصوفية على غرس القيم الفاضلة وتجذيرها مثل حب الجار وحسن التعامل، وإضافة إلى ذلك أسهموا مساهمة فعالة في توسيع رقعة الإسلام وانتشاره عن طريق الإكثار من بناء المساجد والمدارس ومصاهرة الوطنيين الأفارقة وشراء العبيد وعتقهم بعد تلقينهم أصول العقيدة الإسلامية وثقافتها حتى يتمكنوا من استيعابها ونشرها عند رجوعهم إلى أوطانهم، وتعد الطريقة القادرية التي تأسست في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي في العراق على يد الشيخ عبد القادر الجيلاني هي الطريقة التي وجدت رواجاً وانتشاراً ملحوظاً في السودان الغربي، فقد دخلت الطريقة القادرية إلى أفريقيا على يد دعاتها حيث بدأ انتشارها أولاً في الشمال الأفريقي خاصة في منطقة مراكش على يد العالم المشهور أبي مدين الغوث 1126/ 1198م الذي قابل مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني في مكة أثناء أداء كل منهم فريضة الحج[2].

وأخذ الطريقة عنه وذهب إلى المغرب وفي مدينة فاس ذاعت شهرته وعمت جميع منطقة مراكش ومن شمال أفريقيا انتقلت الطريقة إلى الصحراء الكبرى وفي مدينة تاكدة التي تقع في قلب الصحراء اتخذت منها الطريقة القادرية مركزاً لها حيث اعتنقها عدد كبير من قبائل صنهاجة[3].

---

(1) حسن ابراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، ص 42.

(2) مجهول، ترتيب مشايخ السلسلة القادرية مع أسماء الله الحسنى، مخطوط، رقم 897، مركز أحمد بابا، تنبكت، مالي، ورقة 4.

(3) مجهول، ترتيب مشايخ السلسلة القادرية، مخطوط، ورقة 8.

وبعدها انتقل المقر إلى مدينة (أغاديس) ومنها ذاع صيتها بالصحراء، وقد دخل فيها عدد كبير من السكان، ويرجع الفضل في انتشار الطريقة القادرية في السودان الغربي والصحراء الكبرى إلى قبيلة (كنته) العربية التي تعد من أهم القبائل في أفريقيا التي استقرت في واحة (توات)[1]، في جنوب المغرب الأوسط، وبرز منها علماء أجلاء من بينهم أحمد الكنتي الكبير الذي يشار إليه «بخاتمة السلف وعين أعيان الخلف»[2]، وبعد وفاته خلفه الشيخ أحمد البكاي بودمع وتصفه المصادر «... أنه مغرس شجرة كنته ومنبع نبوتها ومغرس طلعتها»[3].

وله ثلاثة أولاد تفرعت منهم الأسرة الكنتية هم محمد الكنتي الصغير وسيدي الحاج أبو بكر وسيدي عمر الشيخ[4]، وتدعي أن سيدي عمر الشيخ هو أول من نشر الطريقة بينهم وأخذ عنه الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي عقب التقائه به في بلاد التكرور[5]، ويرجع الفضل إلى الشيخ المختار الكنتي الكبير في بلورة الطريقة القادرية وصبغها بالطابع الأفريقي، وفي منتصف القرن السادس عشر الميلادي بدأت أفكار جديدة تؤثر على الطريقة القادرية في السودان الغربي حيث ظهر الشيخ الزروق الذي يعتبر من أهم رجال الطريقة في مدينة (أغاديس) ومنها انتقلت أفكاره إلى جماعات الفلانة في بلاد الحوسية[6].

---

(1) مختار الكنتي، منظومة في سلسلة أشياخ مختار الكنتي القادرية، مخطوط، رقم 1398، مركز أحمد بابا، تنبكت مالي، ورقة 4.

(2) المصدر السابق، ورقة 7.

(3) المصدر السابق، ورقة 8.

(4) عزيز بطران، الشيخ المختار الكنتي الكبير ودوره في نشر الإسلام والطريقة القادرية في الصحراء وغرب أفريقيا، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني يوليو 1981، ص 313.

(5) مختار الكنتي، مخطوط منظومة في سلسلة أشياخ مختار كنتي، ورقة 5.

(6) كمال محمد الضو الدقير، دور الطريقة القادرية في نشر الإسلام في السودان، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة قاريونس، 1996ف، ص 28.

وقد كانت الطريقة القادرية من أوسع الطرق وأعمقها في السودان الغربي وما زالت خاصة بعد وصول الإسلام إلى الشعوب الزنجية حيث أصبح دين الأغلبية واعتنقه الملوك الوثنيون على طول الطرق التجارية وصارت مدينة (كانو)* في غرب أفريقيا مركزاً لنشاط رجال الدين على نطاق واسع في أقصى الجنوب والغرب وقد كان أتباع هذه الطريقة يرسلون لإتمام دراستهم، بمدارس القيروان وطرابلس وغيرها[1].

وكان هؤلاء المريدون والأتباع الذين تربوا في سلك نظام الطرق الصوفية يؤسسون المدارس الصوفية ويشرفون عليها وكان معلمو الطريقة القادرية يدعون القبائل الوثنية إلى الإسلام ويعملون على نشر الثقافة العربية الإسلامية بين الأفارقة بمختلف السبل والوسائل، وكان نشاط هذه الجماعات في الدعوة ذا طابع سلمي يعتمد على الإرشاد وعلى مبدأ القدوة الحسنة، كما كان يعتمد على انتشار التعليم والثقافة العربية والحضارة الإسلامية[2].

بهذه الخطة برهن دعاة الطريقة القادرية في السودان الغربي على أنهم أوفياء لمبادئ مؤسس الطريقة وتقاليدها العامة، ذلك لأن التسامح وحب الجار من أهم مبادئ هذه الطريقة وهي ذات المبادئ التي دعا إليها الإسلام[3].

---

* يوجد بمدينة (كانو) في نيجيريا الحالية مركزاً للطريقة القادرية، ويسمى شيخ الطريقة (خليفة) وهو ابن الشيخ (ناصر كبر)، هذا ما شاهده الباحث أثناء زيارته لكانو صيف 1999ف.

(1) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص 366، حسن ابراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، ص 43.

(2) عبد القادر صالح نور الدين، علاقات فزان بكانم بين 3 ـ 7/ 9 ـ 13م رسالة ماجستير غير منشورة، طرابلس، جامعة الفاتح كلية التربية قسم التاريخ 1986م، ص 156.

(3) عبد القادر صالح نور الدين، علاقات فزان بكانم، ص 156.

وقد انتشرت الطريقة القادرية في السودان الغربي حوالي القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي على يد قبيلة كنته وشيخها محمد الكنتي كما سلف ذكره، وقد حملت الطريقة اسم ابنه أحمد البكاي من أكبر الطوائف القادرية[1].

ومن هنا نستنتج الدور المهم الذي لعبته الطرق الصوفية في نشر العقيدة الإسلامية ونقل مؤثرات الثقافة العربية الإسلامية إلى السودان الغربي.

(1) بول مارتي، كنته الشرقيون، ص 33.

الفصل الثالث

الأثر المتبادل للحياة الفكرية بين المراكز الحضارية في الشمال الأفريقي والسودان الغربي

أولاً – طرق القوافل

ثانياً – العلاقات الثقافية بين مصر والسودان الغربي

ثالثاً – المراكز الحضارية الصحراوية

رابعاً – مراكز انتشار الثقافة العربية الإسلامية بالسودان الغربي

لقد دخلت المؤثرات العربية الإسلامية إلى السودان الغربي بصورة رئيسية من الشمال الأفريقي، عبر الصحراء الكبرى، وسهل تقدمها وتوسع رقعتها في تلك البقاع، تصاعد النشاط التجاري والثقافي، وازدهار طرق القوافل التجارية بين شمال القارة وجنوبها، وأصبح دور العرب المسلمين واضحاً في فتح المراكز التجارية في الأماكن التي ارتادوها، فضلاً عن توثيق علاقاتهم الاقتصادية والثقافية مع الأهالي السودانيين، الذين وجدوا منهم ترحيباً واحتراماً كبيرين لما تحلوا به من صدق وأمانة في تعاملاتهم وتصرفاتهم ويمكن القول: إن الحركة الثقافية في السودان الغربي فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين ارتبطت ارتباطاً قوياً بنشاط العرب المغاربة التجاري والثقافي، وإليهم يرجع الفضل في نشر الإسلام والثقافة العربية لدى أهالي السوداني الغربي.

أولاً - طرق القوافل:

إن الناظر إلى الخرائط التاريخية لمنطقة السودان الغربي عبر التاريخ وإلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، يتبين له شبكة من طرق القوافل كانت تشق الصحراء الكبرى منطلقة من الحواضر العربية على ساحل الشمال الأفريقي مثل الإسكندرية وطرابلس وتونس وتلمسان وغيرها، أو من المراكز الداخلية والصحراوية مثل: القيروان، وفاس، وجبل نفوسه، وأوجلة وغدامس وغات وفزان ومرزق وزويلة وزلة وغيرها، باتجاه السودان الغربي الأوسط، وحتى حزام الغابات الاستوائية في الجنوب، وتتأكد أهمية هذه الطرق التجارية إذا ما عرفنا أن موانئ وسواحل الوطن العربي، وخاصة الواقعة في الشمال الأفريقي كانت تلعب دور الوساطة التجارية بين مناطق الإنتاج المداري والاستوائي في الجنوب وبين شعوب البحر المتوسط في

الشمال[1] وقد تم عن طريق هذه الموانئ توريد كل ما تحتاجه مناطق السودان الغربي من أوروبا وآسيا، والشرق العربي والشمال الأفريقي وتصدير المنتجات الأفريقية لا سيما الذهب والرقيق إلى تلك المناطق، ومن المعروف أن التجار العرب المسلمين قد احتكروا الاتصال ببلاد السودان، لأسباب دينية وتجارية واستراتيجية، وكانوا صلة الوصل بينهم وبين جنوب أوربا[2].

ولم تكن القوافل التجارية تحمل السلع التجارية فقط بل حملت معها الدين الإسلامي والثقافة العربية وكل ما احتكت به من روافد المعرفة والحضارة الإنسانية، ومع أن نطاقاً صحراوياً مقفراً يفصل بين منطقة الشمال الأفريقي وبين السودان الغربي إلا أن هذا الحاجز لم يقف حاجزاً يستحيل عبوره، إذ لعبت حركة التبادل التجاري والاتصال السكاني دوراً كبيراً في تواصل وتنمية العلاقات الثقافية والاقتصادية الأمر الذي أعطى الصحراء الكبرى أهمية قصوى في مسار تاريخ المناطق الواقعة شمالها وجنوبها[3] ولم تحجب الصحراء الكبرى رغم وعورة مسالكها ودروبها، هذا التواصل الحضاري بل ظلت بمثابة البحر المحيط الذي يربط بين ساحلين وكانت سفن الصحراء (الإبل) وسيلة الاتصال المهمة منذ القرون الميلادية الأولى وحتى القرن العشرين[4].

ورغم قسوة بعض العوامل الطبيعية، فإن طرق القوافل عبر الصحراء الكبرى أدت دوراً مهماً في نقل المؤثرات الحضارية إلى قلب القارة الأفريقية وإلى أقسامها الغربية، كما كانت أيضاً طرقاً سلكتها الهجرات المتتابعة والمتبادلة بين شمال الصحراء وجنوبها نتيجة لعوامل متنوعة، وباتساع نطاق الهجرة والاستيطان

---

(1) ابراهيم طرخان، إمبراطورية غانا الإسلامية، ص 24.

(2) بازل دافدسن، أفريقيا تحت أضواء جديدة، ص 124 .

(3) بوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ص 28.

(4) يوسف فضل حسن، انتشار الإسلام في أفريقيا، الخرطوم، مطبعة جامعة القاهرة ودار جامعة الخرطوم للنشر 1979م، ص 5.

قوى أثر العرب في حياة أهالي السودان الغربي، كما ترسخت المؤثرات العربية الإسلامية نتيجة اعتناق نسبة كبيرة منهم للدين الإسلامي، كما اتخذت مجموعات كبيرة منهم اللغة العربية وسيلة للتخاطب والتفاهم فضلاً عن أنها أصبحت لغة الثقافة والعلم، وقد شهدت منطقة السودان الغربي قيام بعض الممالك الوطنية، وثنية كانت أم إسلامية[1]، وقد حرصت هذه الممالك على تقوية صلاتها وروابطها بمناطق شمال الصحراء وقد أدت طرق القوافل التجارية دوراً بارزاً في دعم أواصر هذه العلاقات خاصة بين الشمال الأفريقي وبين بلاد السودان الغربي والأوسط، ومن أبرز هذه الطرق:

- طريق أوجلة إلى جاو يبدأ هذا الطريق من أوجلة وزلة وودان إلى بلاد كوار حتى يصل إلى كوكو (جاو)[2].

- طريق غدامس تادمكة وطريق تادمكة القيروان مروراً بورقلة ومن تادمكة إلى طرابلس مروراً بغدامس[3].

- طريق ورقلة تادمكة كاغو (جاو)[4].

- طريق ينطلق من جبل نفوسة إلى زويلة والسودان الغربي وهو قليل المياه[5].

- طريق يبدأ من الأراضي التونسية إلى الجنوب ماراً بغدامس وغات وأقدز ثم يتجه منه إلى الغرب ماراً (بتكدا) إلى جاو على نهر النيجر وينتهي في تنبكت[6].

---

(1) جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، ص 160.

(2) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص 108.

(3) البكري، المصدر السابق، ص 164.

(4) البكري، المصدر السابق، ص 164.

(5) ابراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء، دار الرشيد الحديثة، 1984م، ص 10/11.

(6) محمد عبد الفتاح إبراهيم، أفريقيا من السنغال إلى نهر جويا، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1961م، ص 72.

- الطريق الغربي ويمتد من سجلماسة إلى ولاته ثم إلى تنبكت وحتى جاو[1] .

- الطريق الذي يمتد من المغرب الأوسط (الجزائر الحالية) يمتد من تلمسان إلى توات إلى تنبكت[2] .

- الطريق الذي يبدأ من ورقلة إلى جاو ويتصل هذا الطريق ببعض الموانئ الجزائرية على ساحل البحر المتوسط ومنها أبجاية وسكيكدة وغيرها[3] .

- الطريق الذي ينطلق من واحة الجريد بتونس وغالباً ما يمر بورقلة أو وادي سوف أو غدامس[4] .

- الطريق الذي يبدأ من طرابلس على الساحل الليبي ويمر بغدامس، ويمر فرع منه بفزان وينتهي إلى برنو وجاو[5] .

وقد أعطى الرحالة والجغرافيون العرب أهمية كبرى لمعالجة موضوع طرق القوافل فمنهم من قدر المسافات بالمراحل والأيام كالبكري[6] ، ومنهم من قدرها بالأميال مثل ابن خرذدابة[7] .

وكانت أهمية طرق القوافل العابرة للصحراء تتغير طبقاً لقيام الدول وانهياره وانتقال مراكز الثقل السياسي والاقتصادي، ففي عهد مملكة غانا كانت الطرق الغربية أكثر أهمية، وبانهيارها وقيام مملكة مالي انحرفت هذه الطرق شرقاً وبقيام مملكة سنغاي زاد انحراف هذه الطرق ناحية الشرق وأصبحت نهاية الطرق تنبكت وجاو،

---

(1) عبد القادر زيادية، مملكة سنغاي، ص 214.

(2) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص 125 .

(3) عبد القادر زيادية، مملكة سنغاي، ص 214.

(4) المرجع السابق، ص 214.

(5) المرجع السابق، ص 214.

(6) صالح عبد القادر نور الدين، علاقات فزان بكانم، ص 115 .

(7) المرجع السابق، ص 115 .

وعقب سقوط مملكة سنغاي عام 1000هـ 1591م. قلَّتْ أهمية الطرق الغربية ونشطت الطرق الشرقية عند قيام ممالك الحوسة[1].

ومن هنا يتضح أن بلاد السودان الغربي قد ربطت مع الشمال الأفريقي بشبكة من الطرق المختلفة والتي عبرت دروبها القوافل التجارية والهجرات البشرية المتعاقبة، مما كان سبباً في تدفق المؤثرات العربية الإسلامية المتنوعة صوب تلك البقاع.

ثانياً - العلاقات الثقافية بين مصر والسودان الغربي:

أسهم الحج في تنمية العلاقات الثقافية والعلمية بين السودان الغربي ومصر حيث كان كبار العلماء من السودان الغربي في طريقهم إلى مكة المكرمة وعودتهم منها يقيمون فترة في القاهرة، حيث كانوا يدرسون على أبرز العلماء في الجامع الأزهر، واستقر بعض الطلبة من بلاد السودان الغربي القاهرة ونالوا شهرة بحيث وردت أسماؤهم في كتب التاريخ والتراجم، وكان لتكارير* جالية كبيرة مقيمة في مصر منذ عهد الفاطميين، وعرفت (قبة بولاق) باسم (بولاق التكرور) نسبة إلى أحد صلحاء التكارير، وهو الشيخ يوسف بين عبد الله التكروري، وكان معاصراً للخليفة العزيز بن المعز الفاطمي (الربع الأخير من القرن العاشر الميلادي) فلما توفي الشيخ بنى له العزيز قبة ومسجداً عرف باسم جامع التكروري، وبعد وفاة الشيخ التكروري بمائتي سنة ظهر كتيب لشريف محمد بن أسعد الجواني يعدد فيه مناقب الشيخ التكروري.

ولما تحول مجرى النيل إلى ناحية بولاق بعد سنة 790هـ/ 1388م خشي الناس أن تغمر المياه الضريح والجامع فحوَّلوا مجرى النيل[2].

---

(1) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص 224.

* كان يطلق على أفراد الجاليات السودانية في مصر لفظ التكارنة أو التكارة أو التكارير، وعلى بلاد السودان الغربي لفظ التكرور، وقد تم توضيح ذلك في الفصل الأول.

(2) تقي الدين أحمد علي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة، 1953م، ج2، ص 326.

وإن الطلبة التكارنة في القاهرة اندمجوا بالمجتمع المصري ولم يعيشوا بمعزل عنهم في حي خاص، واكتسبوا أرزاقهم من الحرف التي زاولوها ومن الحوانيت التي أنشؤوها، فصبيح بن عبد الله التكروري أعتق نفسه بمبلغ خمسمائة درهم اكتسبها من صنع (الشواشي) وكان يعرف (بالكلوتاني) واشتهر بالاستقامة والورع[1].

كما عرف طالب آخر من بلاد التكرور (السودان الغربي) في النصف الثاني من القرن الرابع عشر بالحراز لممارسته إعداد الحرز أو الحجب، وابنه المولود في القاهرة عرف بالكتبي، وكانت له مكتبة لبيع الكتب في سوق الوراقين واشتهر بجودة الخط وإتقان إعداد الكتب[2].

وشاهد آخر على منجزات التكارنة العلمية ما ورد في كتاب (نيل الابتهاج) في ترجمة عبد العزيز التكروري الذي رحل من السودان الغربي إلى المشرق العربي في أواسط المائة التاسعة الهجرية (القرن السادس العشر الميلادي): «ويقال إنه عزا لأهل مصر جميع مسائل مختصر خليل لأصولها، إلاّ نحو ثلاثة»[3]. وكانت مصر قد شهدت في العهدين المملوكي والعثماني تطوراً في نظام التعليم: فالكتاتيب كانت مدارس ابتدائية لتعليم اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم، والمدارس كانت المعاهد العليا، وأشهرها الجامع الأزهر، ويبدو أنه كان لهذا النظام أثره في قيام نظام شبيه في السودان الغربي والأوسط، فجامع سنكوري في تنبكت حاكى الجامع الأزهر[4]، إذ كانت تدرس فيه مختلف العلوم الإسلامية كالتفسير والحديث والفقه والمنطق والنحو والبيان والكلام والتصوف. كما يستدل من تراجم علماء السودان الغربي في (نيل

---

(1) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر أباد 1976م، ج2، ص362.

(2) شمس الدين محمد السخاوي، الضوء اللامع في أهل القرن التاسع، ج7، القاهرة، ط3، 1955، ص 2 ـ 3.

(3) أحمد بابا، نيل الابتهاج، بتطريز الدباج، إشراف وتقديم عبد الحميد الهرامة، طرابلس، نشرات كلية الدعوة الإسلامية 1989م، ص 275.

(4) أمين توفيق الطيبي، الحضارة العربية الإسلامية وأثرها الإيجابي في السودان الغربي، ص126.

الابتهاج) لأحمد بابا التنبكتي، و(تاريخ السودان) لعبد الرحمن السعدي و(فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور) للبرتلي.

ويبدو من كلام ابن بطوطة أن الثياب المصرية كان عليها إقبال كبير في السودان الغربي، فأهل تاكدة (مركز إنتاج النحاس) «يسافرون كل عام إلى مصر ويجلبون ما فيها من حسان الثياب»[1].

وعن ولاته (إيوالاتن) التي أقام ابن بطوطة فيها خمسين يوماً يقول: «وثياب أهلها حسان مصرية»[2].

وازداد عدد المصريين الزائرين لمدن السودان الغربي والمقيمين فيها، حيث يذكر ابن بطوطة أن للبيضان في مدن مالي كبيرين هما محمد بن الفقيه الجزولي وشمس الدين بن النقويش المصري[3]. ولما اعتل ابن بطوطة لجأ إلى طبيب مصري لمعالجته[4].

ويذكر القلقشندي أن كتابة أهل مالي بالخط العربي على طريقة المغاربة[5].

«وقد وصل كتاب من سلطان مالي إلى سلطان مصر وهو بالخط المغربي في ورق عريض السطر إلى جانب السطر»[6].

ولباس أهل مالي عمائم تحنك مثل العرب «وقماشها بياض من قطن يزرع عندهم وينسج في نهاية الرفع واللطف، يسمى الكميصا»[7].

ويركب أهل السودان الغربي الخيول بالسروج وهم في غالب أحوالهم في الركوب كأنهم العرب[8].

---

(1) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 697.
(2) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 677.
(3) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 681.
(4) المصدر السابق، ص 682.
(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 298.
(6) العمري، المصدر السابق، ص 65.
(7) المصدر السابق، ص 52 ـ 53.
(8) المصدر السابق، ص 55.

وقد كانت مصر في العصر المملوكي منارة العلم، حيث كان يقصدها الطلاب من السودان الغربي شأنهم شأن غيرهم من المسلمين، حيث استقرت طوائف منهم فيها لتشهد حلقات العلم في الجامع الأزهر، ولتسمع من شيوخه البارزين، ومن العلماء الذين وفدوا على مصر من السودان الغربي، أحمد بن عمر بن محمد أيقيت، أكبر الإخوة الثلاثة المعروفين في بلدهم (تنبكت) بالعلم والدين[1]، وكان فقيهاً نحوياً لغوياً عروضياً... معتنياً بتحصيل العلم، رحل إلى الشرق فحج عام 890هـ ولقى السيوطي، وخالد الأزهري ثم رجع إلى بلاده فجلس للتعليم[2].

وكذلك كان محمد بن أحمد بن محمد التازختي قد ذهب إلى مصر في طريقه إلى الحج، «... رحل إلى الشرق فلقى شيخ الإسلام زكريا والبرهانيين القلقشندي وابن أبي الشريف وعبد الحق السنباطي، وروى وحصل واجتهد حتى تميز في الفنون وصار من المحدثين وحضر درس الأخويين اللقانيين. وتصاحب مع أحمد بن محمد وعبد الحق السنباطي وأجازه من مكة أبو البركات النويري، ثم رجع لبلاده وتوطن كشن»[3].

ومحمد الكشناوي الفلأني... رحل إلى الشرق وحج وجاور الحرمين ورجع إلى مصر وتوفي بها، ويقال: إنه أقر له بالعلم والعقل علماء الحرمين ومصر[4] لقد اصطحب التكارنة أبناءهم لتحصيل العلم في القاهرة على يد كبار العلماء، ففي ترجمة عز الدين بن جماعة أحد مشاهير العلماء المصريين أنه رأى رجلاً تكرورياً اسمه الشيخ (عثمان ماغفا) ورد إلى القاهرة، له عشرة بنين رجال أتى بهم إلى الشيخ عز الدين للاستفادة فقرأ عليه كتاباً، فكان إذا قرأ له مسألة ففهمها، وقف ودار

---

(1) أحمد بابا، نيل الإبتهاج، ص 137.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 37، أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 138.

(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 39-40.

(4) محمد بلو، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، ص 51.

ثلاث دورات على هيئة الراقص ثم انحنى للشيخ على هيئة الراكع وجلس فإذا جلس قام بنوه العشرة ففعلوا مثل فعله[1].

وممن أسهم في إثراء النهضة الفكرية من التكارنة، عبد العزيز بن عبد الواحد بن عبد الله بن محمد العز بن التاج التكروري الأصل، السمنودي، الشافعي، الرفاعي «ولد قبل التسعين وسبعمائة بمدينة سمنود في الشرقية ونشأ بها فقرأ القرآن عند جماعة منهم الشمس محمد بن عبد الكريم الضاوي، وحفظ العمدة والتنبيه والمنهاج الأصلي وألفية ابن مالك، عرض على جماعة فكان ممن أجازه منهم الكمال الدميري، وذلك عام 807هـ، حضر درس الجهوري والشمس البرماوي وقرأ في العربية في الشطوفي... ولأهل تلك البلاد فيه اعتقاد.. حج عام 818هـ ورجع إلى بلده»[2].

ومن العلماء التكارنة في مصر صبيح بين عبد الله التكروري الذي تلقى العلم على يد الشيخ النجيب شمس الدين ابن العماد، ذهب إلى دمشق ودرس بها وكان له نشاط علمي بالقاهرة ت 731هـ/ 1330م[3].

وقد ابتنى تجار التكارنة بمصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق وأصبحت هذه المدرسة مركزاً لطلاب العلم الوافدين من بلاد السودان الغربي، والأصل في بناء هذه المدرسة للكانم من التجار التكارة الذين كانوا يقصدون منزل ابن رشيق بمجرد وصولهم القاهرة ثم استقر بهم الأمر لبناء هذه المدرسة عند حمام الريش[4]، ورغم أن هذا النص يشير صراحة إلى أن طوائف الكانم بالسودان الأوسط هي التي أسست مدرسة ابن رشيق المشار إليها، ولكن يبدو أنها كانت منزلاً للحجاج

(1) أبي الفلاح عبد الله بن عيماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت، ج7، ص 141.

(2) السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص 220.

(3) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص 304.

(4) المقريزي، المواعظ والاعتبار. ج2، ص 334.

وطلبة العلم من بلاد التكرور عموماً بما فيهم أهالي السودان الغربي، والدليل على ذلك أن لفظ التكرور كان يطلق على عموم سكان غرب أفريقيا كما هو معروف، وأن المقريزي وغيره من الكتّاب ظلوا في ما بعد يستخدمون لفظ التكرور دون الكانم وذلك أثناء حديثهم عن مدرسة ابن رشيق المشار إليها، وكان لمدرسة ابن رشيق إعانات كثيرة تأتيها من التكارة كل عام «بجانب السمعة والسيرة الحسنة التي تمتعت بها هذه المدرسة فكان يقصدها التكارة بمجرد وصولهم إلى مصر في طريقهم إلى الحجاز، وعند العودة أيضاً»[1].

وقد انتشر فقه ومذهب الإمام مالك❖ في كل من مصر والمغرب والسودان الغربي، وأصل وجوده في مصر يرجع إلى عبد الرحيم بن خالد يزيد المتوفى في الإسكندرية عام 163هـ، ثم نشره بمصر عبد الرحمن بن القاسم، فاشتهر مذهب مالك في مصر، وفي عام 358 هـ قدم جوهر الصقلي وفتحها عندئذ انتشر المذهب الشيعي في البلاد وما أن قامت دولة المماليك في مصر حتى عمل سلاطينها على القضاء على ما بقي من آثار التشيع في مصر، وعقب تولية الظاهر بيبرس البندقداري السلطنة، ولي بمصر أربع قضاة شافعي، ومالكي، وحنفي، وحنبلي وكان ذلك عام

---

(1) المصدر السابق، ص 335.

❖ الإمام مالك (97 هـ - 715 هـ - 179 هـ - 795م) ولد في الحجاز واعتمد في استخراج الأحكام على ظاهر النص، فسمي أتباعه بالظاهرية لأنهم جعلوا أحكامهم مختصرة في النصوص بالإجماع، وهو ما عرف بالمصالح المرسلة، أي كل مصلحة ضرورية للمجتمع يحصل بها نفع أو تدرأ ضرراً ولا تعارض النص، ولمالك كتاب في الفقه والحديث اسمه الموطأ وهو أول ما ألف في الفقه، سمي هكذا لأنه صنفه بناء على أمر الخليفة العباسي المنصور، ووطأه للناس، أي أنه أوضح الشرع له أو لأن فقهاء المدينة واطؤوه عليه، أي وافقوه، وهذا المذهب المالكي تلائم مع عقلية أهل الحجاز والمغرب والأندلس وسكان المناطق التي لم تكن أهل جدل ونظر، ومن الكتب التي تناولت مذهب مالك بالشرح المدونة الكبرى لسحنون بن سعيد، 240 هـ، 854م كما ظهرت للمذهب ملخصات مثل المختصر في الفقه على مذهب الإمام مالك لخليل بن إسحاق القرن 7 هـ/ 14م، عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص 175 - 176.

665 هـ ـ 1267م وقد حرص سلاطين المماليك على عدم تولية أحد القضاء أو قبول شهادة أحد الأفراد أو تقديم شخص للخطابة أو الإمامة أو التدريس إلا إذا كان من أتباع أحد المذاهب السنية الأربعة[1].

وقد دخل مذهب الإمام مالك إلى السودان الغربي عن طريق المغرب العربي حيث انتشرت كتب المالكية مثل الموطأ للإمام مالك، وكتب المغيلي والونشريسي ودرست هذه الكتب في مدن السودان الغربي مثل جني وتنبكت وكانو[2].

وقد كان لجهاد المرابطين دورٌ كبيرٌ في انتشار الإسلام على المذهب المالكي في السودان الغربي، إلى جانب توافد العديد من التجار والعلماء والفقهاء والأئمة والمتصوفة على هذه المنطقة وخاصة عقب رحلة السلطان منسا موسى إلى الحج. لقد أشار السلطان منسى موسى إبان تواجده في مصر أنه مالكي المذهب، كما اشترى من مصر بعض الكتب في فقه المالكية ـ كما تحدث عن ذلك المؤرخ تقي الدين المقريزي[3].

ويعلل عمر الجيدي انتشار المذهب المالكي وتوطده بالمنطقة إلى عدة أسباب من أهمها: ملاءمة هذا المذهب لطبيعتهم، فهو مذهب علمي يعتد بالواقع، ويأخذ بأعراف الناس وعاداتهم ويناسب بساطتهم في الصحراء دون تكلف أو تعقيد، فهم يميلون إلى البساطة والوضوح والحرص على التمسك بالإسلام وبأصوله خوفاً من الانزلاق في مهاوي الضلالات[4] ولا يعني هذا أنه المذهب المسيطر تماماً في المنطقة، بل لاحظ ابن بطوطة أن قرية زاغري بالسودان الغربي تضم فريقاً من الأباضية، وهم

---

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص 339 ـ 344.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 33 ـ 38 ـ 39، حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ط3، القاهرة، دار الفكر العربي، 1986م، ص 242.

(3) المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة مكتبة الخانجي، 1955م، ص 113.

(4) عمر الجيدي، محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في المغرب الإسلامي، الدار البيضاء منشورات دار عكاظ 1987م، ص 29.

من المغاربة البيض المقيمين في بلاد السودان الغربي، وكان أهل السودان يسمونهم (صغنغو) والسنيون المالكيون من البيض يسمون عندهم (توري)[1].

ولقد لعب الفقهاء الأباضيون دوراً مهماً في نشر الإسلام في السودان الغربي خاصة في الفترة السابقة لسيادة المذهب المالكي بعد القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، وقد حرض علماء وفقهاء وملوك الدول الإسلامية في السودان الغربي على إقتناء الكتب حرصهم على العلم والإلتقاء بالفقهاء والعلماء، وقد ذكر أحمد بابا أن فقيهاً يدعى محمد بن محمود بن بكر «أقتنى نفايس الكتب الغريبة والعزيزة... وربما يأتي لبابه طالب ويطلب كتباً فيعطيها له من غير معرفة»[2].

وإقتناء الكتب شيء مألوف في مصر في عصر المماليك، فكان في مصر خزانة للكتب حوت على ما يزيد على 120 ألف مجلد وضمت من أصناف الكتب ما يزيد على 200 ألف كتاب من المجلدات ضمنها الفقه على سائر المذاهب، والنحو، واللغة، وكتب الحديث، والتواريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء. إلى جانب ما اشتملت عليه الخزانة من المصاحف الشريفة[3].

وقد كان علماء السودان الغربي وصلوا إلى مستوى من العلم والمعرفة لا يقل عن مستوى علماء الحواضر الإسلامية الأخرى في المشرق والمغرب، إن لم يكونوا قد تفوقوا عليهم في بعض النواحي، حتى أن الفقيه عبد الرحمن التميمي عندما جاء من الحجاز بصحبة السلطان منسا موسى فأقام بتنبكت، ولما رأى رجالها يتفوقون عليه غادرها إلى فاس[4].

---

(1) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 680.

(2) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 600.

(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ص 408 ـ 409.

(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 51.

كذلك دعي بعض العلماء السودانيين للتَّدريس في الجامع الأزهر، ومن أشهرهم الفقيه المفسر ابن عبد الرحيم[1] وقد كان لعلماء السودان الغربي شهرة وصيتٌ ذائع ويدلنا على ذلك ما جاء في ترجمة محمود بن عمر بن محمد إقيت التمبكي «قاضيها وإمامها بلا مدافع اشتهر علمه وإصلاحه في البلاد، وطار صيته في الأقطار شرقاً وغرباً»[2].

وقد وصلت مؤلفات العالم جلال الدين السيوطي إلى السودان الغربي، إضافة إلى مؤلفات العلماء المصريين حيث كان الحجاج السودانيون ينقلون معهم الكتب والمؤلفات إلى بلادهم، وقد تبادل علماء السودان الغربي مع الإمام السيوطي الرسائل حول المسائل الفقهية التي تحتاج إلى توضيح، مثل تلك الرسائل التي أرسلها الشيخ شمس الدين اللمتوني من السودان الغربي إلى العالم المصري السيوطي 848 هـ ـ 1493م والتي احتوت على عدة مسائل فقهية، والتي أجاب عنها السيوطي في رسالة أسماها (فتح المطلب المبرور وبرد الكيد المحرور في الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور)[3].

كما كانت هناك مراسلات بين محمد بن عبد الكريم المغيلي والسيوطي حول علم المنطق[4] وللسيوطي رسالة إلى ملوك التكرور ينصحهم فيها ويردهم إلى حكم الله، ويبدو أنه بلغ إلى سمع السيوطي أن بعض قضاتهم حكم بغير الشريعة في إحدى القضايا وتبعاً للهوى، وأنه قد فشت فيهم عوايد ليست من الدين في شيء، لهذا كتب السيوطي لهم عامة وإلى الملك الزاهد محمد بن صفعن صاحب (أقدز) وإخوته خاصة ينصحهم ويردهم إلى حكم الله ويذكرهم بقوته سبحانه وتعالى وهو

(1) عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الأسكين، ص 137.

(2) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 607.

(3) عبد الرحمن السيوطي، الحاوي للفتاوي، القاهرة، مكتبة القدس، 1351 هـ، ص 385 ـ 388.

(4) أحمد بابا، المصدر السابق، ص 578.

أحق أن يخشوه[1] واتصل الأسكيا الحاج محمد سلطان سنغاي بالعالم المصري السيوطي وكان ذلك في القاهرة أثناء رحلة الأسكيا إلى الحج عام 1497م، وتحادثا في أمور كثيرة، وأخذ عنه الكثير في العقائد الإسلامية، وسمع منه جملة من آداب الشريعة وأحكامها، وانتفع بوصاياه ومواعظه، ورجع إلى السودان ونصر السنة[2].

ومن علماء السودان الغربي الذين رحلوا إلى مصر الفقيه الصديق بن محمد تعلي، وكان فقيهاً عالماً رحل إلى تنبكت ثم سافر إلى الشرق لأداء فريضة الحج وقد اجتمع بالكثير من العلماء والفقهاء والصالحين ومنهم محمد البكري، الذي كان محباً لفقهاء تنبكت وكان دائم السؤال عنهم[3]. وهكذا يتضح لنا مما سبق إن العلاقات والروابط الثقافية والعلمية كانت قوية بين مصر والسودان الغربي وأن مواكب الحج كانت سبباً مباشراً في تعميق هذه العلاقات، حيث نجد أن معظم الحجاج كانوا من الفقهاء والدارسين الذين يتشوقون إلى ملاقاة نوابغ أهل العلم والاتصال بهم والحصول على إجازاتهم سواء في القاهرة أو الحجاز[4] وكان ذلك من عوامل ازدهار جامعات السودان الغربي.

ثالثاً - المراكز الحضارية الصحراوية:

نظراً للحركة التجارية المزدهرة التي انتظمت بين السودان الغربي وبين مناطق الشمال الأفريقي، أقيمت العديد من المدن التجارية على جانبي الصحراء الكبرى، ولا سيما في المناطق التي تمر بها طرق القوافل التجارية الرئيسية العابرة للصحراء، وقد كانت هذه المدن بمثابة مراكز استقرار التجار الذين يقومون بنقل وتوزيع المنتجات المتداولة بين الشمال الأفريقي وجنوب أوروبا والمشرق العربي وبين السودان الغربي.

(1) عبد الرحمن السيوطي، رسالة إلى ملك التكرور، مخطوط رقم 0416، دار الكتب المصرية القاهرة، ورقة 39ـ40.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 73.

(3) المصدر السابق، ص 61.

(4) محمد محمد أمين، علاقات دولتي مالي وسنغاي بمصر، ص 301.

وقد شكلت هذه المراكز والمحطات التجارية شرياناً اقتصادياً وثقافياً بين المنطقتين وأماكن لامتزاج الأفكار تأثراً وتـأثيراً، ودفعـاً قويـاً للمؤثـرات العربيـة الإسـلامية إلـى السودان الغربي، وأهم هذه المراكز التي تقع على الجانب الشمالي للصحراء هي:

1.غدامس:

تقع غدامس عند إلتقاء الحدود التقليديـة الليبيـة مـع كـل مـن تونـس والجزائـر، على خط عرض 30 درجة شمالاً، ولغدامس تاريخ قديـم يرجـع إلـى الزمـن الفنيقـي والروماني فقد كانت مركزاً تجارياً وحصناً حربياً لروما على طريق جرمة[1].

وقد دخلت ضمن حدود الدولة الإسلامية في أثناء حملات عقبة بن نافع علـى الشمال الأفريقي، واشـتهرت غدامـس كمركـزٍ تجـاريٍ هـامٍ، حيـث أصبحـت ملتقـى لطرق القوافل التجارية القادمة من بعض مدن وسواحل الشمال الأفريقي، ثـم تتفـرع منها عدة اتجاهات نحو بـلاد السـودان الأوسـط والغربـي، وقـد تحـدث عنـها صـاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار بقوله: «مدينة لطيفة قديمة أزليـة وإليـها ينسـب الجلد الغدامسي... فيها غرائب من البناء والأزاج المعقـودة تحت الأرض مـا يحـار فيـه الناظر إليها إذا تأملها، تبين أنها آثار ملوك سالفة وأمم دارسـة، وأن تلـك الأرض لـم تكن صحراء وإنما كانت خصبة عامرة وأكثر طعامهم التمر... ومن غدامس يدخل إلى تادمكة وغيرها من بلاد السودان»[2].

إلى جانب خدمة القوافل التي اشتهرت بها غدامس فقد اشتهرت أيضاً بصناعـة الجلود. وقد وصفها بذلك أبو الفداء حيث: «وبغدامـس الجلـود المفضلـة وهـي علـى طريقة بلاد السودان المعروفين بالكانم»[3].

---

(1) محمد سليمان أيوب، جرمة في عصـر ازدهارهـا مـن (100 م إلـى 450م) ليبيـا فـي التـاريخ، بنغازي، كلية الآداب جامعة بنغازي، 1968م، ص 192.

(2) مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصـار، نشـر وتعليـق سـعد زغلـول عبـد الحميـد، الـدار البيضاء، دار النشر المغربية، 1985م، ص 145.

(3) أبو الفداء، تقويم البلدان، باريس، 1850م، ص 147.

كما تحدث عنها الحسن الوزان بقوله: «... غدامس منطقة كبيرة ... حيث القصور العديدة والقرى المأهولة، على بعد نحو ثلاثمائة ميل من البحر المتوسط، سكانها أغنياء ولهم بساتين... لأنهم يتاجرون مع بلاد السودان، ويديرون شؤونهم بأنفسهم ويؤدون خراجاً إلى الأعراب»(1).

وقد اشتهرت غدامس باتصالاتها المتعددة مع بلاد السودان الغربي، وقد كانت قوافلها التجارية تجوب بلاد السودان، وقد سافر ابن بطوطة صحبة إحدى هذه القوافل(2).

وعند الحديث عن غدامس وصلاتها مع بلاد السودان الغربي لابد من الإشارة إلى الجالية الغدامسية بتنبكت التي احتلت أهمية كبيرة، ويرجع ذلك للدور المهم والعريق الذي لعبه أفراد تلك الجالية الذين كانوا من الكثرة بحيث أنهم شيدوا حياً خاصاً بهم في تنبكت، وهو من أرقى الأحياء في هذه المدينة ويقع في جنوبها الشرقي وكان على درجة كبيرة من الأناقة وحسن البناء والتناسق في شوارعه(3) ونتيجة لذلك فقد اختاره قائد الحملة المراكشية على سنغاي عندما احتل تنبكت كمقر لإقامة قصبة حكمه، وقد ذكر ذلك السعدي بقوله: «... ثم إنهم دخلوا في داخل المدينة يوم الخميس السادس من شعبان المنير، وكانوا في المدينة وطالعوها ووجدوا أكبرها عمارة حومة الغدامسيين، فاختاروها للقصبة وشرعوا في بنائها»(4).

وقد نال أفراد الجالية الغدامسية حظوة كبيرة، حيث كانوا ذوي مراكز اجتماعية وسياسية مرموقة، فقد ورد عن هذه الجالية أنها كانت أول مجموعة تعطي البيعة للعساكر المراكشية وللسلطان أحمد المنصور السعدي، عندما احتلت عساكره تنبكت عام 1591م(5).

---

(1) الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 146.

(2) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 696.

(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 142.

(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 142.

(5) أحمد سعيد الفيتوري، الجاليات العربية المبكرة في بلاد السودان، ص 249.

وعندما توفي فياض الغدامسي خرج للصلاة عليه فقهاء تنبكت[1] ، والذي جعل حي الغدامسية بهذه الدرجة من الأهمية هو ذلك الثراء الكبير الذي كان يتمتع به تجار غدامس، بالنسبة لسكان السودان الغربي، وهذا أمر طبيعي نظراً للاهتمام الواسع بالتجارة، ولم تقتصر معاملاتهم على مدينة تنبكت فقط بل تجاوزوها إلى غيرها من مدن وحواضر السودان فتعاملوا مع تادمكة (السوق) وجاو وجني وكانوا وغيرها من الأماكن الأخرى[2] .

وبذلك يتضح الدور المهم الذي لعبته غدامس في دفع المؤثرات العربية الإسلامية نحو السودان الغربي سواء بتسهيلها التواصل المستمر أو من خلال ما قامت به الجاليات الغدامسية الأصل والتي هاجرت وعاشت بالمنطقة.

2.توات:

تقع توات إلى الجنوب من الصحراء الجزائرية التي هي جزء من الصحراء الكبرى، وتبعد عن العاصمة الجزائرية حوالي 1500 ك. م[3] .

تعد توات من أبرز المراكز الحضارية التجارية التي تقوم بتنظيم القوافل التجارية وتوفير مواردها، وقد أشار إليها ابن خلدون[4] ، مما يؤكد أنها كانت مزدهرة في عهد مملكة مالي الإسلامية، وأكد على دورها العام في تنشيط التجارة إلى بلاد السودان، ويبدو أن توات ظلت ذات أهمية قصوى في تنشيط التجارة الصحراوية حتى أيام مملكة سنغاي الإسلامية، إذ أنها تعد مركزاً لإنعاش التجارة الصحراوية لأنها تقع في

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 59.

(2) الأرواني، الترجمان في تاريخ الصحراء والسودان وبلد تنبكت وشنقيط وأروان ونبذة من تاريخ الزمان في جميع البلدان، مخطوط رقم (760)، مركز أحمد بابا، تنبكتو، مالي، ورقة 4.

(3) الهادي الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ص 300.

(4) ابن خلدون، العبر، ج6، ص 117، 118.

واحة غنية يتزود فيها التجار بالغذاء والماء العذب، كما يتم فيها تغيير الأدلاّء والجمال، كما كانت مركزاً يقصده تجار الشمال الأفريقي لغرض ترويج بضائعهم[1].

ويعتقد أنه من الأمور التي أعطت لتوات أهمية كبرى هو وقوعها في الطريق التجاري الرئيسي الذي يربط تلمسان مع بلاد السودان الغربي، ونظراً لكونها مركزاً تجارياً هاماً، وملتقى للقوافل، فقد أمتهن أهلها التجارة وجنوا منها أرباحاً طائلة وهاجروا من أجلها، واستقروا في بعض مناطق السودان الغربي، حيث قاموا بنشر المؤثرات العربية الإسلامية، من اللغة العربية وتعاليم الإسلام وغيرها من المظاهر الحضارية، وتوجد بعض الإشارات التاريخية التي تؤكد أن عدداً من التواتيين هاجروا إلى مدن وحواضر السودان الغربي الرئيسية، فقد استطاع هؤلاء المهاجرون أن يكوِّنوا جاليات كبيرة في كل من تنبكت وجاو وكانو وغيرها، وقد التقى الفقيه محمد عبد الكريم المغيلي بأفراد هذه الجالية عندما زار مملكة سنغاي في عهد الأسكيا الحاج محمد، ووجدهم يشكلون نسبة كبيرة من التجار والفقهاء العرب هناك[2].

وقد زار الرحالة الجنوي مالفانت (MALFANTE) توات حوالي عام 1447م ويبدو أنه كان أول أوروبي يصل في هذه الفترة المبكرة إلى تلك المناطق وكان هدفه الوصول إلى بلاد السودان الغربي، ليتعرف على بلاد الذهب التي يجني منها التجار المغاربة أرباحاً كثيرة، وربما يكون قد وصل إليها عن طريق تلمسان، فقد كان بمرفأ بجايا في ذلك الوقت نشاط كبير للتبادل التجاري بين أوربا وبين مملكة تلمسان، والذي تمر به البضائع المختلفة لتأخذ طريقها إلى بلاد السودان عبر توات[3].

---

(1) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص 135.

(2) عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي، ص 216.

(3) عبد القادر زبادية، (التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي، بعض آثاره وأعماله في الجنوب الجزائري وبلاد السودان) مجلة الأصالة، الجزائر، 26 : 2، 1975م، ص 209.

وقد وصف الحسن الوزان توات قائلاً: «... منطقة مأهولة في الصحراء... وسكانها أغنياء لأنهم اعتادوا الذهاب كثيراً بسلعهم إلى بلاد السودان، وهي مجمع للقوافل لأن تجار البربر (المغاربة) ينتظرون تجار السودان»[1].

ولقد أدى التواتيون دوراً مهماً كوسيط تجاري وثقافي مع بلاد السودان الغربي، كما قامت العناصر التي عاشت منهم في بلاد السودان الغربي، بنفس الدور في دفع المؤثرات العربية الإسلامية إلى تلك المناطق ومنها على سبيل المثال الفقيه العالم أبو القاسم التواتي حيث كان معه 50 عالماً من توات في تنبكت[2].

3.تغازا:

تقع تغازا في جنوب المغرب الأقصى، بقرب البحر المحيط على الطريق الرئيسي للقوافل بين المغرب وتنبكت[3]، وقد حدد الفشتالي موقع تغازا بقوله: «... تغازى هي بلد يتوسط القفر بين المغرب وبلاد السودان»[4].

وازدادت أهميتها لوقوعها على طريق القوافل التجارية الوافدة من الشمال الأفريقي حتى تنبكت، وهو الطريق المعروف باسم (طريق الذهب)[5].

واشتهرت تغازا كما هو معروف في المصادر التاريخية بأنها مصدر أساسي للملح، السلعة ذات الأهمية الاقتصادية الكبيرة عبر العصور المختلفة، وقد قال عنها حسن الوزان: «مكان مأهول فيه عدد من مناجم الملح تشبه مقالع الرخام يستخرج

---

(1) الوزان، المصدر السابق، ص 133.

(2) مجهول، ذكر بعض الأولياء المحيطين بتنبكت وكيفية زيارتهم، مخطوط رقم 2285، مركز أحمد بابا التنبكتي، تنبكتو، مالي، ورقة 3، السعدي، تاريخ السودان، ص 58.

(3) بوفيل، المرجع السابق، ص 269.

(4) أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفاء في مآثر موالينا الشرفاء، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، الرباط مطبوعات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية والثقافية، 1972م، ص55.

(5) بوفيل، المرجع السابق، ص 270.

هذا الملح من حفر تحيط بها أكواخ عديدة يسكنها المستخدمون لاستخراج هذا الملح وليسوا من سكان البلدة»[1] .

وقد زار ابن بطوطة تغازا في منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وهو في طريقه إلى بلاد السودان ووصفها بقوله: «... هي قرية لا خير فيها، ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ولا شجر بها... إنما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الأرض فيوجد في ألواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض، يحمل منه لوحين»[2] .

تشير هذه الشواهد التاريخية إلى طريقة استخراج الملح بتغازا وإلى وفرته بها إلى درجة استخدامه في بناء البيوت والمساجد وغيرها، أما عن أهمية الملح وتوفره بتغازا فيقول ابن بطوطة: «... وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة، ويقطعونه قطعاً ويبتاعون به»[3] .

وقد ظلت تغازا المصدر الرئيسي للملح لعدة قرون ولم تدخل تحت سيطرة أحد بل كانت السيطرة فيها لقبيلة مسوفة الصنهاجية، حيث يقوم الرقيق التابعون لها بتعدين الملح بها[4] .

كما كانت أيضاً مركزاً مهماً لتجارة الذهب حيث يتم فيها مبادلته بالملح، وقد أوضح ذلك ابن بطوطة حيث قال: «... وقرية تغازا على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من الذهب»[5] .

---

(1) الوزان، المصدر السابق، ص 108/ 109 .

(2) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 674 .

(3) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 674 .

(4) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص 130 .

(5) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 674 .

وفي بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي أوضح الحسن الوزان الأهمية التجارية التي كانت تلعبها تغازا في التجارة مع بلاد السودان، حيث يذكر أن ملحها كان ينقله التجار إلى تنبكت ولولا ذلك حصلت ندرة شديدة بالملح[1].

ومن المعروف أن تغازا لم تقع تحت سيطرة سلطة مركزية قبل استيلاء الأسكيين عليها زمن الأسكيا محمد الكبير، ثم محاولة السعديين فيما بعد الاستيلاء عليها، أما قبل ذلك فإنها كانت تدار من قبل قبيلة مسوفة الصنهاجية، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ونظراً لأهمية تغازا كمركز تجاري وتعديني، فقد كانت مسرحاً للصراع الأسكي ـ السعدي، طول القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي تقريباً، والمعروف أن الأسكيين قد سيطروا على مالح تغازا، وفي هذا الصدد يقول المؤرخ عبد العزيز القشتالي الذي كان يشغل وزير القلم الأعلى في بلاط المنصور السعدي «... كانت في القديم من ممالك اسكياو وأعمالها وبها معدن الملح الذي تمتاز به عن سائر السودان»[2].

وكانت أطماع السعديين في الاستيلاء على تغازا مبكراً، ترجع إلى عهد القائم بأمر الله السعدي وأحمد الأعرج، الذي تدخل عام 1526م في توات مطالباً سنغاي بتسليم معدن تغازا[3].

وقد تضاعفت أطماع السعديين في الاستيلاء على تغازا منذ عهد الأسكيا إسحاق الأول 1539 ـ 1549م، وبلغت ذروة هذه الأطماع في عهد أحمد المنصور السعدي الذي أقدم على الاستيلاء على سنغاي عام 1591م[4].

---

(1) بوفيل، المرجع السابق، ص 271.

(2) القشتالي، المصدر السابق، ص 55.

(3) محمد موزين، المغرب العربي وبلاد السودان خلال القرنين 16/ 17م، مجلة المؤرخ العربي، بغداد، 31، 1987م، ص 216.

(4) بوفيل، المرجع السابق، ص 273.

ومن خلال ما تقدم تبرز الأهمية القصوى التي كانت تتمتع بها تغازا كمركز تجاري عام يؤمه التجار من الشمال الأفريقي لينقل منه الملح باتجاه المراكز السودانية في الجنوب ويؤمه التجار السودانيون لترويج معدن الذهب، وغيره من المنتجات السودانية، وللتزود بما أمكنهم من منتجات الشمال الأفريقي، وغيرها من السلع والبضائع التجارية التي كان ينقلها التجار العرب المغارية إلى هناك، وعن طريق هذه المبادلات انتقلت المؤثرات العربية الإسلامية، وخاصة في مجال الحياة الاقتصادية والثقافية إلى تلك المناطق.

4.سجلماسة:.

تعد سجلماسة ثاني مدينة تشيد بالمغرب الإسلامي بعد القيروان وعاصمة أول دولة مغربية مستقلة عن الخلافة بالمشرق، والمتمثلة في إمارة بني مدرار الخارجية الصفريّة، فقد أجمعت بعض المصادر التاريخية، أن سجلماسة بنيت سنة 140 هـ - 757م[1].

وقد أهلها موقعها الاستراتيجي كهمزة وصل بين مختلف مناطق شمال أفريقية وبلاد السودان الغربي من جهة والمشرق الإسلامي من جهة ثانية، على التحكم ولمدة طويلة في تجارة القوافل، بل وعلى لعب الدور الريادي في تنظيم شبكتها، الشيء الذي جعل اسم سجلماسة يرتبط في الكتابات العربية بتجارة الذهب وبالتالي تؤثر بشكل فعال في بلورة حضارة عربية إسلامية بأفريقيا فيما وراء الصحراء، ومع تشييد سجلماسة في موقع محوري يرتبط بين مختلف أجزاء الشمال الأفريقي وبين مناطق جنوب الصحراء، فضلاً عن المشرق العربي، وكان لهذا الموقع وتنوع البضائع المتبادلة

---

(1) البكري، المصدر السابق، ص 142 - 150، ابن عذاري المراكشي، بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة، ج س كولان وليفي بروفنسال، ط3، الدار العربية للكتاب، 1983م، ج1، ص 150 - 156.

فيه، وتركز عدة صنائع واستقرار التجار الوافدين عليها من كل الجهات، كلها حوافز خلقت من سجلماسة بحق عاصمة الذهب والقوافل التجارية.

وتحدثنا المصادر التاريخية عن ذلك الدور الاستراتيجي الذي قامت به سجلماسة في عهودها الزاهرة، يقول ابن حوقل في هذا الصدد: «كانت القوافل تجتاز المغرب إلى سجلماسة، وسكنها أهل العراق وبخارى والبصرة والكوفة والبغداديون... فهم وأولادهم وتجارهم دائرة ومفرداتهم دائمة وقوافلهم غير منقطعة إلى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابغة، فلم يدانها التجار في بلاد الإسلام سعة حال»[1]، وكان تجارها على اتصال كبير مع تجار أوروبا وآسيا، بل وسافروا بأنفسهم إلى بلاد السودان وإلى بلاد الحجاز عن طريق الصحراء، وقد استفاد السجلماسيون من خلال ذلك، فأصبحوا من كبار التجار وجمعوا ثروة هائلة، وفي هذا يؤكد ابن فضل الله العمري «أن السجلماسيين كانوا أغنياء ويتاجرون مع بلاد السودان فهم يصدرون إلى هذه البلاد الملح والنحاس ويستوردون منها بالمقابل الذهب»[2].

بدأت سجلماسة مرحلة التوسع والازدهار في عصر أبي المنتصر اليسع بن مدرار 174 هـ- 790م، وبدأت تقوم بدورها الطليعي في خدمة التجار، واستقبال القوافل من كل أنحاء المغرب، والمشرق الإسلاميين، وساعد موقع سجلماسة وخصوبة أرضها، على تحمل الحركة التجارية، وتوفير متطلبات القوافل الداخلة والخارجة من السودان، وجعلت هذه الامتيازات من سجلماسة أولى البلدان المجاورة لحدود السودان الغربي، وتوثقت علاقاتها بالدول التي جاورتها لتيسر انتقال القوافل وخصوصاً الدولة الرستمية في تيهرت[3]، ودولة الأغالبة في تونس، فانتظم طريق القوافل من سجلماسة إلى ورجلان والقيروان[4].

---

(1) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 65.

(2) العمري، المصدر السابق، ص 201.

(3) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص 42.

(4) الأصطخري، المسالك والممالك، ص 46.

كما ارتبطت بعلاقات حميمة مع المراكز التجارية بالسودان الغربي، فكانت القوافل تنقل البضائع المغربية، أو تأتي ببضائع السودان بما فيها الذهب، وبذلك انعكس كل ذلك على سكان سجلماسة وازداد ثراؤهم بسبب تجارتهم مع السودان الغربي، فكانوا حلقة وصل بين هذه المناطق وغيرها[1].

ولقد ظلت سجلماسة عبر تاريخها الطويل مركز استقطاب للعلماء ورجال الدين والأدب، فضلاً عن التجار وأصحاب الأموال، فأسهمت بشكل فعال في النهضة الحضارية والدينية والعلمية، حيث كانت بفضل عمقها التاريخي وثقلها الحضاري وتفتحها على جميع التيارات الفكرية أو المذهبية، وأصبحت مركزاً لتبادل الرأي والحرية الاعتقاد وللتسامح الديني، حيث تمازجت بالمنطقة جميع المعتقدات الخارجية منها والسنية والشيعية والصوفية، كما شارك أهل الذمة بدورهم في هذه النهضة، وإذا كانت سجلماسة قد حاولت أن تنوع من علاقاتها الثقافية مع المشرق العربي أو مع المراكز الحضارية المطلة على البحر المتوسط، فإن ذلك لم يكن بالدرجة التي كانت لصلاتها المتميزة بالممالك الأفريقية الواقعة فيما وراء الصحراء.

فمنذ القرون الإسلامية الأولى كان التقارب بين سجلماسة وبين الضفة الجنوبية للصحراء الكبرى من خلال تنشيط حركة القوافل التجارية، وتسيير رحلات العلماء والفقهاء، وفي نشر الإسلام بين الشعوب الأفريقية وتفقهها بتعاليمه السمحة، ومن أبرز مظاهر تأثير سجلماسة على السودان الغربي اعتماد بلاد السودان لأنماط تخطيط المدينة العربية الإسلامية بأسوارها ومساجدها وأسواقها ودورها وشوارعها... وكذلك من حيث اتِّباع طرق البناء سواء بالطين أو الحجارة، ويرجع الفضل الأكبر في ذلك إلى التجار والعلماء المغاربة الذين استقروا في شتى حواضر السودان الغربي، حيث شيدوا منازل لا تختلف في شيء عن منازل فاس ومراكش وسجلماسة، والأبحاث الأثرية التي أجريت بموقع أودغست أبرزت مدى التشابه

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 105، الوزان المصدر السابق ص 127.

التام بين مكوناتها العمرانية وتلك المكتشفة بسجلماسة حتى عرفت المدينتان بالشقيقتين[1] . وفي هذا يذكر ابن خلدون عند حديثه عن أحد أعظم ملوك إمبراطورية مالي الإسلامية وهو منسا موسى (بداية القرن الرابع عشر) الذي جلب معه أثناء عودته من رحلة الحج أحد العارفين بالهندسة المعمارية[2] ، وهو إبراهيم محمد الأنصاري الساحلي المعروف بالطونجي الذي بنى له دار الإمارة ، بقوله : «... أطرف إبراهيم الطونجي السلطان منسا موسى ببناء قبة مربعة الشكل استخرج فيها إجادته . . . وأضفي عليها من الكلس و والى عليها بالأصباغ المشبعة فجاءت من أتقن المباني ووقعت من السلطان منسا موسى موقع الاستغراب... حيث وصله العاهل بمبالغ من المال»[3] .

وكان يقيم ببلاد السودان الغربي العديد من التجار والفقهاء والمغاربة الذين كانوا يحظون برعاية خاصة من طرف الملوك السودانيين ، ويذكر ابن بطوطة الكثير منهم في رحلته ، فمن بينهم من ينحدر من أصل سجلماسة ، مثل الفقيه محمد الفلالي إمام مسجد البيضان بمدينة (كوكو) على نهر النيجر ، والحاج محمد بن سعيد السجلماسي أحد كبار التجار[4] .

ويمكن الإشارة إلى تأثير ثقافي مغربي على سكان السودان الغربي يتمثل في ترسيخ الكثير من العادات الإسلامية في المجتمع السوداني ، ويحدثنا ابن بطوطة في رحلته «... فمن أفعال السودان الحسنة قلة الظلم... ومنها شمول الأمن في

---

(1) حسن تاوشيخت ، سجلماسة كمحطة للتواصل الحضاري بين ضفتي الصحراء ، بحث مقدم إلى ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الأفريقية على جانبي الصحراء ، أعمال ندوة التواصل تطوان المغرب ، مراجعة وتقديم عبد الحميد الهرامة ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس 1999م ص 231 .

(2) ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، ص 200.

(3) ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، ص 201.

(4) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص 695 .

بلادهم... ومنها عدم تعرضهم لأموال من يموت ببلادهم من البيضان... ومنها مواظبتهم على الصلوات والتزامهم لها في الجماعات وضربهم أولادهم عليها... ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة. . . ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم...»[1].

وهكذا فقد كانت سجلماسة مثال المدينة الإسلامية التي قدمت الكثير للحضارة العربية الإسلامية، وأسهمت بشكل فعال في نشر المؤثرات الحضارية العربية الإسلامية في بلاد السودان الغربي.

رابعاً - مراكز انتشار الثقافة العربية الإسلامية بالسودان الغربي:

أدى التواصل الحضاري بين الشمال الأفريقي وبين السودان الغربي لا سيما بعد القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، إلى قيام مراكز ثقافية أدت أدواراً مهمة فيما وراء الصحراء الكبرى، وأصبحت منارات علمية زاهرة يؤمها العلماء والطلاب من كل حدب وصوب، وقد شهدت هذه المراكز الثقافية خاصة في فترة ما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين نهضة ثقافية فكرية متأثرة في ذلك بالنهضة الثقافية التي كانت سائدة في مناطق ومدن الشمال الأفريقي، مثل فاس ومراكش وجبل نفوسة وطرابلس والقاهرة وتونس والقيروان وسجلماسة وتوات وشنقيط وغيرها، وكان من أبرز المراكز الثقافية في السودان الغربي وفي طليعتها تنبكت وجني ونياني، ورغم أن هذه المراكز قد قامت في بادي الأمر على هيئة مراكز تجارية فإنها لعبت أيضاً أدواراً ثقافية وفكرية ومن هذه المراكز:

(1) المصدر السابق، ص 690.

1.تنبكت:

مدينة تنبكت* مدينة عربيـة إسـلامية منـذ نشـأتها، مؤسسـوها هـم الـطوارق[1] إحدى قبائل صنهاجـة الملثمـين التي تنحـدر إلـى أصـول عربيـة، حيث هـاجرت هـذه القبائل إلى مناطق السودان الغربي منذُ ما قبل الإسلام.

نشـأت تنبكـت في أواخـر القـرن الخامس الـهجري[2] وبلغـت ذروة الازدهـار الاقتصادي في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميـلادي، الـذي عـرف بـالعصر الذهبي لتلك المدينة[3].

وكانت تنبكـت مدينـة إسـلامية منـذ نشـأتها «... مـا دنسـتها عبـادة الأوثـان ولا سـجد علـى أديمـها قـط لغـير الرحمـن، مـأوى العلمــاء والعـابدين ومـألف الأوليـاء والزاهدين، وملتقى الفلك السيار، فجعلوها خزانة لمتاعهم وزرعهم إلـى أن صـارت مسلكاً للسالكين في ذهابهم ورجوعهم»[4].

تبين هذه الإشارة التاريخية مدى ما كانت تتمتـع بـه تنبكـت مـن أهميـة، حيث أنـها مدينـة إسـلامية منـذُ نشـأتها، وهـي موطـن لعبـاد الله الصـالحين ومركـز للتجـار العابرين لهذه المنطقة مـن أجـل التجـارة، وقـد طبقـت شـهرتها الآفـاق، ولعبـت دوراً

---

* تن اسم مكان، وبكتو اسم امرأة، كان قـد عـهد إليـها الطـوارق بحراسـة بئر كـانت في ذلـك المكـان اتخذه الطوارق مركـزاً للانتجاع بمواشيهم في فصـل الجفـاف بالسـودان، حـوال القـرن التاسـع ميلادي، حيث حفروا فيه بئراً ثم تكاثرت الآبار بعد ذلك، وصار التجار يلتقون في ذلك المكان ثم تحول المكان إلى سوق للتبادل التجاري بـين تجـار الشـمال الأفريقي والسـودان الغربـي. السـعدي، تاريخ السودان، ص 23، وقد اتفقت المصادر السودانية على كتابتها باسم (تنبكـت) كمـا جـاء عنـد كل مـن السعدي في تـاريخ السـوذان، ومحمـود كعـت في تـاريخ الفتـاش، وأحمـد بابـا في نيـل الابتهاج، وأما المراجع الحديثة تكتبها (تنبكتو)، باستثناء الهادي الدالي الذي يكتبها بتنبكت.

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 20.

(2) المصدر السابق، ص 20.

(3) نعيم قداح، أفريقيا الغربية، ص 55، الهادي الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي، ص 308.

(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 21.

مهماً في نشر الإسلام والثقافة العربية، كما تحدث السعدي عن التدفق العربي المبكر إلى مدينة تنبكت بقوله: «... كان التسوق قبل في بلد بير وإليه يرد الرفاق من الآفاق سكن فيه الأخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل بلد من أهل مصر ووجل وفزان وغدامس وتوات ودرعه وتفلالـه وفاس وسوس وبيط إلى غير ذلك، ثم انتقل الجميع إلى تنبكت قليلاً قليلاً حتى استكملوا فيه وزيادة مع جميع قبائل صنهاجة بأجناسها...»[1].

ووصفها محمود كعت بقوله: «... لا نظير لها في البلدان من بلاد السودان إلى أقصى بلاد المغرب مروءةً وحرية وتعففاً وصيانة وحفظ العرض ورأفة بالمساكين والغرباء وتلطفاً بطلبة العلم وإعانتهم»[2].

ولذلك اتخذ منها رجال العلم والفكر والأثرياء موطناً لهم بعد أن جاؤوا إليها من أماكن متعددة الأمر الذي جعلها تحمل طابعاً متميزاً لاتصالها بثقافات متنوعة.

فقد جمعت تنبكت بين النشاط التجاري والنشاط الثقافي، إذ أنها كانت ملتقى للطرق التجارية التي أنعشت الحياة الاقتصادية بها، فازدهرت فيها الحياة الثقافية تبعاً للحالة الاقتصادية المتيسرة، فأصبحت تنبكت بذلك مركزاً تجارياً مرموقاً وسوقاً مشهوراً ذاع صيتها حتى أطبق على بلاد أوروبا[3].

وقد شهدت تنبكت ازدهاراً ثقافياً كبيراً وأصبحت قبلة للعلماء والوافدين من مراكز الثقافة العربية الإسلامية الذين جلسوا للتدريس بمدارسها التي بلغت مائة وخمسين مدرسة حتى نهاية القرن العاشر الهجري[4].

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 21.

(2) كعت، تاريخ الفتاش، ص 179.

(3) بوفيل، المرجع السابق، ص 160 ـ 162.

(4) كعت، تاريخ الفتاش، ص 180.

إضافة إلى أن مساجدها كانت بمثابة اللبنة الأساسية في بناء مجتمعها الإسلامي ولكونها كانت مركزاً للعبادة والتثقيف والتعليم، فقد أدت دوراً مهماً في نشر مبادئ العقيدة الإسلامية وعلوم القرآن[1].

ومما لا شك فيه أن الجاليات العربية التي عاشت فيها قد أثرت تأثيراً كبيراً في الحياة الثقافية[2]. وذلك بفعل احتكاكهم بالسكان المحليين، ويحدثنا الحسن الوزان الذي زار تنبكت في بداية القرن السادس عشر الميلادي عن ذلك الدور الثقافي والعلمي بقوله: «... وفي تنبكتو عدد كبير من القضاة والفقهاء والأئمة يدفع إليهم جميعاً مرتباً حسناً ويعظم الأدباء كثيرة وتباع أيضاً مخطوطات كثيرةٌ تأتي من بلاد البربر وتدر أرباحاً تفوق سائر البضائع»[3].

فقد نشأت تنبكت في هذا الجو الديني والروحي فأصبحت محطاً للأنظار من كل حدب وصوب، وخاصة العاكفين على الدين ونشر الثقافة واللغة العربية التي أصبحت اللغة السائدة فيها[4] ووجد أهالي السودان الغربي في تنبكت ضالتهم المنشودة أو المدينة الفاضلة، فأخذوا يتوافدون عليها، حيث وجدوا المساواة في ظل الدين الحنيف، فتوحدت القبائل والجماعات وساد العدل والسلام جو المعاملات في المدينة، وقد تأثر أهلها بما تعلموه من ثقافة دينية ولغة عربية منذ نشأت المدينة في القرن الحادي عشر الميلادي[5] فأصبحت لها شهرةٌ ثقافية لا تضاهيها مدينة سودانية أخرى، وكان لازدهار التجارة بها، وتنوع نطاقها، والاهتمام الكبير بشق الطرق وتأمينها بالحراس وحفر الآبار أثر كبير في تسهيل نقل المتاجر وتشجيع الناس على السفر، الأمر الذي شجع الرحالة على مرافقة القوافل التجارية، فزارها ابن بطوطة وطاف بها

---

(1) يوسف الكتاني، مدرسة الإمام البخاري في المغرب، بيروت، دار اللسان العربي، د.ت، ص 474.

(2) أحمد الفيتوري، المرجع السابق، ص 252.

(3) الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 167.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 298.

(5) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 690، الناصري، المصدر السابق، ص 3.

ووصفها هي وغيرها من بلاد السودان الغربي، وأشاد بمركزها الثقافي ومكانتها العلمية[1].

ومن المراكز العلمية الهامة بتنبكت (جامع سنكري)* الذي بات جامعة إسلامية راقية، على نمط جامعة الأزهر في مصر، وقد استقدم لها منسا موسى العلماء من الخارج واشترى لمكتباتها الكتب والمخطوطات وأغدق على علمائها وطلابها الأموال ورعاهم، فازدهرت العلوم والثقافة فيها[2] وقد تحول هذا المسجد (الجامع) بعد مدة إلى جامعة للدراسة والبحوث العلمية والدينية، وعن بناء هذا الجامع يتحدث السعدي قائلاً: «... أما مسجد سنكري فقد بنته امرأة واحدة أغلالبّة ذات مال كثير. . . أمراء واحدة أغلالية ذات مال كثيرة في أفعال البر...»[3] وقد ذاع صيت هذه الجامعة بما بلغته من مستوى علمي رفيع، وجعلت من تنبكت عاصمة من عواصم العلم والآداب في بلاد السودان الغربي، وكل ذلك راجع إلى المؤثرات العربية الإسلامية والتي يرجع إليها الفضل في دعم نفوذ الإسلام في تلك المناطق، مما أدى

(1) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 694.

* جامع سنكري يقع في الجهة الشمالية من تنبكت، وما زال هذا الجامع صالحاً للعبادة والتعليم رغم أفول نجم تنبكت الحضاري، وقد شاهد الباحث أثناء زيارته لتنبكت هذا الجامع وصلى فيه، وذلك في صيف 1999ف.

(2) ابن خلدون، العبر، ج6، ص 201، السعدي، تاريخ السودان، ص 7.

(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 62، والمقصود بالبناء هنا توفير التمويل المادي، أما القيام بتشييد البناء فقد قام به بعض المهندسين المعماريين المغاربة، أما عن بناء السيدات المسلمات الغنيات للمساجد والمدارس في تاريخ الإسلام فهي سنة مرعية منذ القدم، فجامعة القرويين بنتها سنة 245 هـ أول الأمر السيدة فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهري، كما أن عدداً من الخاتونات هن اللاتي بنين عدداً من المساجد والمدارس في الموصل وبغداد خلال العهدين العباسي والأيوبي بشكل خاص، وقد انتقلت هذه العادة إلى بلاد السودان الغربي، كأثر من الآثار الثقافية التي شهدتها المنطقة.

انظر عبد القادر زيادية، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي، دراسات ونصوص، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب 1989م، ص 65.

إلى انتشار الإسلام واللغة العربية في نطاق واسع، ويمكن أن نستنتج من كتب الطبقات والتراجم، ومن تتبع الأسانيد العلمية أن أغلب فقهاء تنبكت، كانوا من أصل عربي شنقيطي[1] وهذا ما يفسر لجوء فقهاء تنبكت إلى ولاته عند خوفهم بطش (سني علي) ملك السنغاي عند دخوله تنبكت سنة 873 هـ[2]، ولم تشهد تنبكت مكانتها العلمية إلا بعد عودة الفقهاء إليها من ولاته في عهد الأسكيين الذين فتحوا الباب على مصراعيه أمام الفقهاء العرب الصنهاجيين[3]، وقد اشتهرت تنبكت بحركتها الثقافية على النمط الإسلامي، وذلك طيلة أيام دولتي مالي وسنغاي الإسلاميتين، ورغم كثرة مساجدها إلا أن جامعة سنكري، كما يقول الشيخ الأمين عوض الله: «فإن جامعة سنكري... كانت مركز إشعاع فكري بعيد المدى ومنارة للعلم في بلاد السودان لا تقل في مستواها عن قرطبة أو الأزهر وجامعة القرويين بفاس وكان الأساتذة الزائرون يحضرون إليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي»[4] وقد استقبلت جامعة سنكري أفواجاً من الطلاب، من مدينة (جني) وغيرها، واستقبلت أيضاً عدد من فقهاء قرى السودان الغربي الذين كانوا يستبدلون عمامة الفقيه بجلباب التلميذ وبفضل مؤلفات هؤلاء الفقهاء والعلماء ما زالت لدينا عن الحياة العقلية في المنطقة صورة أقرب إلى التكامل[5] وهذا يعكس المستوى العلمي الرفيع الذي بلغته جامعة سنكري قياساً بباقي المراكز الثقافية الأخرى بالسودان الغربي، ولعل أهم ما يميز جامعة سنكري أنها شابهت قريناتها من المراكز العلمية

(1) ددود ولد عبد الله، دور الشناقطة في نشر الثقافة العربية الإسلامية بغرب أفريقيا، حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، أنواكشوط، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1989م، ص 23.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 65.

(3) المصدر السابق، ص 64، ددود ولد عبد الله، المرجع السابق، ص 23.

(4) الشيخ الأمين عوض الله، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطتين مالي وسنغاي، ص 25.

(5) السعدي، تاريخ السودان، ص 61، ددود ولد عبد الله، المرجع السابق، ص 24.

العربية الإسلامية في الشمال الأفريقي والمشرق العربي في مواكبتها للعلم وانتقال العلماء، مما جعلها تواصل مسيرتها العلمية، وقد فاقت شهرتها شهرة جامعة القرويين والزيتونة في فاس وتونس، وقد أصبح هذا الجامع بمثابة جامعة علمية عظيمة تشع منها الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي[1] وقد احتفظت تنبكت بهذا المركز العلمي والثقافي الهام طيلة فترة دولتي مالي وسنغاي[2]. ومن المساجد الأخرى بتنبكت مسجد (الونكريين) أو (الونقريين) الذي أمر بتشييده منسا موسى وكلف بذلك المهندس إبراهيم الساحلي ولم يبق أثر لهذا المسجد اليوم لأن القاضي العاقب 1507 ـ 1583م، هدمه وشيد مكانه مسجداً آخر أكثر إتساعاً ولا تزال آثاره باقية حتى الآن[3]. ولقد أورد أحمد بابير الأرواني في مخطوطته عبارة تنمّ عما كان لتنبكت من مكانة جليلة لدى أهالي السودان، إذ قال: «مقام تنبكت من السودان مقام الوجه من الإنسان»[4]. وكان علماء تنبكت خلال رحلاتهم للحج كثيري الزيارات لجامع الزيتونة وفاس والأزهر، وإنَّ علماء فاس وتلمسان كانوا يشاورونهم في المسائل العلمية والقضائية، كما اشتهرت عالمياً ببيع المخطوطات المغربية والتي أصبح التجار عن طريقها يتحصلون أرباحاً هائلة فاقت كثيراً ما يتحصلون عليه من السلع الأخرى وهذا ما أكده الحسن الوزان بقوله: «... يباع الكثير من هذه الكتب المخطوطة التي تأتي من بلاد البربر، ويجنى من هذا البيع ربح يفوق كل بقية السلع»[5]. ويتحدث السعدي عن العلماء الذين توافدوا على تنبكت للتدريس

---

(1) عبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، ص 150.

(2) الهادي الدالي، التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء، الشركة العامة للورق والطباعة، مطابع الوحدة العربية، الزاوية، 2000 ف، ص 150.

(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 57، عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي، ص 103.

(4) الأرواني، السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية، مخطوط رقم 16، مركز أحمد بابا، تنبكتو مالي ورقة 9.

(5) الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 167.

بمعاهدها، وذكر أنها كانت سوقاً للكتب تنسخ فيها المخطوطات وتوزع في البلاد الأخرى، تحدث عن علمائها من أمثال محمد بن محمود بن أبي بكر الذي اقتنى نفائس الكتب، وما جاء لبابه طالب كتب إلا وأعطاه إيَّاها ودون معرفة سابقة وكذلك أحمد بابا وغيرهما[1] وقد وصل هؤلاء العلماء إلى درجة لا تقل عن مستوى علماء المسلمين في الأقطار الأخرى، حيث كان التعليم في جامعة سنكري من النوع العالي، حيث تدرس المواد في شكل اختصاصات وتتناول بتفصيلات واسعة، وتناقش المسائل فيها على مستوى أمهات المؤلفات الكبيرة التي عرفها المسلمون حتى ذلك الحين[2] وكان لا يجلس للتعليم في هذا النوع إلا أساتذة متضلعون، وقد أحاطوا بكل جزئيات المواضيع التي يدرسونها وكان بينهم مغاربة، ومما يدل على تضلعهم أن أمهات الكتب التي كانت تدرس في المشرق والمغرب العربيين، كانت تدرس في السودان الغربي خلال هذه الفترة والدليل على ذلك ما ورد في ترجمة العلماء عند كل من أحمد بابا في نيل الابتهاج وعبد الرحمن السعدي في تاريخ السودان والبرتيلي في فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، وما أورده السعدي من أن الفقيه عبد الرحمن التميمي عندما ورد على السودان وجلس للتدريس في الجامع، ولكنه ما لبث أن أدرك أن السودانيين حواليه أكثر منه تضلعاً فرجع إلى فاس ليزداد تخصصاً حتى يستطيع أن يتصدر للتدريس بالسودان[3].

وقد دعي بعض علماء السودانيين للتدريس في جامعة الأزهر ومن أشهرهم الفقيه المفسر ابن عبد الرحيم[4].

---

(1) مجهول، ذكر فقهاء تنبكت، مخطوط رقم 42، مركز أحمد بابا تنبكتو، مالي، ورقة 2، السعدي، تاريخ السودان، ص 51 ـ 62، أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 600.

(2) عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي، ص 144.

(3) مجهول، ذكر فقهاء تنبكت، مخطوط، ورقة 1، السعدي، تاريخ السودان، ص 51.

(4) عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي، ص 138.

وأيضاً دعي العلامة أحمد بابا التنبكتي للتدريس بجامع الشرفاء بمراكش، كما ذكر ذلك بنفسه وحكاه غيره، وذلك بعد خروجه من حكم الأسر حيث يقول: «... جلست بعد الإباءة بجامع الشرفاء بمراكش وهو من أنوه جوامعها... وازدحم عليّ الخلق وأعيان طلبتها، بل قرأ عليّ قضاتها ولازموني كقاضي الجماعة بفاس العلامة أبي القاسم أبي النعيم الغساني، وهو كبير ينيف على ستين، ومفتي مراكش الرجراجي وغيرهم... وأفتيت فيها لفظاً وكتابة بحيث لا توجه فيها الفتوى غالباً إلا إلي، وعينت لها مراراً، فابتهلت إلى الله أن يصرفها عني، ... واشتهر اسمي في البلاد من السوس الأقصى إلى بجاية والجزائر وغيرها»(1) ومن المعلوم أن دراسة أحمد بابا كانت كلها على يد علماء تنبكت.

وبهذا كانت تنبكت بحق حاضرة للعلم والثقافة، وعلى صلة قوية بغيرها من الحواضر الثقافية الأخرى من العالم العربي والإسلامي.

2.جني:

تقع مدينة جني إلى الجنوب الغربيّ من مدينة تنبكت، وقد ورد اختلاف حول تاريخ تأسيسها، إلا أن السعدي يورد أنها تأسست في القرن الثاني الهجري(2).

ويروي السعدي أن جني لم تكن مدينة إسلامية منذُ نشأتها، مثل تنبكت، بل إن الإسلام قد دخل إليها في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي في عهد ملكها (كنبر) الذي هدم قصره وبنى في مكانه مسجداً(3).

وعن قصة إسلام (كنبر) ملك جني يقول السعدي: «... لما عزم على الدخول في الإسلام أمر بحشد العلماء الذين كانوا في أرض المدينة فجمع منهم أربعة آلاف ومائتيْ عالمٍ، فأسلم على أيديهم، وأمرهم أن يدعوا الله تعالى بثلاث دعوات لمدينته

(1) أبي عبد الله البرتلي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني، ومحمد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981م، ص 34-35.
(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 12.
(3) المصدر السابق، ص 13، الهادي الدالي، التاريخ الحضاري، ص 112.

تلك أن كل من هرب إليها من وطنه ضيقاً وعسراً أن يبدلها الله له سعة ويسراً حتى ينسى وطنه، وأن يعمرها بغير أهلها، أكثر من أهلها، وأن يسلب الصبر من الواردين إليها للتجارة في ذات أيديهم لكي يملوا منها فيبيعوها لأهلها بناقص الثمن فيربحون بها الفقراء. والفاتحة على هذه الدعوات الثلاث فكانت مقبولة»[1].

ورغم أن الرقم الوارد في رواية السعدي مبالغ فيه وغير دقيق، إلا أنه يؤكد لنا وجود أعداد كبيرة من الدعاة العرب المسلمين الذين أسهموا في الازدهار الثقافي والحضاري والعلمي، إضافة إلى نشرهم العقيدة الإسلامية في هذه الديار منذُ وقت مبكر، ويعتقد أن مكانة جني الثقافية تأتي في المرتبة الثانية بعد تنبكت[2].

وكانت لجني اتصالات واسعة مع المراكز الثقافية العربية الإسلامية، ولا سيما الواقعة في الشمال الأفريقي، كما كان الوعي الثقافي فيها ربما لا يقل عن تنبكت والدليل على ذلك هو ارتفاع أسعار الكتب بها[3].

هكذا كانت الحياة العلمية والثقافية بجني في ذلك العهد مزدهرة إذ هي «... مدينة عظيمة ميمونة مباركة ذات سعة وبركة ورحمة»[4].

ونتيجة لهذه الصفات التي اتصفت بها جني فقد وفد عليها طلاب العلم والفقهاء والمعلمون من أماكن شتى[5]، منهم العالم والفقيه (مور مع كنكي)، دخل جني في أوساط القرن التاسع الهجري، وعمل بالتدريس فسارع إليه طلاب العلم والتفوا حوله للاستفادة من علمه، حيث كان يقوم بالتدريس من نصف الليل إلى صلاة الفجر ومن بعد صلاة الظهر حتى صلاة العصر[6].

---

(1) المصدر السابق، ص 12.

(2) عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي، ص 106.

(3) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص 215.

(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 11.

(5) مجهول، نبذة من تاريخ جني، مخطوط، رقم 35، مركز أحمد بابا، تنبكت، مالي، ورقة 3.

(6) السعدي، تاريخ السودان، ص 16.

ومن الفقهاء والعلماء الذين توافدوا على جني الفقيه محمد ساقوا الونكري، كان فقيهاً عالماً سكن جني في أواخر القرن التاسع الهجري[1].

ومن قضاة جني القاضي محمود بن عمر بن أحمد أقيت الذي ولاه الأسكيا الحاج محمد قضاء جني بعد رجوعه من الحج، وهو أول قاضٍ يفصل بين الناس بالشرع، حيث كان الناس قبل ذلك يحتكمونَ عند خطيب الجامع بالصلح[2].

وكذلك القاضي العباس كب الجنوبي بلداً والعكري أصلاً، كان فقيهاً عالماً جليلاً، وكذلك من الذين تولوا القضاء بجني القاضي محمود بن أبي بكر بيغغ، تولى القضاء بعد وفاة القاضي عباس كب، في عام 959 هـ على يد الأسكيا إسحاق، والقاضي عمر ترف الذي كان خطيباً ثم صار إماماً للجامع ثم قاضياً، ثم سافر إلى الحج وتوفي هناك، وعند سفره ترك القاضي (مودب بكر تروري) على القضاء، وهو من أبناء السلاطين، وكان زاهداً في السلطة محباً للعلم وخادماً له[3].

كذلك القاضي (محمد بن كنات)، كان فقيها عالماً، تولى القضاء بعد وفاة القاضي بكر تروري[4]، هذا وقد تعرضت جنى لمؤثرات الثقافة العربية الإسلامية مثل باقي حواضر السودان الغربي، فكانت لديها، اتصالات واسعة مع الأقطار الإسلامية المعاصرة لها، وتقاطرت عليها وفود العلماء والطلاب من الشمال الأفريقي ومصر والحجاز، وكذلك من مناطق السودان الغربي والأوسط من حوض السنغال والنيجر وإمارات الهوسا وبرنو وكانم لتلقى العلم وزيادة المعرفة[5]، وكان دورها الثقافي بالنسبة لأهالي السودان الغربي، والأوسط شبيهاً بما قامت به المراكز العلمية في

---

(1) المصدر السابق، ص 16.

(2) المصدر السابق، ص 19.

(3) المصدر السابق، ص 19.

(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 19.

(5) مجهول، نبذة من تاريخ جني، مخطوط، ورقة 1 ـ 5.

الشمال الأفريقي من خدمة جليلة للإسلام والمسلمين ونشر الثقافة العربية والإسلامية في غرب أفريقيا .

3ـنياني (مالي):ـ

تقع مدينة نياني في متلقى نهر النيجر بفرعه سنكارن «SANKARN» وقد أيدت الحفريات الأثرية التي أجريت في السنوات الأخيرة هذا التحديد[1] .

ويقال أن ماري جاطة نقل حوالي عام 1240م، عاصمته من حارب في إقليم (كانجابا) إلى مدينة جديدة أنشأها على نهر النيجر، وعرفت باسم نياني (NIANI) أو مالي[2]، ويقال: إنَّ نياني معناها المدينة الآمنة . وأول من أشار إلى نياني أو ينى وهي عاصمة مملكة مالي، على حد علمنا هو ابن فضل الله العمري . الذي قال : «. . وإقليم مالي الذي به قاعدة الملك مدينة ينى»[3]، وتحدث أيضاً عن انتشار المؤثرات العربية الإسلامية بهذه المدينة بقوله : «... ونشأ بها الإسلام ونطق داعي الأذان»[4] .

وقد ازدهرت عاصمة مملكة مالي ازدهاراً عظيماً وخاصة في عهد ملوكها العظام (مسنا موسى ومسنا سليمان) وقد زارها ابن بطوطة وأشار إلى أنها كانت حافلة بالعلماء والفقهاء وخاصة الذين ينحدرون من أصول عربية ولقي بها القضاة والخطباء، وقال إن هؤلاء جميعاً يتمتعون بمكانة سامية لا تدانى[5] .

---

(1) حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص 221.

(2) ابراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 42.

(3) العمري، المصدر السابق، ص 34.

(4) المصدر السابق، ص 35.

(5) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 681ـ 690.

كما زارها أيضاً، الحسن الوزان في مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ووصفها، بأنها كانت مسكناً للملك والحاشية وبها مساجد كثيرة وأئمة يعلمون القرآن الكريم وعلوم الدين؛ وأطلق اسمها على سائر المملكة[1].

ويبدو أن نياني قد لعبت دوراً ثقافياً لا يقل عما لعبته غيرها من حواضر الثقافة العربية الإسلامية، بالمنطقة.

(1) الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 164.

الفصل الرابع

أهم مظاهر تأثير الشمال الأفريقي في الحياة الفكرية على السودان الغربي

1 – انتشار اللغة العربية.

2 – مراجل التعليم وبروز العلماء.

3 – رحلات الحج.

كانت لبلاد السودان الغربي صلة بالشمال الأفريقي منذُ فترة ما قبل الإسلام حيث كان تجار تلك المناطق يترددون عليها، ويجدون فيها متجراً حسناً، كما كان البدو يجوبون الصحراء ويتوغلون في أرجاء المنطقة بحثاً عن الكلأ والاستقرار وقد اتضحت معالم التأثيرات الثقافية العربية الإسلامية في المنطقة منذُ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وضربت اللغة العربية بجذور عميقة بعد تدفق هجرات قبائل بني هلال وبني سليم إلى شمال أفريقيا، ومنذ ذلك الوقت أصبح الشمال الأفريقي مصدر إشعاع رئيسي لمؤثرات الثقافة العربية الإسلامية الوافدة على السودان الغربي، وقد عزز انسياب مظاهر الثقافة العربية الإسلامية إلى السودان الغربي بطريقة سلمية عن طريق الهجرات المتعاقبة ونشاطات العناصر العربية من البدو والتجار والفقهاء ورجال الطرق الصوفية وغيرها، وبانتشار الإسلام بين أهالي السودان الغربي وتوطيد دعائمه في ظل مملكتي مالي وسنغاي الإسلاميتين، غلبت مظاهر الثقافة العربية الإسلامية على تلك البقاع.

وكانت لرحلات الحجيج السودانيين للأراضي المقدسة وللعلاقات التجارية الكبيرة التي ربطت المنطقة مع الشمال الأفريقي أثر كبير في دعم العلاقات الثقافية والفكرية بين هاتين المنطقتين، وبكثرة أفواج العرب المسلمين إلى المنطقة، وازدهار الحركة التجارية أدى إلى قيام العديد من المراكز والحواضر التي صارت مراكز ثقافية زاهرة للنشاط الفكري والثقافي والعلمي، وصارت هذه المراكز مستودعاً كبيراً للعلماء ولإنتاجهم الفكري والعلمي ومجالاً واسعاً للثقافة العربية الإسلامية في أطراف القارة الأفريقية وانتشرت بفعل ذلك مظاهر الثقافة العربية الإسلامية من انتشار الإسلام واللغة العربية، وصار التعليم على النمط العربي الإسلامي المعروف

آنذاك، وأصبحت الفنون المعمارية على النمط العربي الإسلامي ولم تقتصر التأثيرات العربية الإسلامية على الثقافة والعلوم بل وقعت تأثيرات مهمة في أنماط الحياة الاجتماعية والسياسية.

1 - انتشار اللغة العربية:

من الواضح أن الدعوة الإسلامية في السودان الغربي كما في غيرها من المناطق الإسلامية ارتبطت باللغة العربية لغة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، ويعد تنشيط الحركة التجارية من العوامل الرئيسية التي أسهمت في اتساع رقعة الإسلام واللغة العربية كما سبق ذكره، وقد احترم مسلمو تلك البقاع اللغة العربية احتراماً يقرب من التقديس لأنها لغة القرآن الكريم بها يؤدي المسلم صلاته ويتلو القرآن الكريم وبواسطتها يلم بعلوم الدين[1].

ومن العوامل الأخرى التي ساعدت على انتشار اللغة العربية إضافة إلى الجانب الديني هي إدعاء معظم أهالي وحكام السودان الغربي كما هو حال معظم المجتمعات الأفريقية المسلمة، أنهم ينتسبون إلى أصول عربية شريفة[2].

وكذلك ساعدت على انتشار اللغة العربية هجرات بعض القبائل العربية إلى تلك البلاد واستقرارهم بها ومن العوامل التي أدت أيضاً إلى انتشار اللغة العربية أن أغلب الأئمة المسلمين أفتوا بعدم جواز ترجمة القرآن الكريم، وعدم جواز قراءته بغير اللغة العربية ووجوب أداء الصلاة بها، فكان لابد لمن يريد معرفة أحكام الدين وأسراره أن يتعلم اللغة العربية ويتقنها.

وهكذا وجدت اللغة العربية في هذه المنطقة تربة خصبة ضربت فيها بجذورها وقد لاحظ الرحالة البرتغالي كادامستو (Cadamosto) الذي زار المنطقة أنه يوجد

(1) فضل كلود الدكو، المرجع السابق، ص 150.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص4، القلقشندي، صبح الأعشى ج8 مصدر سابق، ص117، الهادي الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي، ص90، فضل كلود الدكو، المرجع السابق، ص94.

بينهم بعض رجال الدين من الشعب الذي يسمى الصنهاجة أو العرب الذين كانوا إضافة إلى دورهم الثقافي مستشارين لملوك السودان في تنفيذ أحكام الشرع[1].

وأورد بعض الرحالة الذين وصلوا إلى المنطقة في مستهل القرن العاشر الهجري/ السادس الميلادي الملاحظة نفسها حول مملكة الوولوف بالسنغال ولاحظ أن الملك والطبقة الحاكمة كانوا من المسلمين وبينهم فئة من العرب البيض المسلمين يعلمونهم أمور دينهم، وهم يجيدون القراءة والكتابة فضلاً عن اعتناق بعض الأهالي عقيدة الإسلام في حين أن أغلبهم وثنيون[2].

ويعقد إبراهيم طرخان مقارنة بين وضع اللغة العربية في السودان الغربي ووضع اللغة اللاتينية في أوربا بقوله: «ويشبه هذا ما كان عليه وضع اللغة اللاتينية عند الملوك الجرمان والشماليين وشعوبهم، فهم يتكلمون بلغاتهم الأصلية الفرنجية أو النورماندية أو الوندلية أو القوطية أو السكسونية، بجانب اللغة اللاتينية ولكن العبادة والحكومة والثقافة والأدب والقوانين باللغة اللاتينية»[3].

كما تأثرت طريقة الكتابة عند أهالي السودان الغربي بما هو معروف عند المغاربة في الهندسة ونقوشها والخط وإعجام الحروف وترتيبها ويظهر ذلك فيما تحفل به جدران المساجد بالمنطقة من خطوط مختلفة، وما تتحلى به من رسوم وآيات قرآنية حيث أن النقوش التي وجدت بالمساجد كان يستخدم فيها الخط الكوفي والخطوط الهندسية في كتابة الآيات القرآنية وهذا أثر مغربي واضح[4].

وقد وصف القلقشندي ذلك بقوله: «... وكتابتهم بالخط العربي على طريقة المغاربة»[5].

---

(1) ددود ولد عبد الله، المرجع السابق، ص 25.

(2) ددود ولد عبد الله، المرجع السابق، ص 25.

(3) إبراهيم طرخان، الإسلام واللغة العربية في السودان الغربي والأوسط، القاهرة 1969م ص71.

(4) شوقي عطا الله الجمل، دور العرب الحضاري في أفريقيا، ص 151 - 152.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 298.

واتضحت هذه الطريقة في النصوص العربية المصورة والكتب المنشورة مثل تاريخ الفتاش وتاريخ السودان وغيرها. ومن خصائص هذه الكتابة أن نقطة حرف الفاء توضع أسفل الحرف هكذا (ف) كما يستبدل بنقطتي حرف القاف نقطة واحدة توضع فوق الحرف هكذا (ف) وهذا بجانب رسم الحروف الذي يختلف قليلاً عن الرسم المعروف في بعض مقاطعه ويقرب مما نعرفه بالخط الكوفي[1].

هذا وقد تركت اللغة العربية أثراً واضحاً في اللغات المحلية الأفريقية بالسودان الغربي[2]، ويقول هوبير دايشان المستشرق الفرنسي الشهير «ولم تكتف بلاد السودان الغربي بالدخول في الإسلام بل طبعت بطابع عربي بسبب انتشار اللغة العربية في تلك البلاد»[3].

وتأثير اللغة العربية في غيرها من اللغات ليس غريباً فهي قد تركت آثارها في لغات بلاد أوروبا الجنوبية وحتى الشمالية كما في اللغة الإيطالية والفرنسية والبرتغالية والاسبانية والإنجليزية بل إن لغة مالطا أصولها عربية[4].

حدث كل هذا التأثير رغم قصر أمد الإسلام واللغة العربية في أوربا من الناحية الزمنية* أما التأثير العربي في اللغات السودانية المحلية فهو واضح وأبرز لأنها ظلت متمسكة بالدين الإسلامي ومظاهر الحضارة العربية الإسلامية حتى اليوم، ولا يزال إلى اليوم العديد من الكلمات العربية مستخدمة في بلاد السودان الغربي في نواحي شتى من مظاهر الحياة فنجدها مستعملة في الحياة الدينية والعلمية وفي مجال القضاء والمكاتبات الرسمية وحتى في أسماء المدن والأعلام. ويورد إبراهيم

---

(1) إبراهيم طرخان، الإسلام واللغة العربية في السودان الغربي والأوسط، ص 72.

(2) المرجع السابق، ص 72.

(3) هوبير ديشان، ديانات في أفريقيا السوداء، ص 73.

(4) إبراهيم طرخان، الإسلام واللغة العربية في السودان الغربي والأوسط، ص 73.

* المقصود هنا الوجود العربي الإسلامي بالذات في جنوب أوروبا وجزر البحر المتوسط أما الوجود العربي الإسلامي في إسبانية فقد امتد إلى حوالي ثمانية قرون وذلك كما هو معروف.

طرخان أمثلة لذلك ففي الحياة الدينية توجد كلمات عربية مثل الله صارت (بالا) أو (يـالف) عنـد الولـوف والسـنغاي والفولانيـين والديـولا والبمبـارا والصوصـو (والحمدلله) صارت (هاند للايا) في السينغال وإمام صارت (اليمـام) أو (اليمـامي) في شتى بلاد غرب أفريقيا[1].

وفي مجال التعليم: استخدمت كلمة (قرأ) (يقرأ) وما يشـتق منـها في الدلالـة على معنى التعليم أو العلم وعلى معنى عالم أو أستاذ أو طالب أو مدرسة[2].

وفـي أسـماء الأعـلام أي محمـد: صـارت (أمـادو) أو (دودو) وأحمـد (أمـادو) ومحمود (مامودو)، ومحمد (مامدو) والأمـين (لامين) والحسـين (أوسينو) وأبـو بكـر (أبوكار) أو (بوبكر) أو (بوكارو) وإبراهيم: (براهيما) أو (بوهاريما) وعائيشـة (أيسـاتو) وحفصة (أفسا) وفاطمة (فاتيماتو) أو (فاتيماتا) أو (فاتو) وبنت (دمينت) وهكذا[3].

وقد أطلقت بعض أسماء المدن العربية الإسلامية على مدن في السودان الغربـي مثل الطائف (تايفا) فـي غينيـا وتـايف فـي السـنغال وغينيـا وكذلـك مصـر التي تنطـق ماسيرا في غينيا[4].

ومن المجالات التي استخدمت فيها اللغة العربية أيضاً مجال القضـاء والمكاتبـات الرسمية بين ملوك السودان الغربي والعالم الإسلامي الخارجي ووجدوا في الدواويـن المصرية زمن المماليك صيغاً عربية لمخاطبة الملوك الأفارقة المسلمين[5].

وكانت جميع المعارف في بلاد السودان الغربي في عصر دولتي مـالي وسـنغاي تدرس باللغة العربية غير أن التدريس في المساجد للعامة من الناس كانت تستعمل فيـه

---

(1) إبراهيم طرخان، الإسلام واللغة العربية في السودان الغربي والأوسط، ص 73.

(2) المرجع السابق، ص 74.

(3) ابراهيم طرخان، الإسلام واللغة العربية في السودان الغربي والأوسط، ص 74.

(4) المرجع السابق، ص 74، وهذا ما لاحظه الباحث أيضاً عند زيارته لمنطقـة السودان الغربي في صيف 1999 ف، حيث يوجد في باماكو عاصمة مالي الحالية شارع يطلق عليه اسم (شارع ماسيرا).

(5) ابراهيم طرخان، الإسلام واللغة العربية في السودان الغربي والأوسط، ص 75.

اللهجات المحلية أي أن الواعظ يتلو الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة باللغة العربية ثم يترجم للعامة ما يقوله بلغتهم المحلية، وقد لاحظ ابن بطوطة أثناء زيارته لمملكة مالي أنه كان هناك رجل يحمل رمحاً ويشرح للناس بلهجتهم كلام الخطيب[1]* ، ويؤكد نائب السلطان الناصر محمد بن قلاوون ذلك بقوله عن منسا موسى «وعاملني بأجمل الآداب، لكنه كان لا يتحدث إلا بترجمان مع إجادته التكلُّم باللسان العربي»[2] . وخير دليل على انتشار اللغة العربية في بلاد السودان الغربي ما وجد من شواهد القبور التي كتبت باللغة العربية فقد عثر على عدد كبير من المقابر في أطلال مدينة كومبي صالح عاصمة إمبراطورية غانا الإسلامية ومنها شاهد قبر سيدة مكتوب عليه: (اللهم ارحم فاطمة الطاهرة بنت سيدنا محمد بن سيد موسى) كما عثر في مدينة ساني في عام 1939 قرب جاو عاصمة إمبراطورية سنغاي على عدد من شواهد القبور الملكية يرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي[3] .

وهكذا كانت اللغة العربية في بلاد السودان الغربي لغة المراسلات بين الملوك والسلاطين في مالي وسنغاي وبين العالم العربي الإسلامي، وقد نجحت اللغة العربية في أن تكون لغة تخاطب بين الجماعات المختلفة اللسان كالطوارق والحوسا والفولاني وليوريا[4] . وذلك إلى جانب لغاتهم الأصلية وهكذا وجدت اللغة العربية تربة خصبة في بلاد السودان الغربي وظلت كذلك حتى عصر الاستعمار الأوربي الذي حارب وبكل شدة انتشار هذه اللغة.

---

(1) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 686.

* كما لاحظ الباحث ذلك في عدة مساجد في مالي وكانو، وذلك في أثناء الزيارة التي قام بها في شهر الصيف (يونيو) عام 1999 ف في إطار جمعه لمادة البحث.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 298.

(3) ابراهيم طرخان، الإسلام واللغة العربية في السودان الغربي والأوسط، ص 76 - 77 - 78.

(4) محمد المبروك يونس، تاريخ التطور السياسي للعلاقات العربية الأفريقية، ط2، 1991م، ص 23.

ثانياً - التعليم ومراحله:

حظي التعليم في السودان الغربي برعاية كبيرة من الحكام والأهالي نظراً لما كان يتيح لطالبه من مكانة مرموقة في المجتمع بعد تحصيله ولارتباطه بالمقومات الدينية ولما كان يتمتع به العالم من تقدير واحترام من الحكام وتقديس من العامة، وقد حظيت تنبكت وجامعتها بسمعة مدوية في العالم الإسلامي مثل السمعة التي حظيت بها فاس والقاهرة وتونس وقد توافد الطلبة على تنبكت من مراكش والجهات البعيدة السودانية وخاصة من مسينا وبلاد الفولنية لطلب العلم[1].

وكان الطلبة بعد المرحلة الأولية يدرسون الكتب على الأساتذة السودانيين ثم يذهب عدد منهم إلى المغرب الأقصى، حيث يحضرون مجالس العلم بفاس أو مراكش أو القيروان أو إلى مصر والحجاز للدراسة وأداء فريضة الحج، ويجتهد أولئك الطلبة في الحصول على إجازات مكتوبة من بعض أساتذتهم أو على إجازة علمية جزئية أو عامة، لأن ذلك يفتح لهم الأبواب للتدريس أو لشغل وظائف أخرى في بلادهم، وكما كان الشأن في المغرب، فإن الطلبة المغاربة كانوا يلقون المساعدة من تجار المدينة وأخيارها ويقدم لهم الطعام والكسوة من أموال الوقف المخصص لهم أو من صندوق المحكمة الشرعية[2].

وكان أغلب الأساتذة اللامعين من قبيلتي مسوفة وصنهاجة المغربيتين الصحراويتين أو من توات وفاس أما المعلمون فكان أغلبهم من أبناء السودان، وقد قال السعدي: «إنّ تنبكت ما أتتها العمارة إلا من المغرب سواء في الديانات أو المعاملات»[3].

والأمر المؤكد هو أن المدن الإسلامية في السودان الغربي التي كانت تضم المراكز الثقافية أصبحت من المراكز الشهيرة في العالم العربي التي تزدهر بالعلم والثقافة الإسلامية والمؤلفات والأساتذة[4].

---

(1) كعت، تاريخ الفتاش، ص 180.

(2) المصدر السابق، ص 179.

(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 21.

(4) عبد الرحمن شبل، تاريخ التربية الإسلامية، بيروت، دار الكشاف، د.ت، ص 274.

وقد تطلع العالم الإسلامي والأوربي لمعرفة الكثير من المراكز الثقافية فيما وراء الصحراء، وكانت أوربا تتلقف الأخبار منذُ إطلاعها على كتابات الرحالة العرب أمثال ابن بطوطة والحسن الوزان ومؤرخي السودان من تنبكت وجاو، وبدأت محاولات الرحالة الأوربيين من مختلف الأجناس لاستجلاء سر تنبكت التي ازدهرت الثقافة العربية الإسلامية فيها، وأصبحت تعد مركزاً مهماً إلى جانب المراكز العلمية في بلاد الإسلام الأخرى[1].

والواقع أنه منذ نهاية القرن السادس عشر لم يعد التعليم في الحواضر الإسلامية في السودان الغربي مقتصراً على الجوامع فقط، ومقصوراً على طبقة من الطلبة المحظوظين الذين كان أغلبهم ينتسب لعائلات العلماء نفسها، فبينما كنا نسمع أن طالب علم أخذ عن والده أو جده أو خاله أصبحنا نلاحظ اختلاف الأسماء وتنوعها، كما أخذت المدارس الأولية مكانتها الثابتة في توجيه الصبيان نحو المراحل الأعلى وبرزت أنواع من التعليم لها صلة بالصناعات وهو الذي كان يؤهل المتدرب على أن يبدع في قطاع من القطاعات وينال شهادة تخرج كان يحمل معها لقب (الفا) أو المعلم فتتاح له الفرصة لأن يدخل المعترك العلمي وأن يصبح أستاذاً في فنه[2].

ولعله من المفيد أن نعطي فكرة واضحة عن كل نوع من أنواع التعليم الذي شاع في المراكز الحضارية في السودان الغربي.

أ. التعليم الأولي:

هذا النوع من التعليم ينهض بمهمة تدريب الصبية على القراءة والكتابة فعندما يبلغ الطفل السابعة من العمر يعهد به والده إلى (السيد) بقصد تعليمه مبادئ القراءة

---

(1) أحمد فتوح عابدين، الحواضر الإسلامية في غرب أفريقيا في القرنين السادس والسابع عشر، رسالة دكتورا، غير منشور، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، 1989م، ص 256.

(2) كعت، تاريخ الفتاش، ص 180.

والكتابة العربية وتحفيظه النصف الأخير من القرآن، ويجتهد السيد في تلقين الصبي الصلوات الخمس ولكن أداءها لا يصبح إجبارياً إلا في سن العاشرة حيث يتعرض الصبي للضرب وأنواع العقاب إذا لم يواظب على تأديتها في أوقاتها ويكون الأب هو المسؤول عن مراقبة ولده في صلاتي المغرب والعشاء[1].

وكان التعليم في السودان الغربي يبدأ بتحفيظ الصبية القرآن الكريم في الكتاتيب والمساجد التي كانت منتشرة في المدن والقرى، وقد وصفهم ابن بطوطة بحرصهم الشديد على تعليم أبنائهم وتحفيظهم القرآن الكريم، حتى إنهم كانوا يقيدونهم في سلاسل حديد حتى يحفظونه[2].

ومع تحفيظهم القرآن الكريم كانوا يتعلمون مبادئ العبادات والتوحيد وقواعد اللغة العربية ويستعين الصبيان بالألواح الخشبية* بصبغة، حيث تزال كتابتها بالماء.

ويروي المؤرخ السوداني محمود كعت عن شيخه أن مدارس الصبيان كانت تتراوح بين 150 ـ 180 مكتباً ثم يذكر أنه حضر مكتب معلم اسمه علي تكريا بغد ظهر يوم الأربعاء وهو يوم دفع واجبات المعلم، ورأى الصبيان يأتون بخمس ودعات أو عشر حسب مقام أسرهم وقد تحصل ذلك المعلم يومها على 1725 ودعة، وكانت تلك الرسوم تدعى (حق الأربعاء)[3].

وعندما ينهي الصبي دراسته على هذا النحو ينتقل إلى مرحلة دراسة أعمق من الأولى.

---

(1) الهادي الدالي، التاريخ الحضاري، ص 163، أحمد فتوح، المرجع السابق، ص 257.
(2) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 690.
* ما زالت طريقة الألواح الخشبية موجودة إلى الآن تستعمل في تدريس القرآن الكريم في معظم مدن وقرى السودان الغربي والأوسط، وقد شاهد الباحث هذا عند زيارته لكل من مالي والنيجر وتشاد وكانو وذلك في صيف 1999م.
(3) كعت، تاريخ الفتاش، ص 180.

ب ـ التعليم المتوسط:

تنتهي مرحلة التعليم الأولى عادة بحفظ بعض المبادئ الفقهية ويختم القرآن الكريم كله أو جزء منه وتكون حلقة ختم (جزء الرحمن) مناسبة لتكريم الطفل حيث يخرج من الكتاب[1] مع أفراد عائلته وبقية الصبيان تتبعهم الموسيقا والزغاريد إلى البيت الذي يعد فيه الأب وجبة طعام[2].

ولقد كان التعليم بجميع أطواره يجري في المساجد أو الجوامع، وفي نهاية عهد دولة السنغاي بدأ ظهور الكتاتيب القرآنية، واتخذت العرصات والدور وبعض المخازن التجارية المهجورة كأماكن لاحتضان الصبيان المقبلين على التعليم الأولى واختصت الدور بتعليم البنات في الغالب فكانت الفقيهات يتولين العناية بهن وحتى بعض الصبيان الذكور[3]، وفي فصل الصيف كان المعلمون والشيوخ يأتون بالأطفال إلى الساحات الخارجية من المساجد، وقد ذكر عن الشيخ سيدي يحيى أنه كان يحفظ أطفاله وهو متكئ على صومعة الجامع، وإذا سقط المطر أدخلهم إلى المسجد[4]، وكان التعليم في القرى الصحراوية كاروان وولاته إجبارياً على الذكور والإناث من أبناء الزوايا، أو البيوتات العلمية، فإذا بلغ الصبي سن الخامسة يحفظ الحساب من الواحد إلى العشرة، فإن تعلم ذلك يدخل الكتاب الملحق عادة بالمسجد ويبدأ دروسه بتعلم الحروف وحفظ الآيات القرآنية، ثم ينتقل إلى تجويد القرآن، ثم يبدأ في دراسة المتن على شيخه[5]، وكان النظام المتبع في الصحراء هو المشارطة أي أن المعلم ينال

---

(1) كان ذلك الكتاب يضم 250 صبياً في المتوسط ويذكر كعت أن عدد الألواح في كتاب عرضه أحد الفقهاء كان يبلغ 123 لوحاً، كعت، تاريخ الفتاش، ص 180.

(2) أحمد فتوح عابدين، المرجع السابق، ص 258.

(3) أحمد بن أمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ط2 القاهرة، مطبعة السنة المحمدية 1958م، ص 218.

(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 51.

(5) الهادي الدالي، التاريخ الحضاري، ص 165.

أجره من الثمر أو الحبوب أو الحيوان بعد وصول الصبي إلى مرحلة معينة من تعليمه، وقد عرف نظام المشارطة هذا في مختلف مدن وقرى السودان الغربي واختص به المعلمون والشيوخ الصحراويون[1].

ج.التعليم العالي وأماكنه:

يعتبر مرحلة متقدمة في السلم التعليمي، حيث كان يدرس بها صفوة من العلماء[2]، لم يكن التعليم القائم في الجوامع قاصراً على الطلبة بل في إمكان المستمعين أن يأخذوا أماكن لهم في الصفوف الخلفية للحلقة، وتحت أعمدة الجامع كانت تنصب كراسي لجلوس الأستاذ وهي أعلى من كراسي الوعاظ والفقهاء، ومن عادة الأستاذ المدرس أن يضع رجليه على درجة الكرسي كجلوس الإمام على المنبر ويمسك طرف عمامته بيده اليمنى ويشير بها إلى الطلبة أو يحك بها ذقنه إن استعصى الفهم على بعضهم[3]، ولم تكن العادة أن يستعمل الأستاذ القضيب، كما هو شأن المعلم والشيخ - ويجلس قبالته مباشرة أنجب طالب يسرد النص فقرة إثر فقرة فيتولى المدرس الشرح والتعليق على النص الملقى، ويسمى ذلك الطالب (المسرد)، وقد يكون عالماً أو فقيهاً تطوع لذلك العمل، وربما يتم السرد في بعض الأحيان حتى بدون حضور الأستاذ، إذا كانت الغاية هي حفظ النص أو تلاوة السيرة النبوية أو الشفا للقاضي عياض، وذكر السعدي أن العالم (اندغ محمد ابن المختار) كان ضليعاً في علوم العربية تولى لعدة سنوات سرد كتاب الشفاء في مسجد سكنوري، وقد خلفه ابنه عبد الله في ذلك[4].

---

(1) الشنقيطي، المصدر السابق، ص 219.

(2) الهادي الدالي، التاريخ الحضاري، ص 166.

(3) عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، الرباط، شركة الطبع والنشر 1977م، ص 16.

(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 29. الهادي الدالي، التاريخ الحضاري، ص 166.

ولتواضع بعض العلماء، فقد كانوا يسردون أمام من هم أعلى منهم قدراً أو أقدر علماً أو أكثر منهم معرفة بذلك الفن ولا يعرفونه هم[1].

وكان من شروط الأستاذ الناجح حسن التواضع والابتعاد عن التكرار، وعدم الحرص المبالغ فيه على تحقيق النقل وإيراد الأسانيد ووضوح الصوت والمواظبة على الدروس[2].

وقد كانت تدرس في المسجد الجامع للمدينة علوم التفسير والحديث والفقه المالكي والتاريخ والسيرة وعلوم العربية والمنطق وغير ذلك[3].

ومن هنا نستنتج أن المراحل التعليمية في السودان الغربي كانت متشابهة إلى حد كبير لمراحل التعليم في الوطن العربي والعالم الإسلامي آنذاك.

أما عن التعليم المهني والحرفي، فإنه يستنتج من الإشارات المقتضبة التي تلمح في بعض المصادر التاريخية، ومن أمثلة هذه الإشارات ما أورده الحسن الوزان الذي زار تنبكت ووصفها بأنها مدينة عظيمة الشأن وفيها الكثير من الدكاكين المملوءة بالمنسوجات والكتب، وفيها عدد كبير من حوانيت الحياكين والحدادين والجزارين[4].

أما عن إرسال البعثات الدراسية للخارج، فقد حرص ملوك السودان الغربي المسلمون على إرسال أفواج متتالية من الطلاب الأفارقة إلى المنارات العربية الإسلامية في الشمال الأفريقي ومصر، وأهمها: القاهرة وطرابلس وفزان والقيروان وفاس وغيرها، لينهلوا من منابعها ثم يعودوا إلى أوطانهم. لينشروا الإسلام واللغة العربية في ربوعها[5].

(1) كعت، تاريخ الفتاش، ص 22 ـ 54.

(2) عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 16.

(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 34.

(4) الوزان، المصدر السابق، ص 165، عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي، ص 101 ـ 102.

(5) أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 206، عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي، ص 137.

وكان بعض الطلاّب السودانيين يسافرون إلى المراكز الثقافية العربيـة الإسـلامية للتعمّق في الدراسات وذلك بعد حصولهم على الإجازات الدراسية في المراكز العلمية في المنطقة[1].

وقد ارتفع عدد هؤلاء الطلاب النازحين إلى المراكز الثقافية العربية، ففي مصر مثلاً تقاطر العديد منهم على الأزهر الشريف حيث أقاموا رواقاً خاصاً بهم يستقرون فيه ويتلقون فيه العلوم العربية الإسلامية، وقد عرف باسم (مدرسة بن رشيق) والتي تحدث عنها المقريزي في كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) والمعروف بالخطط المقريزية بقوله: «... هذه المدرسة للمالكية وهي بخط حمام الريش من مدينة مصر كان الكانم من طوائف التكرور لما وصلوا إلى مصر سنة بضع وأربعين وستمائة قاصدين الحج دفعوا للقاضي علم الدين بن رشيق مالاً بناها به ودرس بها فعرفت به وصار لها في بلاد التكرور سمعة عظيمة وكانوا يبعثون إليها في غالب الأحيان المال»[2].

ورغم أن هذا النص يشير صراحة إلى أن طوائف الكانم بالسودان الأوسط هي التي أسست مدرسة ابن رشيق المشار إليها، غير أنه يبدو أنها كانت منزلاً لحجاج وطلاب العلم من بلاد التكرور عموماً بما فيهم أهالي السودان الغربي والدليل على ذلك أن لفظ التكرور كان يطلق على عموم سكان غرب أفريقيا كما هو معروف، وأن المقريزي وغيره من الكتاب ظلوا فيما بعد يستخدمون لفظ التكرور دون الكانم وذلك أثناء حديثهم عن مدرسة بن رشيق المشار إليها.

ومن أمثلة العلماء السودانيين الذين رحلوا إلى المراكز الثقافية العربية الإسلامية: الفقيه أحمد بن عمر محمد أقيت جد العالم أحمد بابا التنبكتي، وقد التقى الفقيه أحمد بن عمر العالم المصري السيوطي والشيخ خالد الأزهري وغيرهم[3].

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 37ـ46.

(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص 365.

(3) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 138، والسعدي، تاريخ السودان، ص 37.

وكذلك العالم محمد بن أحمد التازختي الشهير بلقب (أيد أحمد) الذي رحل إلى كل من مصر والحجاز وكان ينشر ما تعلمه من علم ومعرفة[1].

وكذلك العاقب بن محمود بن عمر بن محمد بن أقيت قاضي تنبكت رحل إلى الشرق للتعلم والحج[2]، وغيرهم كثير، إضافة إلى ذلك فقد وفد إلى المنطقة العديد من العلماء والفقهاء، أقاموا بها وقدمت لهم ضروب المساعدة مما شجعهم على إطالة الإقامة، ومن أمثلة هؤلاء: المغيلي، وعبد الرحمن التميمي، وأبي إسحاق الساحلي، وغيرهم من علماء فاس ومراكش وشنقيط، وكل هذا يتضح صداه فيما كتبه السعدي وكعت وأحمد بابا وغيرهم من مؤرخي هذه الفترة[3].

الإجازات العلمية:

شهادة التخريج أو الإجازات هي إقرار الأستاذ بأهلية الطالب بعد تحصيله التام لفن من الفنون أو علم من العلوم، ويقع النطق بذلك الإقرار أو يحرر على ورقة تدفع للطالب المتخرج. ولقد وجدت في المراكز الإسلامية ثلاث درجات للإجازة وهي:

-شهادة السماع:

وتعني أن الطالب تتبع أقوال العالم وحفظها[4].

-شهادة العرض:

أي سرد الطالب على أساتذته مع استذكاره للنصوص ومعرفته بشروحها[5].

---

(1) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 587، السعدي، تاريخ السودان، ص 89.

(2) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 354، السعدي، تاريخ السودان، ص 40-41.

(3) راجع ما كتبه، كعت، تاريخ الفتاش، وأحمد بابا، نيل الابتهاج، السعدي، تاريخ السودان.

(4) الهادي الدالي، التاريخ الحضاري، ص 169.

(5) للمزيد راجع الهادي الدالي، التاريخ الحضاري، ص 169 وما يليها.

.الإجازة الكاملة:

وهي أن يصل الطالب إلى المرحلة التي يستطيع معـها ذكـر الأسـانيد وإرجاعـها لمصدرها الأول وذكر الفوارق في الروايات بعد الإلمام بفن معين من الفنون[1] .

وقد تتعدد المواضيع التي يتقنها الطالب ولكن الإجـازة لا تعطى إلا فـي أحـوال نادرة أي عندما يتأكد المـدرس أن الطـالب متمكـن مـن مادتـه، وأنـه يتقنـها إتقاناً تامـاً ويلاحظ مواظبته على تلك المادة واهتمامه بها وأيضاً عندما يطمئن الأسـتاذ إلـى بلـوغ الطالب مرحلة التعليـم والمناقشـة والاجتـهاد، وقـد يكـون علـى المجـاز أن يلقـي درسـاً بمحضر أستاذه لتحصل لديه القناعـة بـالحكم الـذي سيصدره والشـهادة التـي سيشـهد بها[2] ، والإجـازات العلميـة التـي تمنـح للطـلاب الذيـن أتقنـوا العلـوم الإسـلامية هـي الإقـرار بكفـاءة الطـالب واجتـهاده وحسـن سـلوكه، وانكبابـه علـى العلـم وتفرغـه للدراسة والبحث، وكانت تلك الإجازات بمثابة شهادة شخصية من الأستاذ لتلميذه، وليس فيها ذكر أو ارتباط بعنوان معهد معين، بل يقال له أنـه مـن تلاميـذ العـالم فـلان وغني عن البيـان أن المدرسـة فـي ذلـك العـهد قـد تعنـي وجـود الأسـتاذ والتلميـذ دون الارتباط بمبنى كما هو الحال في العهد الحالي بل قد تكون المدرسة تحت ظل شـجرة أو في أرض فضاء تحاط ببعض فروع الأشجار أو أطراف سعف النخيل[3] .

ولا تعطـى الإجـازة أو ينطـق بـها لأكـثر مـن شـخص واحـد فلـم تكـن شـهادة جماعية، وقد يضم مجلس علمي مجموعة من الطلبة ويحصل كل واحد منهم علـى إجازة في فن منفصـل متمـايز ثـم يبقـى طالبـاً عاديـاً فـي فـن أو فنـون أخـرى ويحضـر بانتظام حلقات أستاذه فيها[4] .

---

(1) أحمد فتوح عابدين، الحواضر الإسلامية في غـرب أفريقيـا، ص 264. فضـل كلـود الدكـو، المرجع السابق، ص 175 ـ 180.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 46. أحمد فتوح عابدين المرجع السابق، ص 265.

(3) الهادي الدالي، التاريخ الحضاري، ص 170 فضل كلود الدكو، المرجع السابق، ص 176.

(4) أحمد فتوح عابدين، المرجع السابق، ص 265.

ولقد تشابهت الإجازات في السودان الغربي والمغرب بفضل الاتصال بين علمائها خاصة بعد عودة علماء السودان إلى أوطانهم، وكان نظام الإجازات العلمية معروفاً في السودان الغربي وشبيهاً بالنظام الذي كان سائداً في البلاد الإسلامية المشرقية إذ كان الأستاذ حين يأنس في أحد تلاميذه نبوغاً ويتأكد من المواد التي درسها عنه يعطيه إجازة بالنقل عنه، وقد تكون الإجازة بخط يده[1]. وفي حديث أحمد بابا التنبكتي عن طلبة للعلم على يد أحد مشاهير الأساتذة في أيامه (الشيخ محمد بن محمود بن أبي بكر الونكاري التنبكتي) المعروف بيغيغ توفي عام 1002 هـ يقول أحمد بابا «لازمته أكثر من عشر سنين فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل، وفرعي ابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق وتحرير ضمنها عليه... وحضرت عليه التوضيح فلم يفتني منه إلا اليسير من الوديعة إلى الأقضية، وختمت عليه الموطأ قراءة تفهم، وحضرت كثيراً في المنتقى والمدونة بشرح المحلي ثلاث مرات وألفية العراقي في علم الحديث مع شرحهما، وختمت عليه تلخيص المفتاح بمختصر السعد وصغرى السنوسي مع شرح الجزيرية وحضرت عليه الكبرى وشرحها وقرأت عليها حكم ابن عطاء الله مع شرح زروق عليه ونظم أبي مقرعة الهاشمية في التنجيم مع شرحها ومقدمة التاجوري فيه، ورجز المغيلي في المنطق والخزرجية في العرض بشرح الشريف... وكثير من تحف الحكام لابن عاصم، في الأحكام مع شرح ولده عليه، وسمعت بقراءته هو كثيراً من البخاري ومسلم كله وجزءاً من مدخل ابن الحاج، ودروساً من الرسالة الألفية وغيرها وجامع معيار الونشريسي كاملاً وباحثته كثيراً في المشكلات وراجعته طويلاً في المهمات وأجازني في جميع ما يجوز له وعنه وكتب لي بخطه في ذلك»[2].

وهذا نص إجازة أحمد بابا للمقري حسبما جاء في روضة الآس، يقول المقري في روضة الآس:

---

(1) الهادي الدالي، التاريخ الحضاري، ص 171.

(2) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 602، السعدي، تاريخ السودان، ص 46.

«الحمد لله كما هو أهله وصلى على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم يقول كاتبه الفقير أحمد بابا بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت لطف الله به ووفقه لمرضاته. أجزت الفقيه الحافظ المتفنن النبيه سيدي أبي العباس أحمد بن محمد المقري من قراءة الإمام العلامة أبي عبد الله المقري قاضي الجماعة رحمه الله ونفعنا به آمين، أن يروي على هذا المتعلق في التاريخ وجميع ما جمعته في الفنون، وذكر حفظه الله في هذه الإجازة جميع التآليف المتقدمة، وزاد الحواشي علي خليل وجلب النعم ودفع النقم في مجانبة الظلمة ذوي الظلم في كراسين في غاية الإتقان في موضوعه وجزء في تكفير الكبائر بالأعمال الصالحة وسببه كلام الإمام ابن مرزوق في ذلك في غاية وترتيب جامع المعيار مع الزوائد عليه، قال كتبت منه مسائل التوحيد والتفسير شرح العقيدة البرهانية للسلاجي لم يكمل، ومطلبي ومأربي في أعظم أسماء ربي في كراسه وتعليق على متن خليل وعلى مواضيع من ابن الحاجب ومسائل متضمنة فنوناً في صورة أسئلة قال وجهتها لفاس ومراكش وغيرهما، قال وأجزته غير ذلك مما جمعته في العربية والفقه والحديث قال وأجزته أيضاً، أن يروي عني جميع مختصر الشيخ خليل بحق قراءتي له قراءة بحث وتحقيق وحضوري أيضاً كذلك على شيخنا الإمام الولي، الصالح القدوة الفهامة سيدي محمد بيغيغ الونكري نحو عشر مرات في أزيد من عشر سنين بحق قراءته له على سيدي أحمد بن سعيد الفقيه الحافظ المحقق الصالح القدوة حفيد سيدي البركة محمود بن عمر الفقيه الإمام الولي الصالح المشهور وإجازتيه إجازة سيدي الفقيه المتفنن العلامة والدي أحمد بن محمد بحق قراءته له على عمه سيدي محمود بن عمر المذكور بحق قراءته له هو على الشيخ عثمان المغربي، على العلامة نور الدين السنهوري، على العلامة السنباطي وغيره، على أصحاب خليل بهرام والأقمهيسي وغيرهما، عن مؤلفه خليل رحمه ولله ولنا فيه طرف غير هذا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله كتبه الفقير أحمد بابا

بتاريخ أوساط المحرم من عام عشرة وألف»[1] ويحدثنا عبد الرحمن السعدي عن عدد من أشياخه الذين درس عليهم، فنجده بعد حديثه عن كل منهم يذكر المادة التي درسها عليه والكيفية التي أخذ بها والمدة التي استغرقها في الملازمة وينتهي حديثه دائماً بهذه العبارة: «أنه أجازني بخطه في جميع ما يجوز له عنه»[2] وهكذا كان نظام الإجازات في السودان الغربي ومن مشاهير العلماء الذين تتلمذ عليهم طلاب كثيرون من بلاد السودان الغربي وأعطوا إجازات علمية لتلاميذهم النابغين الفقيه مخلوف بن علي بن صالح البلبالي المتوفى سنة 940 هـ قرأ في السودان الغربي ثم ارتحل إلى المغرب ثم عاد ودرس في تنبكت[3] والعالم عبد الكريم المغيلي التلمساني الذي درس في مدارس غرب أفريقيا، مثل تكده وغاو[4] والفقيه محمد أحمد التازختي الذي قرأ في بلاد السودان ثم ارتحل إلى المشرق فحضر دروس القلقشندي، والسنباطي، ثم رحل إلى مكة مع أبناء عمه، ودرس بها حتى أجازه في مكة أبو البركات النويري[5].

كتب الدراسة:

لا تكاد تختلف كتب الدراسة في بلاد السودان الغربي عنها في المغرب العربي، ذلك أن تشابه المذهب والقراءة وتبادل الرحلات بين العلماء أدى إلى تشابه الكتب المعتمدة في الدرس، وهكذا كانت العناية منصبة على المواد الدراسية المتمثلة أساساً في الفقه والحديث والسيرة والنحو والمنطق وما يتبع ذلك من القراءات والتصوف والشعر ولاسيما المديح النبوي وهي مواد كان لها شأن كبير في ثقافة العلماء المغاربة ووجدنا لها نفس الأثر لدى علماء السودان الغربي وتبعاً لذلك كانت

(1) أحمد بن محمد المقري، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من إعلام الحاضرتين مراكش وفاس، تقديم عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ط2، 1993م، ص 302-305.
(2) السعدي، تاريخ السودان ص 39-46.
(3) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 608.
(4) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 578، السعدي، تاريخ السودان، ص 39.
(5) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 587.

الكتب المقروءة في بلاد السودان الغربي في جزء كبير منها هي مما ألفه المغاربة أو تناولوه بالشرح والتعليق والاختصار ولاسيما ما يتصل منها بالفقه والسيرة والنحو، وقد حظي في مجال السيرة كتاب الشفاء للقاضي عياض باهتمام كبير، كما تشير إلى ذلك مؤلفاتهم، كما حظي موطأ مالك بنفس الأهمية إلى جانب مختصر خليل، وألفية العراقي، وصغرى السنوسي، وصحيح مسلم والبخاري[1].

كما حظي في مجال النحو بنفس الاهتمام شرح ألفية ابن مالك والبسط والتعريف في علم التصريف، وهما لعبد الرحمن المكودي[2] والمقدمة الأجرومية لابن جروم[3] ولامية ابن مجرار السلاوي في الجُمل[4] وسواها، وفي الفقه كانت تدرس المدونة شرح ابن الحسن الروديل ومنظومة الزكاة لمحمد العربي الفاسي ونوازل عبد القادر الفاسي ونظم العمل للفاسي والمرشد المعين لابن عاشر، والمعيار للونشريسي، والمنهج المنتخب في قواعد المذهب للزقاق واللامية المنسوبة إليه (لامية الزقاق).

ومن الكتب التي كانت تدرس هناك في مجال التوحيد كتاب الموحد لمحمد العربي الفاسي، وإضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة لأحمد المقري، وقد وقع الاهتمام لديهم في الجانب المتعلق بالمديح النبوي بدلائل الخيرات للعالم المتصوف محمد بن سليمان الجزولي والعشرينيات للفازاري وتخميسها لابن مهيب، وقد كانوا يدرسون إلى جانب هذا كله الدرر اللوامع في قراءة نافع لابن بري التازي ورجز المغيلي في المنطق والخزرجية بشرح الشريف السبتي الغرناطي وغيرها[5].

---

(1) أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، انظر السعدي، تاريخ السودان، البرتلي، فتح الشكور في معرفة علماء التكرور.

(2) البرتلي، فتح الشكور، ص 139.

(3) المصدر السابق، ص 136 ـ 143 ـ 145 ـ 186.

(4) المصدر السابق، ص 92 ـ 145 ـ 196.

(5) انظر كلاً من، كعت، تاريخ الفتاش، أحمد بابا، نيل الابتهاج، السعدي، تاريخ السودان، البرتلي، فتح الشكور.

ثالثاً - أشهر علماء السودان الغربي وتراثهم العلمي:

إن تراث وفكر كل أمة وحضارتها يقدر ويقيم بقدر ما تركت من مؤلفات وكتابات في شتى المجالات ومختلف المعارف، والعلماء هم الثروة الحقيقية لكل أمة، وهم الذين يبصرون الأمم والشعوب ويرسمون لها الطريق السوي إلى حياة أفضل دينياً واجتماعياً، وسنتناول بعض العلماء البارزين الذين تركوا لنا شيئاً من التراث العلمي، وهم في جملتهم كثيرون، لكن الذين سنعني بدراستهم ما هم إلا نماذج توفرت لنا بعض المعلومات عنهم، وعن نشاطهم العلمي وتراثهم الثقافي[1].

ولقد توارد على بلاد السودان الغربي عشرات العلماء من المغرب العربي، كما ظهر العديد من العلماء السودانيين في المراكز الحضارية في السودان الغربي، كان لهم دورهم الثقافي والحضاري في هذه المراكز بل في بلاد السودان الغربي كلها نذكر منهم:

1- محمد بن عبد الكريم المغيلي:

هو محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، ولد بمدينة تلمسان عام 790 هـ 1388م من أسرة عريقة، تربى فترة شبابه في (توات) في الصحراء وانتقل إلى فاس بهدف الدراسة، وكانت له مع علماء فاس مساجلات أخذت شكل الخلاف، واشتهر بعدائه ليهود (توات) أخذ عن الإمام عبد الرحمن التعالبي، والشيخ يحيى بن بدير وغيرهما وأخذ منه جماعة كالفقيه ايد أحمد والشيخ العاقب الأنصمني ومحمد عبد الجبار الفجيجي وغيرهم[2].

ارتحل إلى السودان حيث دخل بلاد أهير ودخل بلاد تكدة وبلاد سيقو وكاشنا ثم رحل إلى جاو واتصل في جاو بالأسكيا الحاج محمد سلطان سنغاي، فتذاكر معه في جملة من المسائل الفقهية وألفا في السودان عشرات الكتب والشروح وأضاءت

---

(1) ابراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 63.

(2) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 577. الهادي الدالي، التاريخ الحضاري، ص 203.

الحياة العلمية في السودان الغربي[1] وكان لها أثرها على الأمة في عهده وفي الأجيال من بعده .

ومن مؤلفاته:

1 ـ مصباح الأرواح في أصول الفلاح في كراسين قرظ عليه السنوسي وابن غازي[2] .

2 ـ مغني السبيل في شرح مختصر الخليل مزجاً مختصراً جداً وصل فيه القسم بين الزوجات وقطع على مواضع من البيوع وغيرها بل قيل إنه شرح ثلاثة أرباعه[3] .

3 ـ إكليل مغنى السبيل حاشية لم تكمل .

4 ـ شرح بيوع الأجيال من ابن الحاجب بحث فيه مع ابن عبد السلام وخليل[4] .

5 ـ مختصر تفسير المفتاح .

6 ـ شرح مختصر تفسير المفتاح .

7 ـ مفتاح النظر في علم الحديث فيه أبحاث مع النوري في تقريبه .

8 ـ شرح الجمل في المنطق .

9 ـ مقدمة في المنطق .

10 ـ رجز في المنطق وثلاثة شروح عليه .

11 ـ تنبيه الغافلين على مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين كراسه .

12 ـ مقدمة في العربية .

13 ـ كتاب الفتح المبين .

14 ـ البدر المنير في علوم التفسير .

15 ـ شرح خطبة المختصر .

---

(1) أحمد بابا ، المصدر السابق ، ص 577 .

(2) أحمد بابا ، نيل الابتهاج ، ص 577 .

(3) المصدر السابق ، ص 578 .

(4) المصدر السابق ، ص 578 .

16 ـ عدة قصائد كالميمية على وزن البردة ورويها في مدح النبي ﷺ.

17 ـ فهرسة مروياته.

18 ـ كتاب المسائل الذي ألفه للحاج محمد الأسكيا.

19 ـ رسالة ألفها لسلطان (كانو)[1].

وكان الإمام المغيلي يميل إلى الدراسة المنهجية التي أبانت عن قدر كبير من سعة الاطّلاع، كما اشتهر بتعدد المدارك وعرف عن تعصبه لمذهبه وعدائه لغير المسلمين[2].

وإذا كان هناك من فضل للإمام المغيلي فهو أنه أول من أخضع المعارف الإسلامية في السودان الغربي للنقاش والتحليل والحوار، ودفع الحكام والعلماء إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة[3] ووسع دائرة النقاش العلمي بحيث أصبح يشمل مناطق لم تكن العلوم الدينية قد وصلتها على الشكل المنهجي[4].

وقد كانت له مراسلة مع جلال الدين السيوطي في علم المنطق[5].

---

(1) المصدر السابق، ص 578.

(2) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 578.

(3) مما يدل على نفوذ الفكر والثقافة الإسلامية لدى شعوب السودان الغربي في ذلك الوقت، ما جاء في السؤال الثاني الذي وجهه الأسكيا الحاج محمد للإمام المغيلي: «إنّ أهل بلادي يزعمون أنهم مسلمون... بالجامع والأذان للصلوات الخمس، وذلك بعد أن كانت كلها بلاد كفر وأهلها عبدة أصنام، فقام عليهم بعض أجداد هؤلاء السلاطين مع أتباعهم فقاتلوا أولئك الكفار وملكوا زمام بلادهم وأدخلوا الإسلام إليها وحكم في ظل الإسلام أكثر من ثلاثين سلطاناً قبل السلطان سني على الذي كان يظهر للناس بالإسلام وينطق بالشهادتين ونحوها من ألفاظ الإسلام، ولكن لا يعرف لذلك حقيقة، وإنما يقول ذلك بلسانه ويصوم رمضان ويتصدق كثيراً بالذبائح عند المساجد ونحوها، ومع ذلك يعبد الأصنام ويتصدق على الكهان ويستعين بالسحرة ونحوهم».
المغيلي، أجوبة على أسئلة اسكيا الحاج محمد، مخطوط رقم 1503 تنبكت، مركز أحمد بابا، مالي، ورقة 7 ـ 8.

(4) بوفيل، المرجع السابق، ص 241.

(5) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 577.

كما كانت له مراسلات مع محمد بن يوسف السنوسي حول عداء المغيلي لليهود بعد أن قتلوا ابنه بمدينة توات[1].

رحل من بلدة توات إلى أقدز، وبنى مسجداً هناك، أطلق عليه مسجد الكرامة، وعلى يديه أسلم أمير البلدة، ثم دخل إلى كانو في فترة حكم محرر ومغا، الذي أصبح المغيلي بمثابة مستشاره الشرعي، ثم قصد زندر ومرادي وتنبكت، وأصبح مستشاراً لأسكيا الحاج محمد[2].

ثم ذهب إلى فاس إلا أنه نتيجة لخلافه مع علمائها غادرها إلى بلاد السودان، توفي المغيلي في توات عام 909 هـ، 1503م.

2 - صالح بن أند عمر المعروف بالشيخ العمري:

كان من أهل الفضل والعلم عرف عند السلاطين بتحقيره لما عندهم، يشفع للمساكين عندهم فلا يردون شفاعته على كل حال، وألف شرحاً على مختصر خليل[3].

3 - أبو القاسم التواتي:

جاء مع جماعة من علماء وشرفاء تافيلات بالمغرب، وابتنى داراً بالقرب من المسجد الجامع كان يستقبل فيه طلبة العلم وقد كان الأسكيا الحاج محمد يصلي وراءه، ويطلب دعاءه، وأنشأ مقبرة تنبكت الكبرى التي حسب عليها الأسكيا محمد صندوقاً يحتوي على ستين جزءاً من القرآن وعندما توفي بتنبكت عام 922 هـ كان يوجد بتلك المدينة خمسون عالماً من توات[4].

4 - عبد الرحمن بن علي بن أحمد القصري ثم الفاسي السفياني:

ولد بمدينة القصر الصغير على البحر المتوسط وهو شيخ الإمام المنجور أشهر علماء المغرب في بداية عهد المنصور الذهبي قال عنه المنجور: «هو الفقيه الأستاذ

---

(1) الهادي الدالي، التاريخ الحضاري، ص 205.

(2) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 577، الهادي الدالي، التاريخ الحضاري، ص 205.

(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 36، البرتلي، فتح الشكور، ص 155.

(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 58، البرتلي، فتح الشكور، ص 69.

المحدث السَّند المحقق الرحالة أخذ عن شيخ الجماعة ابن غازي والشيخ زروق بفاس وشرق سنة 959 هـ وأخذ علم الحديث بمصر ثم ذهب لبلاد السودان، ودخل كانوا وغيره فعلموه ثم عاد إلى فاس سنة 924 هـ ـ 1518 حيث أصبح من علماء جامع الأندلس يدرس الموطأ وكتب السنة المعتمدة في العلوم الدينية (البخاري ومسلم ـ النسائي الترمذي، ابن ماجة» له عدة مؤلفات وتوفي عام 956 هـ/ 1549م[1].

5-عمر بن محمد أقيت عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي التنبكتي:

كان فقيهاً عالماً صالحاً قرأ عليه الفقيه القاضي محمد الكابري مؤلف (بستان الفوائد) رحل إلى ولاته مع أبنائه الحاج أحمد وعبد الله ومحمود، لما رحل إليها فقهاء سنكوري، عندما دخلها سني على عام 873 هـ وأدرك الإمام الزموري رحمه الله في ولاته، وأجازه كتاب الشفاء للقاضي عياض، ثم رجع ابنه الفقيه محمود بن عمر من ولاته إلى تنبكت سنة 885 هـ وأما هو فلم يرجع من ولاته وتوفي فيها وكذلك ابنه عبد الله[2].

6- محمود بن عمر بن محمد أقيت بن علي بن يحيى الصنهاجي المسوفي:

ولد عام 868 هـ بتنبكت، قال عنه أحمد بابا: «قاضي تنبكت أبو الثناء وأبو المحاسن عالم التكرور وصالحها ومدرسها وفقيهها وإمامها بلا مدافع... اشتهر علمه وصلاحه في البلاد وطار صيته في الأقطار شرقاً وغرباً... لا يخاف في الله لومة لائم»[3]. تولى القضاء عام 904 هـ وعمره خمس وثلاثون سنة (35) وكان يدرس مدونة الإمام سحنون ورسالة ابن أبي زيد وألفية ابن مالك، وقد بدأ تدريس مختصر خليل وألف في ذلك كتاباً من جزئين، وجادل علماء مصر وناقشهم عندما كان في

(1) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 264.
(2) البرتلي، فتح الشكور، ص 177.
(3) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 607.

طريقه للحج عام 915 هـ حيث التقى بابراهيم المقدسي والقلقشندي واللقانيين، وغيرهم ثم عاد إلى بلاده ولازم التدريس، وتوفي عام 955 هـ[1].

7–عبد الله بن عمر بن محمد بن أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي:

ولد سنة 866 هـ درس بولاته وكان متضلعاً في العلوم الشرعية، عمل مدرساً في ولاته وتنبكت، وكان مهيب الجانب لورعه وزهده، وكان قوي الحافظة توفي في ولاته سنة 929 هـ[2].

8- محمد بن أحمد بن أبي محمد التازختي:

اشتهر (بأيد أحمد) كان فقيهاً عالماً محققاً محدثاً، قرأ ببلده على يد الحاج أحمد بن عمر بن أقيت، ثم رحل إلى تاكدة فلقي بها المغيلي، وحضر دروسه، ثم ارتحل إلى الشرق صحبة الفقيه محمود بن عمر بن أقيت فلقي شيخ الإسلام زكريا والبرهانين والقلقشندي والسنباطي، فأخذ عنهم علم الحديث ولقي الشمس اللقاني والناصر أخاه وحضر دروسهم، وأجازه من أهل مكة أبو البركات النويري، وسمع وروى وحصل ودأب حتى تميز في فنونه وصار في أعداد المتحدثين والعلماء، ثم رجع إلى السودان فنزل في كاشنا وتولى قضاءها، له تعاليق وطرق على مختصر خليل، توفي سنة 936 هـ 1529م[3].

9- مخلوف بن علي بن صالح البلبالي:

درس في ولاته مبادئ العلوم ورسالة ابن أبي زيد في الفقه، وأخذ عن الشيخ عبد الله بن عمر بن محمد أقيت في ولاته، سافر إلى المغرب وحضر بفاس ودرس على يد ابن غازي ثم، عاد إلى السودان للتدريس بكانو وكاشنا، حيث كانت له نوازل

---

(1) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 607، السعدي، تاريخ السودان، ص 38.

(2) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 235، السعدي، تاريخ السودان، ص 38.

(3) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 587، السعدي، تاريخ السودان، ص 39.

وأبحاث مع الفقيه العاقب الأنصمني، ثم دخل تنبكت ودرس بها ثم رحل مرة أخرى إلى المغرب، فدخل مراكش ودرس بها ثم عاد إلى بلاده وتوفي بعد عام 940هـ[1].

10 - الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت:

كان أكبر الإخوة الثلاثة الذين عرفوا بالعلم في تنبكت، وصفه أحمد بابا بأنه كان فقيهاً نحوياً لغوياً عروضياً بارعاً حافظاً معتنياً بتحصيل العلم، ونسخ كتبه وكتب عدة دواوين، وجمع كثيراً من الفوائد والتعاليق[2].

وقد عمل في القضاء بولاته وتنبكت ثم ارتحل إلى الشرق بغرض الدراسة والحج عام 890 هـ حيث لقي السيوطي وخالد الأزهري ثم رجع إلى بلاده وجلس للتدريس بعد عودته، توفي عام 942 هـ 1536م[3].

11 - العاقب بن عبد الله الانصمني المسوفي:

قال عنه أحمد بابا: «فقيه نبيه ذكي الفهم حاد الذهن وقاد الخاطر مشتغل بالعلم في لسانه حدة»[4] درس على المغيلي وعلى الإمام السيوطي في مصر لما سافر إلى الحج كانت له منازعه مع مخلوف البلبالي في بعض المسائل، له عدة مؤلفات في الفقه منها تعليق على مختصر خليل وأجوبة الفقير على أسئلة الأمير أجاب فيه الأسكيا الحاج محمّداً وتوفي عام 950 هـ[5].

12 - محمد بن محمود بن عمر إيقيت:

ولد في تنبكت سنة 909 هـ وصفه أحمد بابا بأنه: «كان ثاقب الذهن صافي الفهم ومن دهاة العلماء تولى القضاء بعد أبيه فأسعفته السعادة فنال ما شاء الله من دولة ورئاسة ... وكسب من الدنيا عرضاً وطولاً»[6].

---

(1) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 608، السعدي، تاريخ السودان، ص 39.

(2) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 137، البرتلي، فتح الشكور، ص 27.

(3) المصدر السابق، ص 27.

(4) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 353.

(5) المصدر السابق، ص 353.

(6) المصدر السابق، ص 597.

كان أستاذ المنطق والبيان وله تأليف على نمط الإمام المغيلي في المنطق توفي عام 973 هـ، 1568م[1].

13- أحمد بن محمد بن سعيد:

ولد في تنبكت عام 931 هـ ودرس على جده محمـود بـن عمر أقيت مختصر خليل ورسالة ابن أبي زيد، وعن غيره المختصر والمدونة، ثم أصبح مدرساً عـام 960 هـ وألف دراسة على مختصر خليل وتوفي عام 976 هـ[2].

14- أحمد بن أحمد بن عمر أقيت:

ولد عام 929 هـ وصفه أحمد بابا بأنه: «علامة فهامة ذكيٌّ درّاكٌ محصل متفنن محدث أصوليّ بيانيٌّ منطقيّ مشارك»[3].

أخذ العلم عن عمه محمود بن عمر أقيت وغيره، رحل إلى الحج سنة 956 هـ ولقي الناصر اللقاني والشريف يوسف الأميوطي تلميذ السـيوطي والشيخ التـاجوري والأجهريّ، وأجازه بعضهم ولازم أبا المكارم محمد البكري، ثم رجـع لبـلاده فقعـد للتدريس وألف شرح تخميسات العشرينيات الفازازية لابن مـهيب فـي مـدح الرسـول صلى الله عليه وسلم وشرح منظومة المغيلي في المنطق شرحاً جامعـاً، وكتـب حاشية على شرح التتائي علي خليل، وكان جامعاً للكتب وأتى بعـدد منـها مـن مصـر وكـان يدرس في المسجد عندما ثقل لسانه فحمل إلى بيته ومات عام 991 هـ[4].

15- العاقب بن محمد بن عمر أقيت:

ولد عام 913 هـ بتنبكت تولى القضاء بها ووصفه السعدي بأنـه كـان: «مسـدداً في أحكامه نشأ فيها صلباً في الحق لا تأخذه في الله لومه لائم قوي القلب مقداماً فـي الأمور العظام جسوراً على السلطان فمن دونه لا يبالي بهم»[5].

---

(1) المصدر السابق، ص 597.

(2) المصدر السابق، ص 143، البرتلي، فتح الشكور، ص 28.

(3) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 141.

(4) المصدر السابق، ص 142، السعدي، تاريخ السودان، ص 42، البرتلي، فتح الشكور، ص30.

(5) السعدي، تاريخ السودان، ص 40.

أخذ العلم عن أبيه وعمه رحل إلى الحج ولقي الناصر اللقاني وأبا الحسن البكري، أجازه، اللقاني كل ما يجوز له وعنه توفي عام 991 هـ[1].

16- محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري عرف (ببيغيغ):

ولد عام 930 هـ قال عنه أحمد بابا إنه: «كان طويل الروح في التعليم لا يأنف من مبتدئ ولا من بليد فني فيه عمره... وقد أدركته أنا يقرأ من صلاة الصبح إلى وقت الزوال ثم يصلي الظهر بالناس ويدرس إلى العصر ثم يصليها ويذهب إلى موضع آخر يدرس فيه إلى الإصفرار أو قربه وإذا صلى المغرب درس في الجامع إلى العشاء وثم رجع إلى بيته وكان مع ذلك حافظاً ذكياً»[2].

وقد درس عن بيغيغ علوم العربية والفقه وعلى أبيه القاضي محمود، وفي تنبكت درس المختصر، ثم رحل للمشرق وحضر مجالس العلم بمصر حيث تتلمذ على أشهر العلماء أمثال الناصر اللقاني، والتاجوري ومحمد البكري، وبعد الحج رجع إلى تنبكت لمتابعة تخصصه في الحديث والبيان والمنطق.

يصفه أحمد بابا بقوله: «لقد صار في آخر الحال شيخ وقته في الفنون لا نظير له لازمته أكثر من عشر سنين فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل وابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق وتحرير وختمت عليه مختصر خليل فقد حضرْت عليه الموطأ قراءة تفهم وباحثته كثيراً في المشكلات وراجعته طويلاً في المهمات... وهو شيخي وأستاذي ما انتفعت بأحد قدر انتفاعي به وبكتبه... وأجازني جميع ما يجوز له ومنه وكتب لي بخطه في ذلك»[3].

وكان بيغيغ إلى جانب دروسه مؤلفاً محتسباً على بعض أمهات الكتب كتب الفقه والحديث وحرر عدة فتاوى وقد جمع تلميذه أحمد بابا مؤلفاته في مجموع

---

(1) المصدر السابق، ص 40.

(2) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 601، السعدي، تاريخ السودان، ص 45.

(3) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 602، السعدي، تاريخ السودان، ص 46.

متصل وكان بيغيغ في مدينة تنبكت يوم دخول الجيش المغربي لها، وفي عام 1002 هـ 1593م عن عمر يناهز 72 سنة[1].

17 - محمد بابا بن محمد الأمين حبيب الله (أبو عبد الله):

وصفه السعدي بالعالم العلامة الفاضل الخير المدرس[2] درس في تنبكت في شتى الفنون وخاصة في الفقه والنحو الذي كان يتقن قواعده، ومن أساتذته عبد الرحمن بن محمود في علم الكلام (كان يدرس عليه بواسطة المراسلة) والفقيه ميغا الذي درس عليه مختصر خليل والتوضيح لابن الحاجب وجمع الجوامع، وعبد الرحمن ابن أحمد المجتهد درس عليه المدونة والموطأ في الفقه وأجازه بعض أولئك الأساتذة[3].

وقد اشتغل محمد بابا بالتأليف في علوم الدين مثل شرح ألفية السيوطي وتكملة البجائي على اللامية وشرح مؤلفات شواهد الخزرجي وأنشأ مقامات على شاكلة مقامات الحريري، وخاض ميدان الشعر حيث كان ينشئ قصيدة كل سنة وقد رثاه بعض الشعراء عند موته توفي عام 1014 هـ 1605م[4].

18 - عبد الله بن محمود بن عمر أقيت:

تضلع في نوازل الفقه ومختصر خليل والرسالة بحيث كان يستحضرها، وكان يشتغل بالتدريس في جوامع تنبكت عندما قبض عليه الجيش المغربي ونفاه إلى مراكش، وتوفي بعد إصابته بالطاعون عام 1006 هـ 1597م[5].

(1) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 602، السعدي، تاريخ السودان، ص 46.
(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 217.
(3) البرتلي، فتح الشكور، ص 111.
(4) أحمد أبو الأعراف، إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر العلماء المؤمنين من أهل التكرور والصحراء وشنقيط، مخطوط، رقم 492، مركز أحمد بابا، تنبكت، مالي، ورقة 78، السعدي، تاريخ السودان، ص 217، البرتلي، فتح الشكور، ص 112.
(5) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 236.

19 - الأمين بن أحمد المجتهد:

ولد في تنبكت عام 957 هـ ـ1550م اشتهرت عائلته بالعلم والتدريس، وقد نقل السعدي ترجمته عن العلامة محمد بيغيغ الذي عزفه بأنه كان رطب اللسان بالذكر فقيهاً نحوياً تعريفياً لغوياً مع حذق في معرفة الصحابة، وكانت وفاته سنة 1041 هـ 1631م[1].

20 - محمود بن محمد الزغراني التنبكتي:

نسبة لقبيلة الزغرانيين في غرب السودان، نشأ في تنبكت وتعلم الفقه على الأستاذين أحمد بن محمد سعيد وعبد الله بن محمد أقيت الصنهاجي، أخذ العلوم عن كبار أساتذة عصره حتى أصبح يعرف بالنحوي، وتصدر للتدريس وكان إماماً في جامع التواتيين بتنبكت توفي عام 1011 هـ 1602م[2].

21 - أحمد بابا التنبكتي:

هو أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن أقيت الصنهاجي الماسني السوداني التكروري التنبكتي[3]، ولد في مدينة تنبكت عام 963 هـ ـ1556م نشأ في أسرة علمية مشهورة، ويعرف قومه ببني أقيت كانت لهم الصدارة وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة، وقد ترجم لعدد منهم في كتابه (نيل الابتهاج بتطريز الديباج»[4].

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 246 ـ 247. البرتلي، فتح الشكور، ص 62 ـ 63.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 215.

(3) هو عالم مشهور وردت ترجمته في العديد من كتب التراجم المعروفة والمتداولة، ومنه على سبيل المثال، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، ص 145، شجرة النور الزكية، ص 298، وروضة الآس للمقري، ص 303، وفتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور للبرتلي، ص 31 ـ 37، ومن شهرة هذا العالم قامت منظمة (الإسيسكو) بعقد ندوة علمية عنه بمناسبة مرور أربعة قرون على وفاته، عقدت بمدينة مراكش، 22 ـ 25، صفر 1412 هـ، 2 ـ 5 سبتمبر (الفاتح)/ 1991 ف، ونشرت أعمال الندوة في كتاب عام 1993ف.

(4) نيل الابتهاج بتطريز الدباج، لأحمد بابا، إشراف وتقديم عبد الحميد الهرامة، منشورات، كلية الدعوة الإسلامية طرابلس، ص 137، وما بعدها.

انكب منذ صغره على النهل من العلوم السائدة في عصره وبيئته العلمية، وتلقى العلم عن شيوخ أجلاء تحفل بهم آنذاك مدينة تنبكت، ويأتي والده أحمد بن أحمد بن عمر بن أقيت في مقدمة هؤلاء، ومنهم أيضاً محمد بن محمود بن بيغيغ الونكري والعاقب بن محمود بن عمر، وقد درس عليهم عدة كتب منها مختصر الشيخ خليل وصحيح الإمام البخاري وصحيح مسلم، وموطأ الإمام مالك، كتاب الشفاء للقاضي عياض، وكتب السنة الأربع للترمذي والنسائي وابن ماجة وأبي داود، كما تحصل على إجازات علمية من خارج بلاده، منهم الإمام يحيى بن محمد بن محمد الحطاب الطرابلسي المالكي إمام المالكية في عصره، فقد أجازه فيما يرويه عن أبيه محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحطاب، وعن عمه بركات بن محمد بن عبد الرحمن الحطاب، وعن جده محمد بن عبد الرحمن الحطاب الكبير وقد ذكر هؤلاء والعلماء الذين تلقى عنهم في إجازته العلمية الفقيه أحمد بن محمد المقري الذي نقلها في كتابه روضة الآس[1].

عاش أحمد بابا في بلاده فترة التحصيل العلمي ثم بدأ بعدها بالمشاركة بالتدريس والإفتاء وتأليف الكتب، وشاءت إرادة الله أن يدخل إلى مدينة مراكش دون رغبته سنة 1002 هـ عندما استولى جيش أحمد المنصور السعدي علي تنبكت هو وطائفة من أهله حيث جاء بهم أسرى في القيود إلى مراكش، وما لبث أن بدأت حياته في استقرار فأخذ يباشر نشاطه العلمي متصدراً للتدريس والإفتاء وتأليف الكتب إذ تجول في عدة مدن بالمغرب الأقصى، وبعد أن قضى أربعة عشر عاماً في المغرب أفاد خلالها بعلمه واستفاد من غيره، عاد إلى وطنه فوصل إلى تنبكت عام 1016 هـ 1608م، وتوفي سنة 1036 هـ 1626م[2].

---

(1) أحمد بن محمد المقري، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحاضرتين مراكش وفاس، ص 34.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 218، البرتلي، فتح الشكور، ص 34.

أسهم أحمد بابا في إغناء المكتبة العربية بمجموعة من الكتب والرسائل العلمية والشروح والفتاوى إلى جانب الإجازات العلمية، وهي تدل على سعة علمه وتحصيله العلمي ومعرفته لكتب الحديث والفقه والتاريخ والتراجم، وقد بلغ مجموع ما ألفه فيما ذكره البرتلي في كتابه فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور (39) كتاباً ورسالة[1]، وذكر الدكتور عبد الحميد الهرامة في مقدمة كتاب نيل الابتهاج أنها بلغت (30) ثلاثين كتاباً ورسالة[2]، ومن هذه المؤلفات :ـ

المقصد في الشرح على مختصر خليل، وشرح الصغرى في أربعة كراريس والمأرب والمطلب في أعظم أسماء الرب تعالى في الكراسة، وكتاب شرح الصدور وتنوير القلوب، ببيان مضفي ما نسب للجانب النبوي من الذنوب، ونشر العبير، بمعاني آية الصلاة على البشير النذير، ونيل الأمل وتفضيل النية على العمل، وغاية الأمل في تفضيل النية على العمل، والنهج المبين في شرح حديث أولياء الله الصالحين المحسنين، والبدور المسفرة في شرح حديث العطرة، وشرح مختصر خليل من الزكاة إلى أثناء النكاح، في سفرين، وسماه المقصد الكفيل بكل مقفل خليل وحاشية عليه سماها مغني الرب الجليل في تحرير مهمات خليل في سفرين.

ينقد فيهما الأجهوري في شرحه على المختصر، وتنبيه الواقف على تحرير وخصيصة نية الحالف في كراس[3]، ويلاحظ على كتبه ورسائله أنها محصورة في موضوعات أكثرها ما هو مكرر الموضوع، وذلك يرجع إلى طبيعة المنهج التعليمي السائد في تلك البيئة التي تعتني بالمدارسة والمحاورة أكثر من عنايتها بتقرير المسائل وتصنيف الكتب الجامعية.

وإفهام السامع بمعنى قول خليل في النكاح بالمنافع، وفتح الرزاق في مسألة الشك في الطلاق، وأنفس الإغلاق في فتح الاستغلاق، من كلام خليل في درك

---

(1) البرتلي، فتح الشكور، ص 35ـ36.

(2) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 17ـ18.

(3) البرتلي، فتح الشكور، ص 36، أبو الأعراف، مخطوط إزالة الريب، ورقة 44.

الصداق، الزند الواري في مسألة، تخيير الشاري، والكشف والبيان، في حكم أصناف مجلوب السودان، وألمع في الإشارة في حكم التبغ، وترتيب جامع المعيار للونشريسي، كتب منه كراريس وأجوبة الأسئلة المصرية، وفتح الصمد الفرد، في معنى محبة الله تعالى للعبد، وتعليق على أوائل الألفية، وآخر سماه النكت الوفية بشرح الألفية، وآخر سماه النكت الزكية لم يكملا، وغاية الإجادة في مساواة الفاعل للمبتدأ في شرط الإفادة في كراسة، وآخر سماه النكت المستجادة، في مساواتهما في سر الإفادة، والتحديث والتأنيس في الاحتجاج بابن إدريس، ونزول الرحمة في التحدث بالنعمة، ودور الوشاح بفوائد النكاح وهو مختصر كتاب الوشاح للسيوطي، وجلب النقمة لمجانبة الظلمة، وما رواه الرواة في مجانبة الولاة، ونيل المرام ببيان حكم الإقدام على الدعاء لما فيه من إيهام، وهو مأخوذ من مسودة تأليفه فتح القدير للعاجز الفقير في الكلام على دعاء محمد بن حميد، وتحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء، ومختصره في عشر ورقات سماه مرآة التعريف في فضل العلم الشريف، ودرر السلوك بذكر الخلفاء وأفاضل الملوك، ونيل الابتهاج بالذيل على الديباج، وكفاية المحتاج في معرفة من لبس الديباج، وترجمة السنوسي في ثلاث كراريس، وخمائل الزهر في كيفية الصلاة على سيد البشر، والدر النظير في ألفاظ الصلاة على البشير النذير[1] توفي عام 1036 هـ[2].

وهكذا يمكن القول بأن الحركة العلمية في السودان الغربي كانت على درجة عالية من الازدهار بمقاييس ذلك العصر، وأنها كانت تشبه في كثير من جوانبها ما كان سائداً في البلاد الإسلامية المشرقية والمغربية، وهذا أكبر دليل على تأثير الشمال الأفريقي على الحياة العلمية والفكرية في السودان الغربي.

(1) أبو الأعراف، مخطوط إزالة الريب، الورقة 45.

(2) البرتلي، فتح الشكور، ص 36، السعدي، تاريخ السودان، ص 244.

3- رحلات الحج:

أسهم الحج في تنمية العلاقات الثقافية والعلمية بين السودان الغربي والشمال الأفريقي، حيث كان كبار العلماء من السودان الغربي في طريقهم إلى الحج وعودتهم يقيمون فترة في المراكز الحضارية في الشمال الأفريقي حيث يدرسون على أبرز العلماء، ويقوم بعضهم بنشر علمه في تلك المراكز، والعمل بالتدريس وقد تجري مساجلات علمية بين الوافدين والقارين.

وتاريخ أداء الحج من الشمال الأفريقي والصحراء وبلاد السودان يرجع إلى المرحلة الأولى من انتشار الإسلام في هذه المناطق، وبغض النظر عن كونه ركناً أساسياً من أركان الإسلام فإن الحج مناسبة اجتماعية ومظاهرة ثقافية وسوق اقتصادية، وعنصر مهم في حركة الناس وتنقلهم، ففي موسم الحج تشهد الأماكن المقدسة في الحجاز تجمع حشود ضخمة من أجناس بشرية مختلفة أي أن الحج مناسبة يلتقي فيها الناس القادمون من شتى بقاع العالم الإسلامي لأداء فريضة الحج في مكة، وإظهار وحدتهم، ومناقشة الأمور ذات الاهتمام المشترك بينهم، وتبادل المنافع والثقافات والسلع، ومعرفة مهارات تمدهم بأسباب البناء وعوامل الارتقاء والتطور بمجتمعاتهم المحلية.

لقد هيأ الإسلام إلى المناطق الأفريقية التي دخلها ـ لاسيما بلاد السودان الغربي ـ أن تتصل بالحضارة العربية الإسلامية في وقت مبكر، فقد أحدث الدين الجديد نشاطاً اقتصادياً عظيماً فأتاح للمناطق المختلفة صلات التزاوج والجوار، وحمل اللغة العربية على الانتشار في أوسع نطاق حتى أصبحت وسيلة لحفظ التراث الأفريقي، وكما حمل الدعاة العرب إلى أفريقيا الإسلام حملوا عادات وتقاليد حسنة في السلوك والمعاملة، واختلطوا مع السكان المحليين في مدنهم وقراهم ونجوعهم واستقروا بينهم وتزاوجوا معهم وبثوا فيهم الحضارة العربية الإسلامية[1].

---

(1) نعيم قداح، حضارة الإسلام وحضارة أوربا في أفريقيا، ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974/ ص 7 ـ 8.

وكان الحج أحد أهم قنوات الاتصال بين شتى مناطق العالم الإسلامي، بالنسبة للأفارقة ولم يكن الحج أداء لفريضة دينية فحسب بل إنه مناسبة للاتصال بمنابع الحضارة العربية الإسلامية، والوقوف على مدى ما توفره العبادة العملية من خلال أداء مناسك الحج من إحساس بالأخوة والمساواة والسمو الروحي الذي يتحلى به المسلمون في الحج[1].

وخلال رحلة الحج الطويلة والشاقة التي يقطعها الحاج حتى يصل إلى الأراضي المقدسة، يجد الحاج الأفريقي نفسه أنه ينتقل بين أرجاء وطن إسلامي واحد كبير لا تفصله حواجز ولا توقفه حدود، بل يجد حسن المعاملة وكرم الضيافة خلال المناطق التي يمر بها، وفي الحج وهو ضمن هذا العدد الهائل من الحجاج يشعر أنه عضو في المجتمع الإسلامي العريض لا يجد تمييزاً بين اللون أو الغني أو الفقير وهكذا يجد الحاج الأفريقي سواءً كان تاجراً أو فقيهاً أو طالب علم، أو ملكاً أو وجيهاً أو رجلاً عادياً، الاحتياجات الروحية التي يطلبها، وفرصة للاتصال بالمراكز الحضارية المتطورة[2].

ويمكن القول أن الحج كان أهم الروابط التي ربطت شعوب أفريقيا بالعالم الإسلامي، وعلى حد تعبير (فيليب حتى): «لا يزال الحج على مر العصور نظاماً لا يبارى في تشييد عرا التفاهم الإسلامي والتأليف بين مختلف طبقات المسلمين وبفضله يتسنى لكل مسلم أن يكون رحالة مرة على الأقل في حياته وأن يجتمع مع غيره من المؤمنين اجتماعاً أخوياً وبفضل هذا النظام يتيسر للزنوج والبربر والصينيين والفرس والترك والعرب وغيرهم أغنياء كانوا أم فقراء عظماء أو صعاليك أن يتآلفوا لغة وإيماناً وعقيدة»[3].

---

(1) نعيم قداح، المرجع السابق، ص 10.

(2) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص 390 ـ 400.

(3) فليب حتى، ادوارد جرجي، جبرائيل جبور، تاريخ العرب، ط5، بيروت دار الغندور للطباعة والنشر والتوزيع، 1974م، ص 192 ـ 193.

والواقع أن الحج من المناسبات التي تربط بين علماء المسلمين، فالحج بالنسبة للعلماء وطلبة العلم هو رحلة علمية يلتقون أثناءها كبار الشيوخ والفقهاء في المراكز التي يمرون بها، وقد يطيب لبعضهم المقام بالأزهر الشريف أو المدينة المنورة وقد يمنح أحدهم إجازة أو أكثر من هؤلاء العلماء الذين يلتقي بهم في هذه المراكز العلمية.

والرحلة في طلب العلم أصبحت تقليداً علمياً إسلامياً منذ القرون الوسطى الأولى، والتنقل بين مراكز الثقل في الحياة الفكرية في العالم الإسلامي كالقاهرة ودمشق وفاس وتونس وغيرها، وإنشاء صلات وعلاقات بين العلماء وهي إحدى أبرز مظاهر الحياة الفكرية العربية الإسلامية عبر التاريخ العربي الإسلامي وعلى رأي ابن خلدون: «لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرحال»[1] وبالنسبة للحجاج وطلبة العلم الأفارقة عندما يتلقون تعليمهم في المراكز العلمية في الشمال الأفريقي والمشرق العربي خاصة ما يتعلق باكتساب اللغة العربية والتعمق في الدراسات الإسلامية ويحصلون على الإجازات اللازمة ثم يعودون إلى بلدانهم لنشر الإسلام وقد أصبحوا أقدر الناس على إقناع بني وطنهم ومقارعة الحجة بالحجة بلهجة وطريقة محلية وبسلوك جديد يعكس ما تعلموه من تجارب علمية وعملية[2].

ونظراً لما يجلبه لقب (حاج) على صاحبه من هالة وجاه، فقد كان التاجر الذي يريد أن يكسب ثقة الناس يكثر من الحج، والرجل العادي الذي يريد رفع مكانته في المجتمع. يقوم بأداء فريضة الحج، حيث كان الناس يكرمون الحجاج أعظم إكرام ويستقبلهم الملوك والسلاطين ورؤساء القبائل العامة عند عودتهم ويقومون بتوديعهم عند سفرهم للحج ويتبركون بهم[3].

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى (بت)، ص 541، منعم مزاوي، الحياة الفكرية في العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر الهجري (1700 ـ 1820م)، مجلة البحوث التاريخية، السنة الثانية العدد الأول، يناير 1980م، ص 115.

(2) عبد العزيز بن راشد العبيدي، وسائل انتشار الإسلام في أفريقيا، مجلة دراسات أفريقيا، ص 54.

(3) كعت، تاريخ الفتاش، ص 111.

فمن المظاهر التي تؤكد تأثر بلاد السودان الغربي بالأنماط العربية الإسلامية خروجهم في مواكب ضخمة لأداء فريضة الحج إلى الأراضي المقدسة وكانت هذه المواكب تسلك طرق عديدة من أهمها طريق الدرب الصحراوي المعروف بطريق غات، والذي يمر عند أهرام الجيزة بمصر[1].

ويبدو أنَّ تفضيل شعوب السودان الغربي لمصر كطريق للحج راجع إلى الازدهار الثقافي والحضاري لمصر آنذاك، وقد كانت قوافل الحج تمر بمصر، وتقيم بها فترة من الزمن انتظاراً لموسم الحج وتنتهز تلك الفرصة للمتاجرة بأسواق مصر المزدهرة وللنهل من معين الثقافة العربية الإسلامية ومن هناك كانت الاتصالات مدعاة لتعميق أواصر الأخوة الإسلامية والعلاقات المختلفة بين مصر وأهالي تلك المنطقة. والواقع أن الحج ظل يمثل أقوى الروابط، وفرصة للالتقاء والتبادل الفكري والثقافي والتجاري، وفرصة للاحتكاك المباشر بين المسلمين، والتعرف على أحوالهم المختلفة لقد صار من العادات المرعية في بلاد السودان الغربي أن الداخل في الإسلام حديثاً يعمل قدر جهده حتى يؤدي فريضة الحج ليضفي على نفسه شيئاً من الهيبة والدرجة العالية بين قومه، وكان أغلب أولئك الحجاج يتأخرون في رحلة الحج ولا يعودون إلا بعد قضاء مدة طويلة يقضون بعضاً منها في مجاورة الحرمين حيث يتلقون فيها تعليم الدين الحنيف في حلقات العلماء ويتلقون نظام الدعوة إلى هذا الدين[2].

وقد وجد من بين علماء الحرمين من كان لهم أثر كبير وفضل عظيم في نشر الدعوة والثقافة في بلاد السودان الغربي، دون أن يرتحلوا إلى تلك البلاد فهؤلاء العلماء حملوا على عاتقهم مهمة نشر الدين وذلك بتعليم الوافدين إلى الأماكن المقدسة لأداء فريضة الحج، فيلقنونهم مبادئ الدعوة وبعضاً من علوم الفقه وسيرة الرسول ﷺ ومباحث في التوحيد والتفسير.

---

(1) حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص 223.

(2) فضل كلود الدكو، المرجع السابق، ص 138.

فإذا صاروا قادرين على حمل الرسالة وتبليغها للناس أجازوهم ودعوا لهم بالتوفيق في نشر الإسلام في بلادهم فهم أقدر الناس على إقناع بني جلدتهم، ومقارعتهم الحجة بالحجة[1]. لذا عرف منذ القدم نظام المجاورة للحرمين الشريفين، وعرف حجاج غرب أفريقيا بهذا اللقب، فيقال هذا حاج إلى بيت الله الحرام وهذا حاج مجاور، أي جاور البيت أو جاور قبر الرسول ﷺ ودرس في الحلقات العلمية التي لا تنفض أبداً من الأماكن المقدسة[2].

وبهذا فإن أهل السودان الغربي يكرمون الحجاج أعظم تكريم ويستقبلهم الملوك والسلاطين ورؤساء القبائل بالتبشير والترحاب ويتبرك بهم العامّة، بل إن ملك مالي السلطان منسا موسى كان يقيم احتفالاً دينياً كل عام لاستقبال الحجاج العائدين من بيت الله الحرام وكان يقبل رؤوسهم وجباههم، ويقول إنها الجباه التي سجدت على أديم بيت الله الحرام[3].

وتتحدث المصادر التاريخية عن مواكب الحج إلى الأراضي المقدسة، وأشارت إلى أنه ومنذ تغلغل الإسلام في السودان الغربي حرص سلاطين الممالك الإسلامية في السودان الغربي، على تنظيم قوافل الحج السنوية إلى الأراضي المقدسة[4].

ولا شك أن رحلات الحج هذه كانت بالغة الأثر في نفوس أهالي المنطقة وكانت فرصة للالتقاء مع إخوانهم المسلمين في الأمصار المختلفة وبهذا تتأكد روح الأخوة التي يوجبها الإسلام كما يؤكد (ترمنجهام): «أن الشعور بأن الإسلام ديانة الأفارقة جميعاً كان شعوراً يتملك المسافرين من الأفارقة في رحلة الحج»[5] كما يقول

---

(1) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص 391 ـ 393.

(2) فضل كلود الدكو، المرجع السابق، ص 139.

(3) كعت، تاريخ الفتاش، ص 111.

(4) كعت، تاريخ الفتاش، ص 16، السعدي، تاريخ السودان، ص 7.

(5) شوقي الجمل، المرجع السابق، ص 145.

القلقشندي: «إن ملوك مالي ورعاياهم متمسّكون بالإسلام محافظون على أداء فريضة الحج إلى الأراضي المقدسة»[1].

وقد كان أداء فريضة الحج بالنسبة لأهالي السودان الغربي مدعاة للاعتزاز والمفخرة وقد كان الفرد منهم يلقب عقب عودته من أداء هذه الفريضة الدينية بالحاج وقد يكسبه هذا اللقب إجلالاً واحتراماً[2].

وقد عرف هذا النمط (مواكب الحج) منذ بداية دخول الإسلام إلى المنطقة إلا أن هذه المواكب ظهرت بوضوح أثناء موكب السلطان منسا موسى سنة 1324 الذي ضم من الحاشية الملكية والمواطنين أكثر من عشرة آلاف شخص[3].

وبالرغم مما في هذا العدد من مبالغة فإن مجيء ذلك الموكب الضخم أتاح للمناطق العربية التي اجتازها فرصة طيبة لمعرفة الكثير عن أحوال تلك البلاد وأتاح للسلطان منسا موسى ومرافقيه من جهة أخرى فرصة الاطّلاع على الأحوال الحضارية والأحوال العامة التي كانت تعيشها المناطق العربية في كنف ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وبذلك تركت هذه الرحلة المشهورة ذكرى عطرة في نفوس أهالي المناطق التي اجتازها ذلك الركب لما شهدوه من مظاهر الثراء، وضخامة عدد الحجيج المرافقين له، وكان لإنفاق منسا موسى كميات كبيرة من الذهب في تلك الرحلة[4]، أثر كبير في ذيوع شهرة مملكة مالي الإسلامية حتى ظهرت في الخرائط العالمية كما ظهرت في هذه الخرائط أيضاً صورة الملك منسا موسى الذي عرف بملك الذهب[5].

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 297.

(2) كـ مادهويانيكار، الوثنية والإسلام، ترجمة وتعليق أحمد فؤاد بليغ. المجلس الأعلى للثقافة، 1998م، ص 134.

(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 7.

(4) أحمد بابير، مخطوط الجواهر الحسان، ورقة 6.

(5) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص 201.

وكان العمري كثيراً ما يستمد معلوماته من الأمير أبي العباس أحمد بن الحاكي المهمندار الذي ندبه السلطان الناصر محمد للإشراف على ضيافة هذا الملك وقد أشار العمري نقلاً عن الأمير أبي العباس أن هذا الملك قد أظهر ثراءً واسعاً حيث قدم هدايا إلى الخزانة السلطانية بقوله: «ثم إنَّه قدم للخزانة السلطانية حملاً كثيراً من الذهب المعدني الذي لم يصنع بعد... ولم يدع أميراً ولا رب وظيفة إلا ونفحه من الذهب كما أفاض على الحجيج وأهل الحرم بمكة، وأكرمه سلطان مصر وأرسل إليه الخلع ووفر له جميع وسائل الراحة»[1].

ولقد كان لهذه الحجة آثار عظيمة على بلاد السودان الغربي، فقد تعرف العالم الإسلامي على هذه المناطق، وزاد الاتصال الحضاري العلمي والثقافي بين المنطقة وبقية العالم الإسلامي، وارتحل كثير من العلماء إلى بلاد السودان الغربي فاستقروا بها، ومنهم من سار مع السلطان منسا موسى مثل الشاعر المهندس أبو إسحاق الساحلي الغرناطي الذي اصطحبه منسا موسى معه من مكة ومات في تنبكت[2].

كما اصطحب معه عبد الرحمن التميمي وسلك السلطان منسا موسى طريق العودة عبر الأراضي الليبية حيث مر على مدينة غدامس واصطحب معه المهندس الليبي عبد الله الكومي الموحدي الغدامسي، الذي طور بناء جامعة سنكوري وقصره مع المهندس أبي إسحاق الساحلي[3].

ومن آثار هذه الحجة ازدهار حركة التبادل التجاري بين دولة مالي والشمال الأفريقي حيث أن التجار قد بدؤوا يتوافدون على السودان الغربي، بعدما بهرهم

(1) العمري، المصدر السابق، ص 44، حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص 224.

(2) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 694.

(3) ابن خلدون، العبر، ج6، ص 200 ـ 201، نعيم القداح، أفريقيا في ظل الإسلام، ص 54.

السلطان منسا موسى بما حمل معه من الذهب الذي فرقه في مصر والحجاز. ورغم أن مواكب الحج استمرت بعد ذلك إلى الأراضي المقدسة إلا أن أهمها كان موكب السلطان الأسكيا محمد الكبير الذي خرج حاجاً إلى بيت الله الحرام عام 1497م[1].

ولم يكن موكبه يقل عن موكب منسا موسى واختلفت الروايات حول أعداد المرافقين له في هذه الرحلة، حيث ذكر محمود كعت الذي كان مرافقاً للأسكيا في هذه الرحلة أن عدد العبيد والخدم قد بلغ ثمانمائة. وقد تصدّق الأسكيا على فقراء الحرمين بمائة ألف دينار ذهباً، واشترى بيوتاً وجناناً حبسها على الفقراء والعلماء المساكين[2] بينما ذكر السعدي أن عدد المرافقين كان ألفاً وخمسمائة وبلغت كمية الذهب التي أنفقها ثلاثمائة ألف مثقال من الذهب[3] وقد مر هذا الموكب الحاشد بمصر، وقد أشار إلى ذلك محمد الصغير الوفراني بقوله: «وكان الحاج المذكور رحل في أوائل المئة التاسعة إلى مصر والحجاز بقصد حج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام»[4].

ولقي الأسكيا محمد الكبير أعلام الإسلام بمصر والحجاز فالتقى بالسيوطي واستفتاه في بعض المسائل الدينية[5] كما سن الأسكيا محمد تقليداً صار لازماً على من خلفه وهي إعطاء مواكب الحج أهمية في مراسم البلاد والبلاط الملكي، فصار وفقاً لذلك الأساكي يخرجون لملاقاة مواكب الحجيج القادمة من الأرض المقدسة،

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 72.

(2) كعت، تاريخ الفتاش، ص 16.

(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 73.

(4) الوفراني، نزهة الهادي في أخبار ملوك القرن الحادي، ط2، الرباط، مكتبة الطالب، 1988م، ص 89.

(5) السعدي، تاريخ السودان، ص 73.

ويقدمون لهم الهدايا، ويتلقون منهم البركات والدعوات، وقد وقع بالتحديد في عهد الأسكيا داود وروى محمود كعت ذلك[1].

ولم تنل حجة الأسكيا محمد ما نالته حجة منسا موسى من الشهرة في المصادر التاريخية، بالرغم من أن الأسكيا محمد عاد حاملاً معه لقب الخلافة فأصبح يلقب بخليفة المسلمين، وأن الذي منحه هذا اللقب هو شريف مكة[2]، في حين يذكر السعدي بأنه صاحب المدينة[3].

ولكن يشك في أن يكون مصدر هذا اللقب أشراف الحجاز لضعفهم في ذلك الوقت، وربما قد يكون الذي منحه اللقب هو الخليفة العباسي المتوكل الذي كان في القاهرة حيث التقى به وجعله نائباً عنه في بلاد السودان[4].

وكان من آثار هذه الحجة توثق العلاقات بين سلطان سنغى وبين العلماء في مصر، وبخاصة الإمام السيوطي الذي أصبح بمثابة المستشار له[5].

وهكذا كان الحج بالنسبة للملوك والأمراء السودانيين مناسبة طيبة لمقابلة نظرائهم في البلدان الإسلامية التي يمرون بها، الأمر الذي يؤدي إلى إقامة علاقات وبناء صداقات معهم، فالملوك والأمراء السودانيون على مختلف دولهم وعصورهم، الذين خرجوا للحج أتاحت لهم رحلاتهم الحجازية الفرصة للاحتكاك بالدول الإسلامية في مصر والشمال الأفريقي والحجاز وتبادل الهدايا مع رؤساء هذه الدول، واقتباس نظم هذه الدول في الحكم والإدارة.

---

(1) كعت، تاريخ الفتاش، ص 111.
(2) المقريزي، الذهب المسبوك، ص 113.
(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 73.
(4) بوفيل، المرجع السابق، ص 236.
(5) كعت، تاريخ الفتاش، ص 68.

وهكذا فقد ظل الحج منذ بدء تنظيم رحلاته وعلى مر العصور، أكبر عامل موحد في الإسلام وأقوى رابطة بين مختلف طبقات وأجناس المسلمين الذين يجتمعون في وقت محدد وفق تقاليد وضوابط شرعية، ويؤدون مناسكهم في الأماكن المقدسة، فهذا الاجتماع لا شك أن له تأثيره الاجتماعي والثقافي العميق بين جماعات المسلمين.

الخاتمة

أدى الشمال الأفريقي دوراً مهماً في التأثير على الحياة الفكرية في السودان الغربي فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين، ولم يتوقف هذا التأثير حتى يومنا هذا، بل أصبح بوتقة انصهرت فيها الثقافة العربية الإسلامية الوافدة، في نوع من التلافح والمعايشة السلمية، مع الثقافات المحلية الأفريقية، الأمر الذي أدى إلى غلبة الطابع العربي الإسلامي في المنطقة، ويلاحظ المتتبع لحركة التاريخ أن الاتصالات والتمازج والانصهار العربي الأفريقي قد توج خلال الفترة المؤرخ لها بقيام مملكتي مالي وسنغاي الإسلاميتين، بدور فعال على مدى ثلاثة قرون في حمل مشعل الحضارة العربية الإسلامية في السودان الغربي.

وإذا كانت الثقافة العربية الإسلامية تسود حالياً في ربوع تلك المنطقة المعروفة جغرافياً اليوم باسم (غرب أفريقيا)، وإذا كانت أعداد كبيرة من الوطنيين الأفارقة ما ذولت تدخل أفواجاً في الإسلام، رغم محاولات التنصير الكنيسية والاستيعاب الثقافي من جانب الغرب الصليبي، فإن الفضل الأول لهذا التفاعل العميق مع الإسلام وحضارته الإنسانية، إنما يرجع إلى ذلك التأثير والتأثر المتبادلين بين العرب وأهالي السودان الغربي قديماً، لا سيما خلال ما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين.

ومساهمة في وضع العلاقات العربية الأفريقية في إطارها الصحيح وتنقيتها من بعض ما لحق بها من تشوهات وادّعاءات وافتراءات الأعداء، فإن هذه الدراسة حرصت على استيفاء كل معلوماتها من المصادر الأولية والمراجع المهمة والزيارة الميدانية التي كشفت بجلاء ووضوح ذلك الدور البارز الذي لعبه الشمال الأفريقي في شتى أوجه الحياة السائدة آنذاك في السودان الغربي.

وقد توصلت هذه الدراسة إلى إبراز بعض النتائج التالية :

أولاً : ترجع علاقة العرب بمنطقة السودان الغربي إلى ما قبل الإسلام ، فقد جذبت هذه المنطقة التي تتمتع بثروات طبيعية ضخمة مجموعات عربية من التجار والبدو فمنذ وقت مبكر تقربت تلك المجموعات من الشمال الأفريقي عبر الصحراء الكبرى ، التي لم تكن عائقاً لهم في يوم من الأيام .

وبمجيء الإسلام وتوطد العقيدة الإسلامية في الشمال الأفريقي في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي ، أعطى الإسلام المهاجرين العرب السند الروحي والمادي ، فتدفقوا في أعداد كبيرة حتى تخطوا الجنوب الصحراوي ووقفوا عند أبواب حواضر السودان الغربي .

وكان لانتشار الإسلام بين قبائل صنهاجة الملثمين دوراً حاسماً في نقل المؤثرات العربية الإسلامية إلى تلك البقاع .

ثانياً : لقد انتشر الإسلام من الشمال الأفريقي إلى السودان الغربي في الفترة التي سبقت جهاد المرابطين ، وخاصة بين الطبقات الحاكمة والمجموعات الأفريقية الأخرى التي شاركت الأهالي وخالطتهم وصاهرتهم .

ثالثاً : لقد أثبتت الدراسة أن الإسلام انتشر في السودان الغربي بالطرق السلمية من خلال حركة الدعاة السلمية ، التي قام بها أناس سخروا أنفسهم لهذا العمل الجهادي ، عن طريق الموعظة والقدوة الحسنة ، سواء كانوا من التجار أو الفقهاء ، كما كان لهجرات القبائل العربية دورها الكبير في نشر الإسلام في هذه المنطقة ، إلى جانب أصحاب الطرق الصوفية ، التي أدت دوراً مهماً في الدعوة الإسلامية وما صاحبها من نقل للمؤثرات العربية الإسلامية من اللغة العربية وغيرها .

رابعاً : كما بينت الدراسة أنه كان لرحلات الحج دورٌ مهمٌ في انتقال المؤثرات العربية الإسلامية ، وأيضاً دورها في ربط العلاقات والأواصر بين أهالي السودان الغربي والشمال الأفريقي .

خامساً: بينت الدراسة أنه كان للمراكز الحضارية والتجارية الصحراوية دورها المهم في نشر المؤثرات العربية الإسلامية، وذلك بما كانت تقدمه من مساعدة لأفراد القوافل من التجار والحجاج والعلماء وطلاب العلم والدعاة والفقهاء وغيرهم، وكذلك ما كان يقوم به سكان هذه المراكز من نشاط ثقافي وتجاري في بلاد السودان الغربي، حيث كون سكان هذه المراكز جاليات كبيرة في حواضر السودان الغربي، ومن هذه المراكز غدامس وتوات وتغاذو وسجلماسة وغيرها.

سادساً: أفادت الدراسة أن الطابع الثقافي الذي ساد في السودان الغربي كان مغربي السمات، فكانت المدارس ومراحلها ومناهجها ذات طابع مغربي بدرجة كبيرة، وقد تأثر أهالي السودان الغربي بالمذهب المالكي، المعروف بانتشاره الواسع في الشمال الأفريقي، وخاصة منذ أن عمل المرابطون في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي على نشره، كما كان معظم علماء المغرب الذين تقاطروا على تلك المنطقة يدينون بالمذهب المالكي، فالمغرب العربي بجانب إسهامه في نشر العقيدة الإسلامية والمذهب المالكي، ترك أثراً واضحاً في تجويد القرآن الكريم وهندسة الخط وإعجام الحروف وترتيبها، وظهر ذلك واضحاً في الكتابات الموجودة على جدران المساجد. هذا وتركت اللغة العربية آثاراً واضحة في بعض اللغات المحلية السودانية، التي صارت تكتب بالحرف العربي. وظل الأمر على ذلك حتى عمل الأوروبيون على كتابتها بالحرف اللاتيني، وذلك عقب موجة الاستعمار الأوروبي الحديث لأفريقيا، كما استخدمت العديد من الكلمات العربية في بلاد السودان الغربي في الحياة الدينية والثقافية والعلمية، وفي مجال القضاء والمكاتبات الرسمية، وفي أسماء المدن والأعلام.

ونتيجة لتأثير الشمال الأفريقي فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين، ظهرت مراكز ثقافية علمية بارزة مثل، تمبكت وجني ونياني وجاو وكانو، التي صارت مدارسها وجامعاتها منارات للعلم توافد عليها الطلاب من أرجاء بلاد

السودان الغربي، والشمال الأفريقي والأندلس، خاصة بعد سقوط غرناطة 1492م، فصارت هذه المراكز الثقافية والعلمية مركز إشعاع ثقافي وعلمي احتضنت العديد من العلماء الوافدين من الشمال الأفريقي والسودان الغربي والأوسط وقد أثرى هؤلاء العلماء الحياة العلمية والفكرية بمؤلفاتهم وإنتاجهم العلمي.

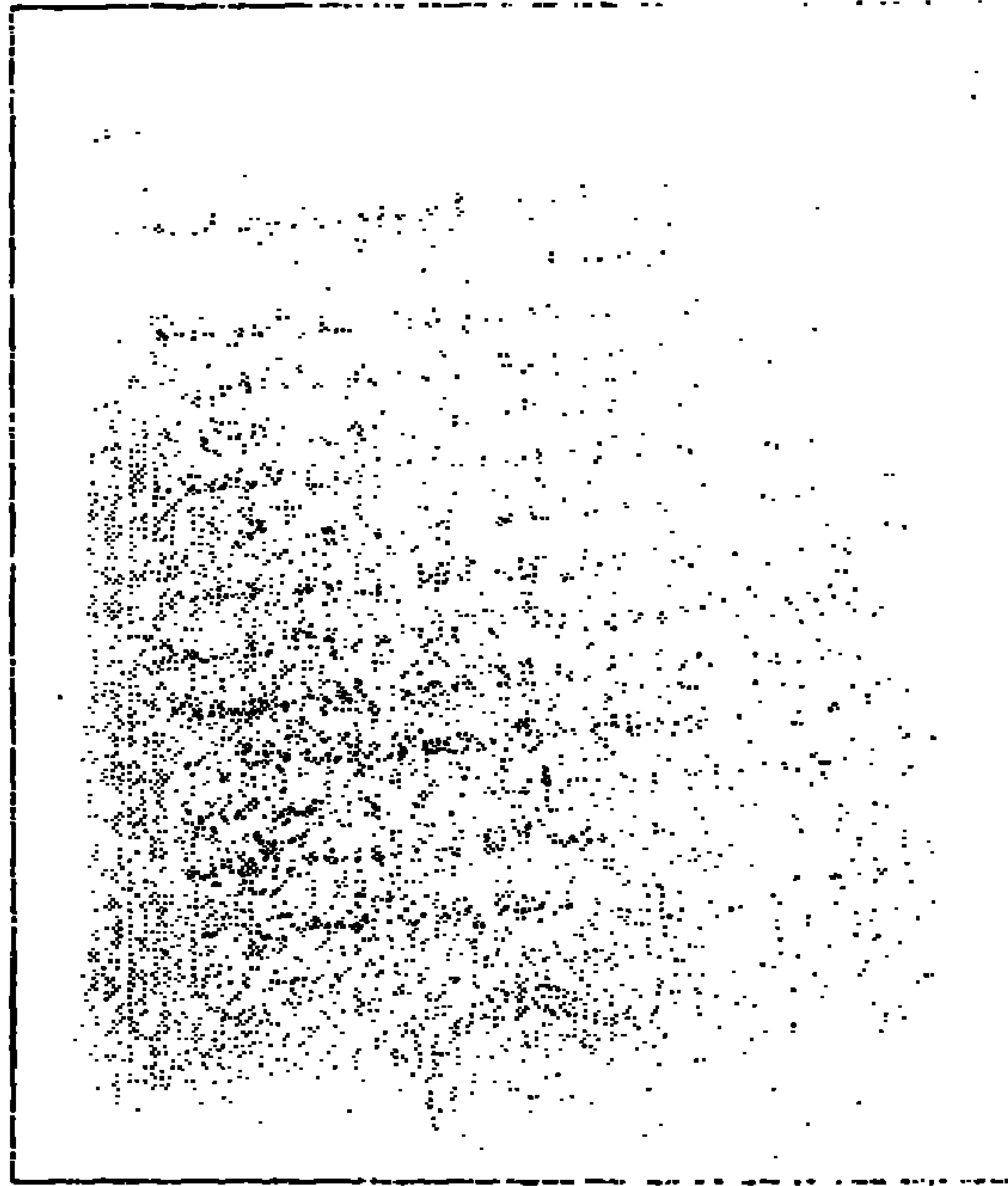
وأخيراً أتطلع أن تكون هذه الدراسة خطوة على الطريق الطويل، من أجل تأكيد الهوية العربية الإسلامية لهذه المنطقة، التي كانت - وباستمرار - امتداداً ثقافياً وحضارياً ودينياً وعرقياً للأمّة العربية الإسلامية.

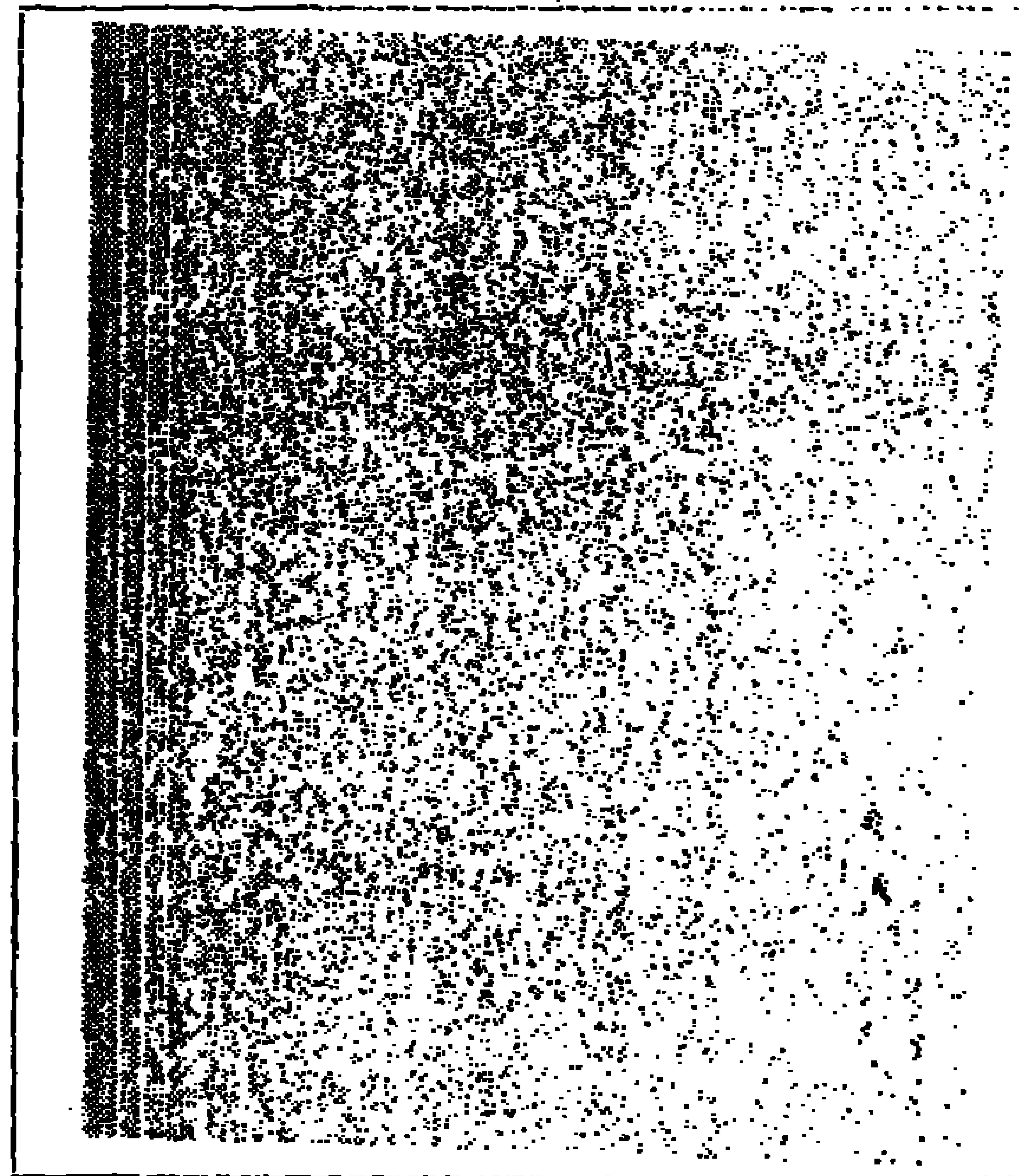
الملاحق

1 – ملحق المخطوطات

2 – ملحق الخرائط

3 – ملحق الصور





مخطوط ذكر فقهاء تنبكت رقم (42)

مركز أحمد بابا

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وسلم تسليماً.

ذكر فقهاء تنبكت وعلمائها رحمهم الله ونفعنا ببركتهم وأذول عنا دجى الجهالة والضلالة بهم وكشف عنا الضيم والكرب، كل وقت وحين وجعل بلدنا بلد رخص للتجارة وسقاها لساكنها بحرمتهم آمين، منهم الفقيه القاضي محمد الكابري وسيدي عبد الرحمن التميمي والشيخ محمد نصر والفقيه القاضي الحاج وأخوه الفقيه إبراهيم وحفيده الفقيه القاضي ابراهيم بن القاضي عمر الساكن، وأبو عبد الله القاضي اندغ محمد بن عثمان بن محمد بن نوح والفقيه القاضي حبيب بن الفقيه محمد العالم بن سيدي عبد الرحمن التميمي، والفقيه المختار النحوي بن القاضي اندغ محمد وابنه اندغ، محمد المختار النحوي وابنه محمد محيي بن الفقيه المختار والشيخ المداح وأبو العباس أحمد بن اندغ محمد بن محمود بن الفقيه اندغ محمد الكبير الزكمي وأبو محمد عبد الله بن الفقيه أحمد بيري بن أحمد بن الفقيه القاضي اندغ محمد الكبير والفقيه عبد الله والفقيه الحاج أحمد والفقيه القاضي محمد بن الفقيه عمر بن محمد بن أقيت بن عمر بن علي بن يحي بن كدالة الصنهاجي والقاضي عبد الرحمن بن القاضي الحاج وعمر الحاج وعمر أحمد بن عمر نزيل المدينة المشرفة والفقيه أحمد بن الحاج أحمد بن عمر والقاضي محمد والقاضي العاقب والقاضي عمر والفقيه عبد الله والفقيه عبد الرحمن أبناء الفقيه محمود.

مخطوط إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر العلماء المؤمنين من أهل التكرور والصحراء وشنقيط لأحمد أبو الأعراف رقم (492).

مركز أحمد بابا

[illegible]

[illegible] الى شسمر

[illegible] كتابهم

[illegible] الكتب [illegible]

[illegible] من تقدم اخبار [illegible]

[illegible] جمع

[illegible] ذا الازمان

[illegible] وانا اتبع ذكر من [illegible] عليهم

[illegible] والفرات فقالوا [illegible] بنو

[illegible] بما [illegible]

[illegible] الملوك [illegible]

[illegible] رئيس الروم [illegible]

[illegible]

[illegible] تعالى

[illegible] والجبال

[illegible] دمشق [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] وقالت [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي خلق كل قوي وكل ضعيف، وخص أهل العلم بالمعرفة التامة والتعريف، ويسر لهم التبليغ باللسان والتأليف، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد ذي المعجذوت الظاهرات الباهرات، وعلى آله السادات، أصحابه الثقات ومن تبعهم إلى يوم الدين من الهداة، وبعد: فيقول عبد ربه المعترف بجهله وتقصيره وسهوه وتفريطه، أحمد أبو الأعراف الموسو على عشيرة والتكني قبيلة الجلميمي منبتا ومولداً الودادنوني السوسي بلداً: قد ساقني القدر إلى سكن تنبكت وكنت قبل ذلك سكنتُ مدة في شنقيط، ورأيت كثيراً من فضلاء أهلها وأنا والحال لست بعالم ولا من أهل العلم ولكن أحب العلم وأهله، وكانت مدتي بتنبكت أكثر وبها أشهر وفي آخر الأمر بسبب نشر المطبوعات ومقالات الإثبات تنبهت إلى أحوال هذه البلاد ووزنتها مع أحوال غيرهم، فإذا هم غافلون عن فن التاريخ، ولا ترى من يلهج بغير ما سطر الأولون، فصرت أتذكر مع العلماء ممن يرد علينا بهذه الحضرة التي هي تنبكت من أطراف بلادها ما سبب تركهم وقلة اعتنائهم بالتاريخ، فيجيب البعض بأنه علم لا ينفع وجهالة لا تضر، وبعضهم يجيب بقولهم قدم الأهم فإن العلم جم وبعضهم يقول: إن القيامة قد قربت، فما فائدة فن علم التاريخ، وبعضهم يقول: إن الأحوال تقلبت ونحن في شغل عظيم مع تلجلج القلوب، وربما حاججت بعضهم بقوله ﷺ اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، وفن التاريخ لابد أن يكون صالحاً للدنيا والآخرة، فإن كان صالحاً للدنيا فقط فهو فرض كفاية وإن كان صالحاً للآخرة فهو فرض عين على من فيه قابليته، وهو عندي صالح لهما قال ابن الخطيب:

وبعد فالتاريخ والأخبار ... فيه لنفس العاقل اعتبار
وفيه للمستبصر استبصار ... كيف أتى القوم وكيف صاروا
يجري على الحاضر حكم الغائب ... ويثبت الحق بسهم صائب
وينظر الدنيا بعين النبل ... ويترك الجهل لأهل الجهل

وقال آخر:

ليس بإنسان ولا بعاقل من لا يعي التاريخ في صدره

ومن روي أخبار من قد مضى أضاف أعماراً إلى عمره

قال السيد أحمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج ما نصه: (الجاهل بالتاريخ راكب عمياء وخابط خبط عشواء ينسب إلى من تقدم أخبار من تأخر ويعكس ذلك ولا يتدبر)..

ولقد رأيت مجلساً جمع ثلاثة عشر مدرساً منهم قاضي قضاة ذلك الزمان وغيره من الأعيان، فجرى بينهم وأنا أسمع ذكر من تحرم عليه الصدقة وهم ذوو القربى المذكورون في القرآن فقالوا هم بنو عبد المطلب، وأن عبد المطلب هو هاشم فما أحقهم بلوم كلٍّ لائم، إذْ هو أصل من أصول الشريعة أهملوه وباب من أبواب العلم أغفلوه وذكر قضية رئيس الرؤساء الآتية قريباً انتهى...

انتهى بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه وصونه ما وجد من كتاب إذولة الريب لأحمد بن أبي الأعراف على يد كاتبه لنفسه، ولمن شاء الله بعده حرصاً عليه وحفظاً للتراث الإسلامي العبد الفقير إلى رحمة الله مولاه خادم العلم والعلماء محمود بن محمد ددب بن المرحوم فراج سيد الملقب بهو الأرواني التنبكتي تب عليه وعلى إسلامه والمسلمين بتاريخ ليلة الأربعاء 29 من شهر الله شعبان المعظم 1412 هجرية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام موافق 3 مارس 1982 ميلادية والحمد لله رب العالمين.

إجازة في الطريقة القادرية في الزاوية القادرية في طرابلس إلى أحد الطلبة في كانو

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

لا إله إلا الله محمد رسول الله

حمداً لمن يجيز من استجازه جميع العقبات ويفيض على من أطاعه أنواع البركات ويمنح من استمنحه أسباب قربه ورضاه والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي إلى صراط مستقيم وعلى آله وأصحابه وأتباعه أولي النهج القويم السالكين سبيل الحق والنجاة أما بعد فإنه لما كان أخونا في الطريقة القادرية الشيخ الموفق العفيف السيد سعد بن أحمد صم البليلي ممن أختاره الله تعالى واجتباه لإحياء طريقة أستاذنا شيخ الإسلام سيدنا عبد القادر الجيلاني ومن المواظبين على أحذويه وأوراده والمتمسكين بحبل عهده، أجزناه بما أجازني به شيخنا في الطريقة المذكورة المرحوم سيدي الحاج محمد بن حمادي الذي تلقاها عن شيخه فيها الشيخ الأبر سيدي محمد بن علي بن عبد النور عن شيخه، محمد المازني الحسيني عن شيخه مصطفى عن أبيه زين الدين وأخيه نور الدين عن أبيهما محمد الرضي درويش عن والده حسام الدين عن أبيه نور الدين عن عمه أبي بكر عن والده يحيى عن أبيه ولي الدين عن والده زين الدين عن والده شرف الدين عن أبيه شمس الدين عن والده محمد الهتاي عن أبيه الماجد سيدنا الشيخ عبد العزيز عن والده شيخ الطريقة والجامع بين الشريعة والحقيقة غياث القاصي والداني مُحيي الدين سيدنا عبد القادر موسى الجيلاني وهو رضي الله عنه تلقّى الطريقة عن شيخه فيها الشيخ أبي سعيد المبارك بن علي المخزومي عن الشيخ أبي الحسن علي بن يوسف القرشي الهكاري عن الشيخ أبي الفرج الطرسوسي عن الشيخ أبي بكر والد الشبلي عن الشيخ أبي القاسم الجنيد البغدادي عن الشيخ عز الدين السقطي عن الشيخ معروف الكرخي عن الشيخ داود الطاعي عن الشيخ حبيب العجمي عن سيدنا الحسن البصري عن أمير المؤمنين ونصر الملة والدين اللّيث الغالب سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن سيد المرسلين ورسول رب العالمين

ومولانا ونبينا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وسلم وكرم وأذنْت في أن يقلد ورد أستاذنا المشار إليه لكل من يرغب في الدخول بسلك هذه الطريقة أو يأخذ العهد على من أراد الانتظام في ذلك السلك المقدس وأن يجيز كل من رآه أهلاً للإجازة، وأوصيه وأيايَ بتقوى الله تعالى وطاعته وإخلاص العمل لوجهه تعالى وبالمواظبة على ذكر الله عز وجل لقوله ﷺ (أحب الأعمال إلى الله أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله) وأحثه على التواضع للكبير والصغير وعدم رؤية النفس والنفس أمّارةٌ بالسوء والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم وما التوفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

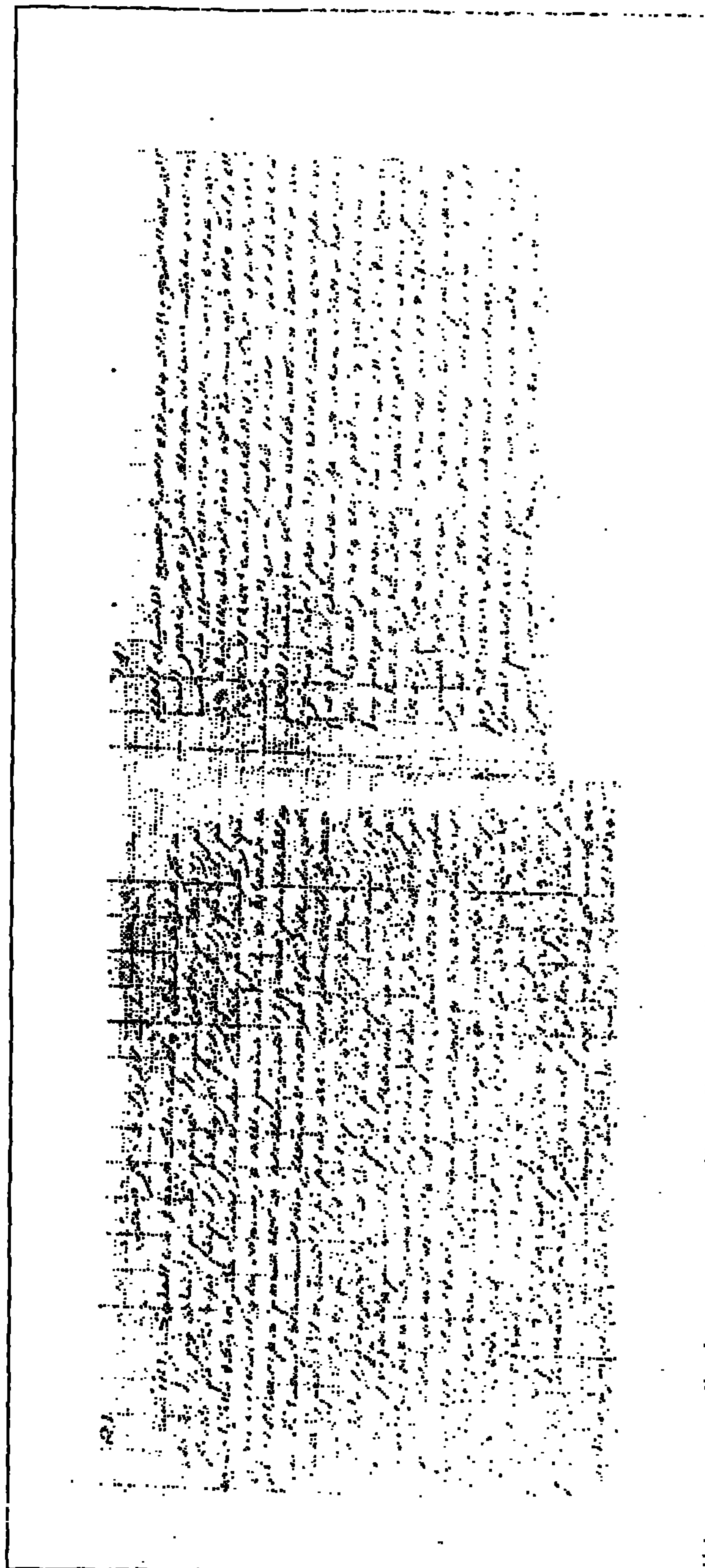
تحرر في السادس عشر من شهر صفر سنة ألف وثلاثمائة وثمانية عشر من هجرة سيد البشر ﷺ بطرابلس الغرب.

عبره نصر بن محمد بن نصر القمي

بعد حمد من نصب لإعلاء كلمته رجالاً عارفين واختار من سبقت لهم منه العناية لإحياء دينه المتين وأمدهم بروح منه واصطفاهم لهداية عباده ليكونوا من المفلحين واجتباهم لحضرته وجعلهم على أقدام الأنبياء والمرسلين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الداعي إلى سبيل النجاة والحق المبين وعلى آله وأصحابه الذين اهتدوا بهديه ونصروه ببذل النفس والنفيس والمال والبنين، أقول وأنا أحد الفقراء وأفقر ما يرى مخاطباً حضرة أخينا المحترم سيدي سعد بن أحمد صم البليلي الأكرم إني تشرفْتُ بالشريف كتابكم الحاوي للذيذ خطابكم فأكرم به من وارد وأنعم به من وافد، أنبأنا إنه قد حفتكم العناية الإلهية وعمتكم النفحات النبوية بمرتبة التقدم في الطريقة القادرية وبه تلتمسون الإذن والإجازة، فبناء على ذلك سرٌّ صاحب الإمضاء أداء لحقوق الطريقة وطلباً لإعلاء أعلام التوفيق، كما أنّي أجيزكم أيضاً بما أجازني به

أستاذنا المذكور وبما أجازني به أستاذنا الشيخ البشر وبما أجازني به شيخي وشيخهما في الطريقة الحاج محمد بن حمادي رحمه الله تعالى وبما أجازني به البركة سيدي الحاج الأمين ابن العالم عن شيخنا المربي المرحوم سيدي أحمد المسعودي الصيد وعن العلامة الشيخ محمد العكاري والكل عن المرحوم الأبر الشيخ الأكبر سيدي محمد بن علي عبد النور بسنده الصحيح المتصل بمحيي الملة والدين القائم بسنة سيد المرسلين صاحب القدر العلي سيدنا عبد القادر الجيلاني بسنده الوهاج لصاحب الشفاعة والمعراج عليه من الله الصلاة والسلام وعلى آله وصحبه على مرّ الليالي والأيام فعليك يا أخي بمتابعة الشرع القويم وإياك وفعل ما أحدثه أهل البدعة في الطريقة وعدوه من الصراط المستقيم وأوصيك بمجالسة أهل العلم وسؤالهم عما تجهله ولا تقدم على شيء عبادة كان أو معاملة حتى تعلم حكم الله فيه ولا تقل هكذا وجدنا من قبلنا يفْعل أو هذا من علم الباطن ونحو ذلك مما تعتقده الجهلة وعليك بالتواضع للكبير والصغير والغني والفقير والمساواة بين الجليل والحقير إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

23 صفر الخير سنة 1371 هجري عبره علي بن محمد سيابه



مخطوط الجواهر الحسان في أخبار السودان لأحمد بابير الأرواني رقم (106) مركز الوثائق والمخطوطات بنيامي

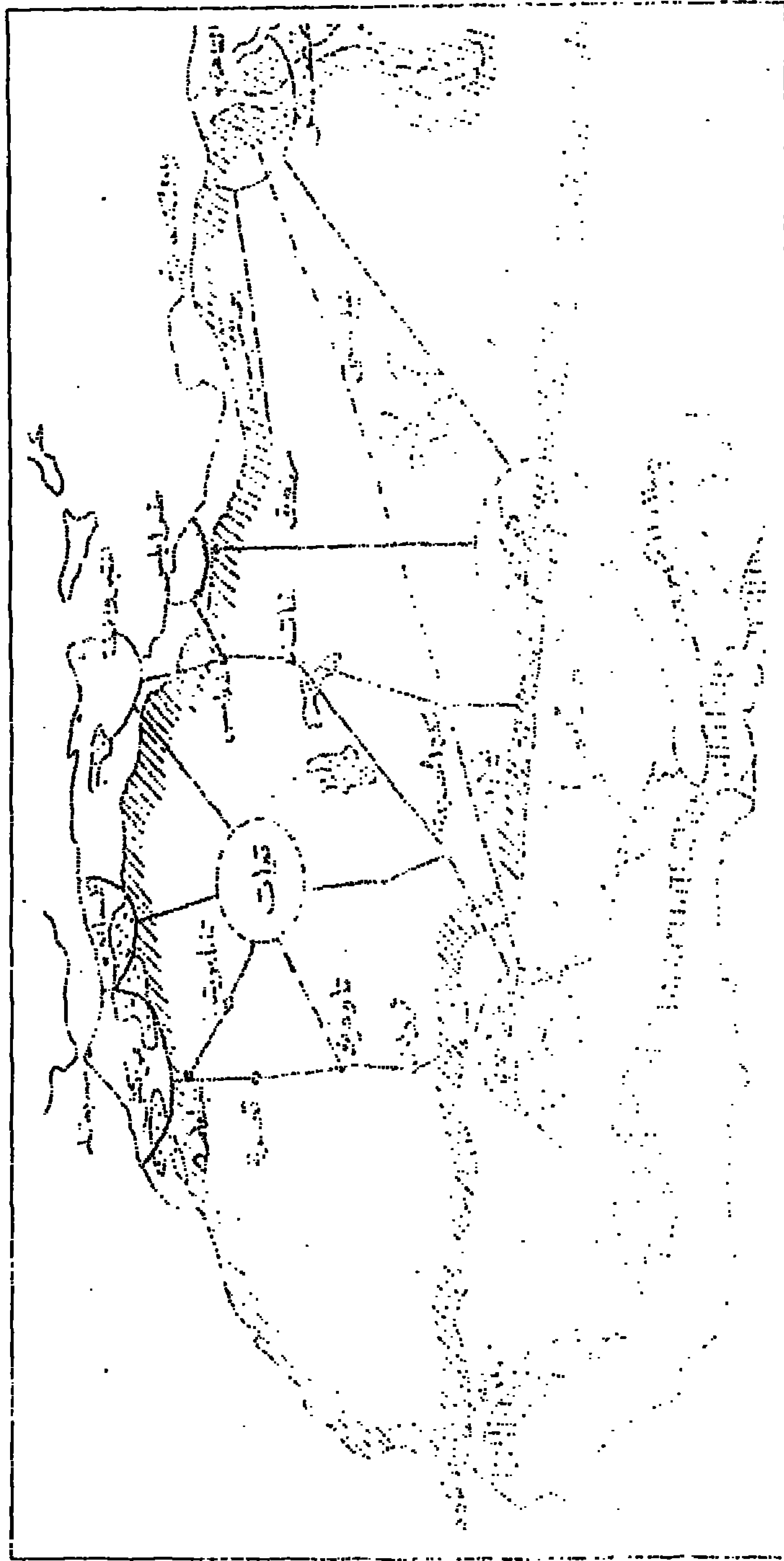
الحمد لله المختتم بالملك والبقاء المحيط بجمع الأشياء العالم بما كان وما يكون سبحانه من ملك قادر وعزيز قاهر، الذي قهر عباده بالموت والفناء، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد خاتم الرسل والأنبياء وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين من أهل التقوى والاعتناء، أما بعد فإني لما طلب مني درر الحسان وفتشت عنه في كل جهة ومكان وطلبته من كل من ينتسب للعلم هنا فلم أجده، وتفكرت على ضياع الكتب وتأسفت على ذهاب أهل العلم وعدم وجود من يخلدهم وكنت أقدم رجلاً وأوخر أخرى في جمع أخبار ملوك السودان وأكابرهم وحروبهم وما بينهم من الابتداء إلى الانتهاء بلا اختصار فجمعته في مدة قليلة فجاء بحمد الله ومعونته على وفق مرادي وسميته باسم الكتاب المفقود ليكون بدله (جواهر الحسان في أخبار السودان) وكان كذلك وأحسن منه وأبين منه والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن يثيبني عليه بمنّه وكرمه بكريم جنته جنة النعيم إنّه على ذلك قدير وجدير وبعباده لطيف خبير.

الباب الأول في ذكر سنغي

ذكر ملوك سنغي: أول من تملك فيها من الملوك ذو الأيمن ثم ذو زكي ثم ذوتكي ثم ذو اكي ثم ذوكوا ثم ذو على ثم ذوبي كمي ثم ذوبي ثم ذوكري ثم ذويم كروي ثم ذويم ثم يم دنك كطيبع ثم راكو كري ثم ذو كنكن هؤلاء أربعة عشر ملكاً ماتوا جميعاً في جاهلية وما آمن أحد منهم بالله ورسوله ﷺ والذي أسلم منهم ذوكسي يقال له في كلامهم مسلم دم معناه أسلم طوعاً بلا إكراه رحمه الله تعالى وذلك في سنة أربعمائة من هجرة النبي ﷺ ثم ذوكسي داريي ثم ذو هن كزونك دم ثم ذو بي كي كيم ثم ذو نتناسني ثم ذو بي كين كنب ثم ذو كين شنينب ثم ذو نب ثم ذو يم داد ثم ذوادور ثم ذو على كر ثم ذويير فلك رحمه تعالى ثم ذو ياسبي ثم ذو دور ثم ذو زنك با ثم ذو بس بار ثم ذو بدا ثم سن الأول على كنن وهو الذي قطع حبل الملك على رقاب أهل سنغي من

أهل ملي وأعانه الله تعالى على ذلك ثم السلطان بعده وليه أخوه سلمن نار وهما أبناء ذو يا سبي ثم سن ابراهيم كي ثم سن عثمان كنف ثم سن بار كين انكبي ثم سن موسى ثم سن بكر زنك ثم سن بكر دل يينب ثم سن مار كري ثم سن محمد داع ثم سن محمد كوكيا ثم سن محمد فاز ثم سن كرييف ثم سن مار في كل جم ثم سن مار ار كن ثم سن مار ار ندن ثم سن سليمان دام ثم سن على ثم سن بار اسمه بكر داع ثم بعده اسكيا الحاج محمد أمير المؤمنين.

أما الملك الأول ذو الأيمن أصل اللفظ جاء من اليمن قيل: إنَّه خرج من اليمن هو وأخوه سائرين في أرض الله تعالى حتى انتهى بهما القدر إلى بلد كوكيا وهو قديم جداً في ساحل البحر في أرض سنغي.

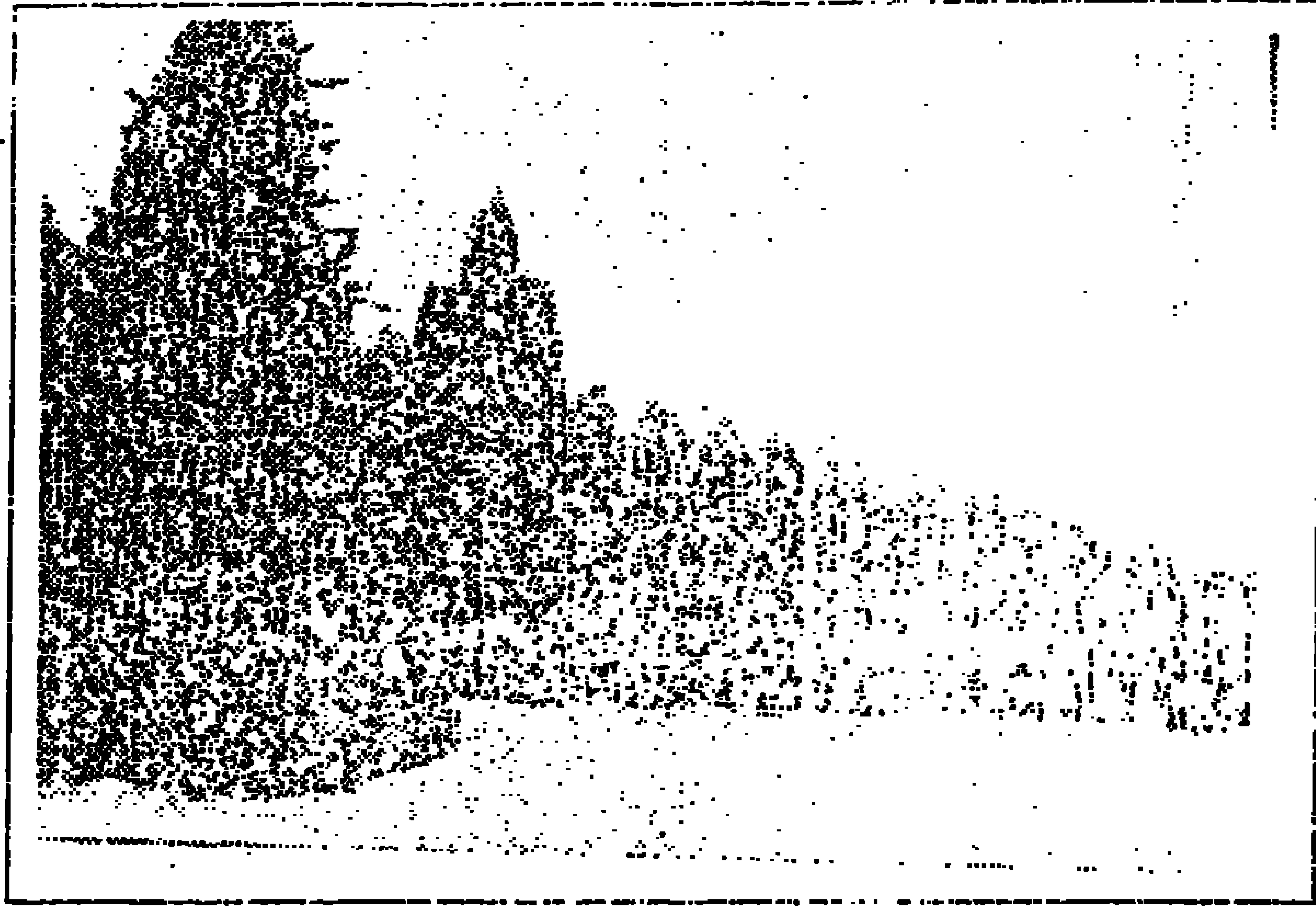


خريطة توضح أهم الحواضر في السودان الغربي والشمال الأفريقي وطرق القوافل الرابطة بينهما.

المصدر حسن ابراهيم حسن، انتشار الإسلام في أفريقيا، ص 23.

خريطة توضح طرق القوافل بين بلاد السودان والشمال الأفريقي في العصور الوسطى
المصدر فضل كلود الدكو، الثقافة الإسلامية في اتشاد، ص 348

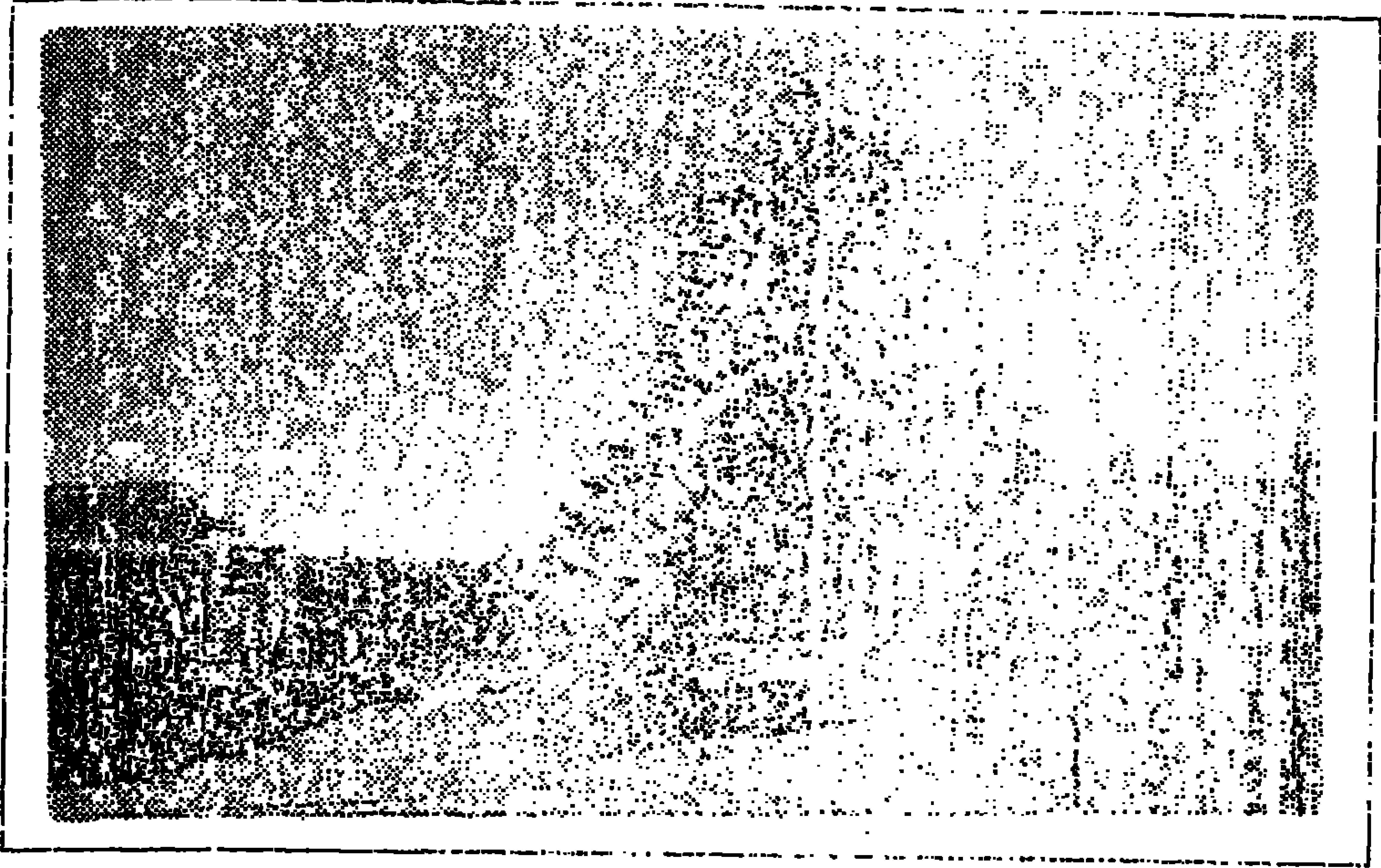
ملحق الصور



1 - المسجد العتيق بتنبكت

يطلق على هذا الجامع (سجنكري بيري) أي الجامع الكبير، شيده السلطان منسا موسى، سلطان مالي بعد رجوعه من الحج، وقد بناه المهندس أبو إسحاق الساحلي وعبد الله الكومي الموحدي الغدامسي، على الطراز المغربي الإسلامي، وبنى صومعته على خمسة صفوف، كان ذلك في أوائل القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، وقد ألحقت به من جهة اليمين قبورهم، وهي عادة عند أهالي السودان الغربي فهم يدفنون موتاهم في رحاب مساجدهم، ولهذا الجامع موقع ممتاز يتوسط مدينة تنبكت، وقد أجريت على الجامع عدة توسيعات كان أولها 977 هـ 1569م على يد العاقب بن القلمني محمود، كما ساهم في توسيعه السلطان أسكيا داود، الذي أكمل ما عجز عنه القاضي العاقب[1].

(1) الهادي الدالي، التاريخ الحضاري، ص 15.



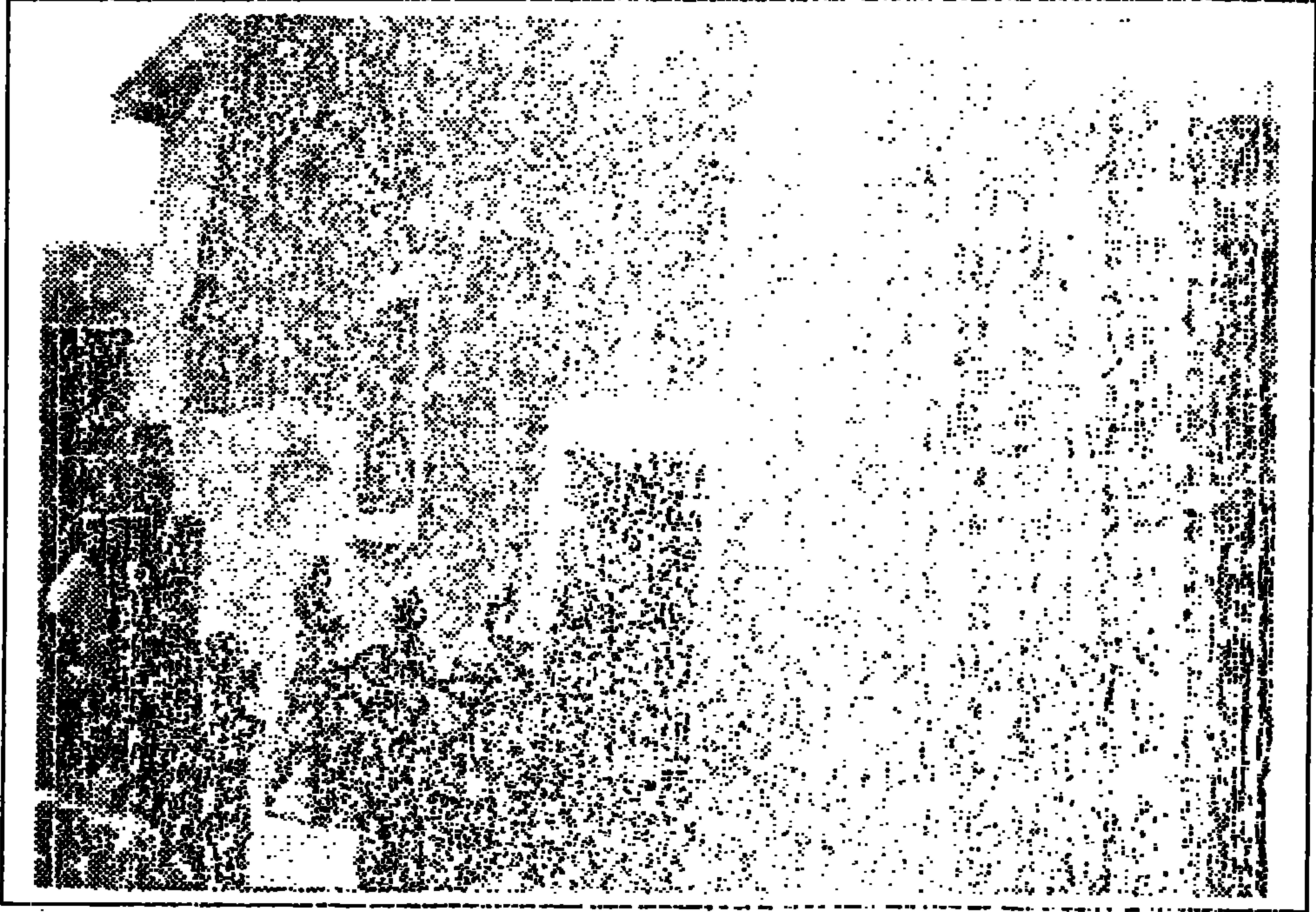
2 - جامع سنكري بتنبكت

جامع سنكري من أهم المنارات العلمية في السودان الغربي، قامت ببنائه سيدة غلالية كانت تمتلك ثروة كبيرة وظفت جزءاً منها لهذه المنارة[1].

جدد بناءه القاضي العاقب عام 980هـ، 1578م[2].

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 62.

(2) للمزيد من المعلومات، ارجع إلى ص 90، الهادي الدالي، التاريخ الحضاري، ص 150.



3 - مدخل الذووية العروسية الأسمرية بكانو

تأسست الذووية العروسية في كانو في القرن العاشر الهجري في حارة دندلاي بكانو، حيث يوجد حي لليبيين (الغدامسيين) تدرس بها العلوم الدينية والشرعية وحفظ القرآن الكريم.

يوجد بها قبر الشيخ فتح الله أبو راس.

أحد مشايخ عبد السلام الأسمر الفيتوري[1].

زارها الباحث في صيف 1999 م عند زيارته لكانو.

---

(1) ناصر كبرى، الرسالة الجالية في ذكر علماء دولة الصوتو، فيرجس، 1996م، ص 37.



4 - مدرسة تعليم القرآن بكانو



5 - مدرسة تعليم القرآن بكانون

ما زالت إلى اليوم طريقة تدريس القرآن الكريم بهذه الصورة.

المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات:

1 ـ الأرواني، أحمد بابير، السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تمبكت البهية مخطوط رقم 16، مركز أحمد بابا التمبكتي، تمبكت، مالي.

2 ـ الأرواني، أحمد بابير، جواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط رقم 106 مركز الوثائق، نيامي، النيجر.

3 ـ الأرواني، محمد محمود، الترجمان في تاريخ الصحراء والسودان وبلد تمبكت وشنقيط وأروان ونبذة من تاريخ الزمان في جميع البلدان، مخطوط رقم 760 مركز أحمد بابا، تمبكت، مالي.

4 ـ أبو الأعراف، أحمد، إذولة الريب والشك والتفريط في ذكر العلماء المؤمنين من أهل التكرور والصحراء وشنقيط، مخطوط رقم 492، مركز أحمد بابا، تمبكت مالي.

5 ـ البغطوري، مقرين بن محمد، سيرة أهل نفوسة، دون تصنيف، مكتبة الباحث.

6 ـ السيوطي، جلال الدين، رسالة الى ملك التكرور، مخطوط رقم 0416، دار الكتب المصرية، القاهرة.

7 ـ مجهول، ذكر بعض الأولياء المحيطين بتمبكت وكيفية زيارتهم، مخطوط رقم 2285، مركز أحمد بابا، تمبكت، مالي.

8 ـ مجهول، ذكر فقهاء تمبكت، مخطوط رقم 42، مركز أحمد بابا، تمبكت مالي.

9 ـ مجهول، نبذة عن تاريخ جني، مخطوط رقم 35، مركز أحمد بابا، تمبكت مالي.

10 ـ مجهول، ترتيب مشايخ السلسلة القادرية مع أسماء الله الحسنى، مخطوط رقم 897 مركز أحمد بابا، تمبكت، مالي.

11 ـ الكنتي، مختار، منظومة في سلسلة أشياخ مختار الكنتي القادرية، مخطوط رقم 1398، مركز أحمد بابا، تمبكت، مالي.

ثانياً: المصادر المطبوعة

القرآن الكريم، مصحف الجماهيرية، رواية قالون عن نافع المدني.

1 ـ ابن بطوطة، أبو عبيد الله محمد بن إبراهيم اللواتي، رحلة ابن بطوطة، بيروت، دار صادر، د ـ ت.

2 ـ ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة 1979م.

3 ـ ابن خرداذبة، أبو القاسم عبد الله بن أحمد، المسالك والممالك، ليدن، 1976م.

4 ـ ابن خلدون، عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، مؤسسة جمال الدين للطباعة والنشر، 1979م.

5 ـ ابن عبد الحكم، فتوح المغرب والأندلس، نشر النص العربي والترجمة الفرنسية البرت جانو 1948م.

6 ـ ابن عماد، أبي الفلاح عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، د ـ ت.

7 ـ ابن فودي، محمد بلو، أنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، طن عن طا بيرو صكتو، 1964م.

8 ـ الأصطخري، أبو إسحاق الفارسي، المسالك والممالك، القاهرة، مطبعة الحسيني، 1961م.

9 ـ الإدريسي، أبو عبيد الله بن محمد بن عبدالله، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق بوسيد، مكتبة الثقافة الدينية، د ـ ت.

10 ـ الباروني، عبدالله، سلم العامة والمبتدئين في معرفة أئمة الدين، مصر، د ـ ت.

11 ـ الباروني، سليمان، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، تونس أبو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، 1986م.

12 ـ البرتلي، أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الولاتي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981م.

13 ـ البكري، عبد الله، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، بغداد، مكتبة المثنى، د ـ ت.

14 ـ التمبكتي، أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد بن أقيت بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم عبد الحميد الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1989م.

15 ـ التونسي، محمد بن عمر، تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق خليل عساكر، ومصطفى سعيد، مراجعة مصطفى زيادة، الدار المصرية للتأليف والنشر، 1965م.

16 ـ الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت، معجم البلدان، بيروت، دار صادر 1979م.

17 ـ الخطيب، لسان الدين، أعمال الأعلام لمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام، تحقيق حسن حسني، وعبد الوهاب خالد، د ـ ت.

18 ـ السعدي، عبد الرحمن، تاريخ السودان، باريس، نشر هوادس 1964م.

19 ـ السخاوي، شمس الدين محمد عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة، ط3، 1955م.

20 ـ السيوطي، عبد الرحمن، الحاوي للفتاوي، القاهرة مكتبة القدسي، 1351هـ.

21 ـ الشنقيطي، أحمد بن الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ط2، القاهرة مطبعة السنة المحمدية، 1958م.
22 ـ العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر أباد، 1976م.
23 ـ العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار فرانكفورت، معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية، ج4، 1988م.
24 ـ الفاسي، علي أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك وتاريخ مدينة فاس، الرباط، مطبعة دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973م.
25 ـ الفشتالي، أبو فارس عبد العزيز، مناهل الصفاء في مآثر موالينا الشرفاء دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، 1972م.
26 ـ القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، د ـ ت.
27 ـ القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1963م.
28 ـ كعت، محمود، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، باريس، نشر هوداس 1964م.
29 ـ مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق، سعد زغلول، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، 1985م.
30 ـ مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، مطبعة الرشاد الحديثة، 1979م.

31 ـ المراكشي، ابن عذارى، بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة، ج س كولان وليفي بروفنسال، ط3، الدار البيضاء، الدار العربية للكتاب، 1983م.

32 ـ المغربي، أبو الحسن علي بن سعيد، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، مطبعة المكتب التجاري للطباعة والنشر، 1970م.

33 ـ المقريزي، تقي الدين أحمد علي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1955م.

34 ـ المقريزي، تقي الدين أحمد علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة، 1953م.

35 ـ المقري، أحمد بن محمد، روضة الآس العاطرة في ذكر من لقيته من أعلام الحضارتين مراكش وفاس، تقديم عبد الوهاب منصور، الرباط، ط2، 1993م.

36 ـ السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، 1954م.

37 ـ الوزّان، الحسن، وصف أفريقيا، ط2، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983م.

38 ـ الوفراني، محمد الصغير، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، الرباط، ط2، مكتبة الطالب، 1988م.

المراجع

أولاً: الكتب المطبوعة والمعربة

1 - إبراهيم، محمد عبد الفتاح، الثقافات الإفريقية، القاهرة، 1965م.

2 - إبراهيم، محمد عبد الفتاح، أفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1961م.

3 - أرنولد، توماس، الدعوة إلى الإسلام، ط3، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين، القاهرة دار مكتبة النهضة المصرية، 1970م.

4 - أسير، أمين، أفريقيا للعرب، بيروت، دار الحقائق، 1980م.

5 - الألوري، آدم عبد الله، الإسلام في نيجيريا، ط3، 1978م.

6 - الألوري، آدم عبد الله، موجز تاريخ نيجيريا، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1965م.

7 - أوليفر، دولاند وجون فيح، موجز تاريخ أفريقيا، ترجمة دولت أحمد صادق مراجعة محمد السيد غلاب، مطابع كوستا لوسي 1965م.

8 - بوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، طبعة 2، جامعة قاريونس 1988.

9 - التكتيك، جميلة أحمد، مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير (1493 - 1528م) منشورات مركز جهاد السليين، 1999م.

10 - جامي، عبد القادر، من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى، ترجمة محمد الواسطي، قدمه علي مصطفى المصراتي، طرابلس، دار المصراتي للطباعة والنشر والتوزيع، 1974م.

11 - جمس، رتشارد س، ترحال في الصحراء من 1845 - 1846م، ترجمة الهادي أبو لقمة، منشورات جامعة قاريونس، 1993م.

12 - الجمل، شوقي، دور العرب الحضاري في أفريقيا، القاهرة، دار الثقافة العربية، 1987م.

13 ـ الجدي، عمر محاضرات في تاريخ المذهب المالكي، الدار البيضاء، منشورات دار عكاظ، 1987م.

14 ـ حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة 1984م

15 ـ حسن، حسن إبراهيم، الإسلام في القارة الأفريقية، ط3، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1984م.

16 ـ حسن، يوسف فضل، الجذور التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1984م.

17 ـ حسن، يوسف فضل، انتشار الإسلام في أفريقيا، الخرطوم، مطبعة جامعة القاهرة 1979م.

18 ـ حسين، أحمد الياس، سلع التجارة الصحراوية، طرابلس، مركز الليبيين للدراسات التاريخية، 1979م.

19 ـ حشيمة، عبدالله، في أفريقيا السوداء، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1962م.

20 ـ دافدسن، بازل، أفريقيا تحت أضواء جديدة، ترجمة جمال أحمد، بيروت، دار الثقافة العربية، 1961م.

21 ـ الدالي، الهادي المبروك، التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، الشركة العامة للورق والطباعة، مطابع الوحدة العربية، الذووية، 2000 ف.

22 ـ الدالي، الهادي المبروك، التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، القاهرة الدار المصرية اللبنانية، 1999م.

23 ـ الدالي، الهادي المبروك، العلاقات بين مملكة مالي الإسلامية وأهم المراكز بالشمال الأفريقي، منشورات مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، بيروت، دار المحيط، 1999م.

24 ـ الدالي، الهادي المبروك، مملكة مالي الإسلامية وعلاقاتها مع المغرب وليبيا اللجنة العلمية لدراسة جنوب الوطن العربي، بيروت: دار صنين للطباعة والنشر 1996م.
25 ـ الدالي، الهادي المبروك وعمار هلال، الإسلام واللغة العربية في مواجهة التحديات الاستعمارية في غرب أفريقيا، 1850 ـ 1914م، اللجنة العلمية لدراسة جنوب الوطن العربي، بيروت، دار صنين للطباعة والنشر، 1996م.
26 ـ الدالي، الهادي المبروك، من روائع أدباء أفريقيا فيما وراء الصحراء، اللجنة العلمية لدراسة جنوب الوطن العربي، بيروت، دار صنين للطباعة والنشر، 1996م.
27 ـ دندش، عصمت عبد اللطيف، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا 1103 ـ 1121م، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988م.
28 ـ ديشان، هوبير، الديانات في أفريقيا السوداء، ترجمة أحمد صادق، القاهرة، دار الكتاب المصرية 1965م.
29 ـ دي فيج جي، تاريخ غرب أفريقيا، ترجمة وتقديم وتعليق السيد يوسف نصر، مراجعة بهجت رياض صليب، القاهرة، دار المعارف، 1982م.
30 ـ الدكو، فضل كلود، الثقافة الإسلامية في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم، طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1998م.
31 ـ زبادية، عبد القادر، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، الجذوئر، الشركة الوطنية للنشر، 1977م.
32 ـ زكي، عبد الرحمن، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية، القاهرة، المؤسسة العربية الحديثة، 1964م.
33 ـ زكي، عبد الرحمن، الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، دمشق، مطبعة يوسف، د.ت.
34 ـ زناتي، محمود سلام، الإسلام والتقاليد القبلية في أفريقيا، بيروت، دار النهضة العربية 1969م.

35 ـ الزيادي، محمد فتح الله، انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه، دمشق، دار قتيبة، 1990م.

36 ـ س ج سلجلمان، السلالات البشرية في أفريقيا، ترجمة يوسف خليل، القاهرة 1959م.

37 ـ سعيد، عمر، محاضرات في التاريخ القومي المالي لطلبة المدارس العربية بماكو 1989م.

38 ـ شلبي، أحمد، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية للتأليف والنشر، ط5، 1990م.

39 ـ الشيخ، عبد الرحمن عبد الله، دول الإسلام وحضارته في أفريقيا، الرياض، دار اللواء، 1983م.

40 ـ طرخان، إبراهيم علي، الإسلام واللغة العربية في السودان الغربي والأوسط، القاهرة، البيئة المصرية للتأليف والنشر، 1969م.

41 ـ طرخان، إبراهيم علي، إمبراطورية غانا الإسلامية، القاهرة، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، 1970م.

42 ـ طرخان، إبراهيم علي، دولة مالي الإسلامية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1973م.

43 ـ طرخان، إبراهيم علي، إمبراطورية البرنو الإسلامية، القاهرة، المكتبة العربية، 1975م.

44 ـ الطيبي، أمين توفيق، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس ليبيا ـ تونس، الدار العربية للكتاب، 1984م.

45 ـ عبد الظاهر، حسن عيسى، الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفولاني في مطلع القرن الثاني عشر الهجري، الرياض، 1981م.

46 ـ عبد القادرة، سيلا محمد، المسلمون في السنغال، كتاب الأمة، قطر، 1986م.

47 ـ العمري، أحمد سويد، الأفريقيون والعرب، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية 1967م.

48 ـ عنان، محمد عبد الله، نهاية الأندلس، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1964م.

49 ـ عوض الله، الشيخ الأمين، العلاقات بين المغرب والأقصى والسودان الغربي، جدة، دار المجمع العلمي، 1979م.

50 ـ غانم، عماد ومايكل محرز وحمد الأسطى وآخرون، الصحراء الكبرى، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1979م.

51 ـ الغربي، محمد، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، بغداد، دار الرشيد للنشر، 1982م.

52 ـ غيث، أمطير سعد، التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي، طرابلس، دار الرواد، 1996ف.

53 ـ الفيتوري، عطية مخزوم، دراسات في تاريخ شرق أفريقيا وجنوب الصحراء منشورات جامعة قاريونس، 1998م.

54 ـ قاسم، جمال زكريا، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، القاهرة 1974م.

55 ـ قداح، نعيم، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، القاهرة، 1960م.

56 ـ قداح، نعيم، حضارة الإسلام وحضارة أوربا في أفريقيا الغربية، الجذوئر 1975م.

57 ـ القشاط، محمد سعيد، الطوارق عرب الصحراء الكبرى، ط2، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، إيطاليا، كالياري، مطابع أديتار، 1989م.

58 ـ كريم، عبد الكريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، الرباط، شركة الطبع والنشر، 1977م.

59 ـ الماحي، عبد الرحمن عمر، الدعوة الإسلامية فـي أفريقيـا الواقـع والمستقبل، ط5، الجذوئر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1989م.
60 ـ مارتي، بول، البرابش بنو حسان، عربه وعلق عليه محمـود ولـد ودادي، دمشـق، مطبعة زيد بن ثابت، 1985م.
61 ـ مارتي، بول، كنته الشرقيون، تعريب محمد محمود ولد ودادي، دمشق مطبعة زيد بن ثابت، 1985م.
62 ـ مادهويانبكش، الوثنية والإسلام، ترجمة وتعليق أحمد فؤاد بليـغ، المجلـس الأعلـى للثقافة، 1998م.
63 ـ محمد، عوض محمد، الشعوب والسلالات الأفريقية، القاهرة، 1966م.
64 ـ محمود، حسن أحمد، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، القاهرة، 1962م.
65 ـ المنجد، صلاح الدين، مملكة مـالي عـن الجغرافيـين، بـيروت، دار الكتـاب الجديـد، 1963م.
66 ـ وايدنر دونالد، تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة علي فخري وشوقي عطا الله الجمل، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، 1976م.
67 ـ هلال، عمار، الطرق الصوفيـة ونشـر الإسـلام والثقافـة العربيـة فـي غـرب أفريقيـا، الجذوئر، مطبعة المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1988م.
68 ـ يوشع، بشير قاسم، غدامس ملامح وصور، بـيروت، دار لبنـان للطباعـة والنشـر، 1973م.
69 ـ يونان، محمد المبروك، تاريخ التطـور السياسـي للعلاقـات العربيـة الأفريقيـة، ط1، 1991م.

ثانياً: الرسائل العلمية:

1 ـ برزي، عبدالله موسى، أهمية اللغة العربية في العلاقات الاقتصادية والثقافية بين مملكة سنغاي وليبيا فيما بين القرون 8/ 10 هـ/ 14/ 16م، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الدعوة الإسلامية، 2000ف.

2 ـ جوب، إبراهيم موسى، الفولانيون ودورهم في نشر الإسلام في غرب أفريقيا رسالة ماجستير، جامعة الفاتح، 1983م.

3 ـ حسين، أحمد الياس، الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى، في مستهل القرن السادس عشر، كما عرفها الجغرافيون العرب، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة القاهرة، 1977م.

4 ـ الدقير، كمال محمد الضوء، دور الطريقة القادرية في نشر الإسلام في السودان رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة قاريونس، 1996م.

5 ـ عابدين، أحمد فتوح، الحواضر الإسلامية في غرب أفريقيا في القرنين السادس والسابع عشر الملايين، رسالة دكتوراه، غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، 1989م.

6 ـ نور الدين، عبد القادر صالح، علاقات فذون بكانم بين 3 ـ 7 هـ/ 9 ـ 13م، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة الفاتح، 1986م.

ثالثاً: الدوريات

1 ـ أحمد، عثمان سيد، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، مجلة دراسات أفريقيا، المركز الإسلامي، الخرطوم، العدد الأول أبريل، 1985م.

2 ـ بطران، عزيز، الشيخ المختار الكنتي الكبير ودوره في نشر الإسلام والطريقة القادرية في الصحراء وغرب أفريقيا، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني يوليو 1981م.

3 ـ تاوشيخت، سجلماسة كمحطة للتواصل الحضاري بين ضفتي الصحراء، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الأفريقية على جانبي الصحراء، طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1999م.

4 ـ زيادية، عبد القادر، التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي وبعض آثاره وأعماله في الجنوب الجذوئري وبلاد السودان، مجلة الأصالة، الجذوئر، 26، 2، 1975م.

5 ـ أبو سعيد، عبد السلام، أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام في أفريقيا مجلة كلية التربية، العدد 16، 81/ 1982م.

6 ـ الشفيع، محمد أحمد، العلاقات العريقة بين مناطق الشمال الأفريقي وجنوب الصحراء الكبرى وغرب أفريقيا في مجال الثقافة العربية الإسلامية، حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، 1997م.

7 ـ الطيبي، أمين توفيق، أثر الإسلام الحضاري في غانا ومالي في العصر الوسيط أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الأفريقية على جانبي الصحراء، طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1999م.

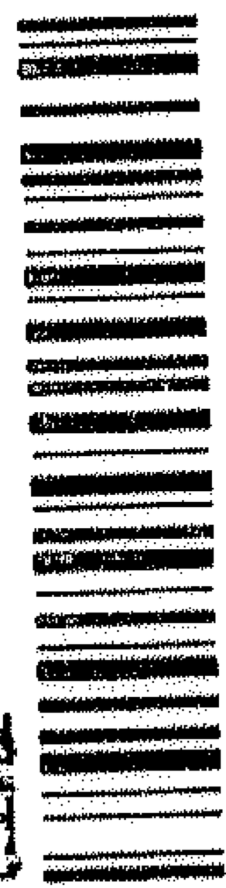
8 ـ الطيبي، أمين توفيق، دور المرابطين في نشر الإسلام في السودان الغربي، مجلة الثقافة العربية، العدد الثاني، 1987م.

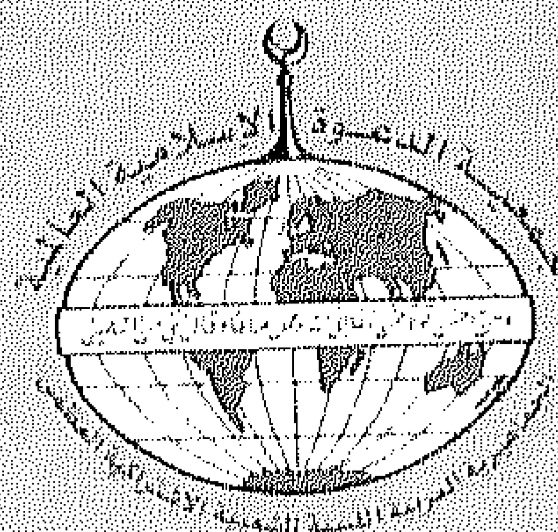
9 ـ الطيبي، أمين توفيق، الحضارة العربية الإسلامية وأثرها الإيجابي في السودان الغربي في القرون الوسطى، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، 1980م.

10 ـ عبد الله، ددود ولد، دور الشناقطة في نشر الثقافة العربية الإسلامية بغرب أفريقيا حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، أنواكشوط، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1989م.

11 ـ العراقي، السر سيد أحمد، انتشار اللغة العربية في بلاد غرب أفريقيا، مجلة دراسات أفريقيا، العدد الأول، الخرطوم، 1985م.

12 ـ فاي، منصور، الملامح الحضارية والعلمية للسودان الغربي في القرنين 14/ 15 الميلاديين، مجلة حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، 1997م.
13 ـ الفيتوري، أحمد سعيد، الجاليات العربية المبكرة في بلاد السودان، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين، العدد الثاني، 1981م.
14 ـ كامل، عبد العزيز، الرسول والتفرقة العنصرية، مجلة المؤرخ العربي، العدد 16، بغداد، 1981م.
15 ـ مزّاوي، ملحم، الحياة الفكرية في العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر الهجري (1700 ـ 1820م) مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين، العدد الأول، يناير، 1980م.
16 ـ موزين، محمد، المغرب وبلاد السودان خلال القرنين 16 ـ 17م، مجلة المؤرخ العربي، بغداد، 31، 1987م.





منشورات
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
الجماهيرية العظمى - طرابلس
برنامج ما بعد كانو